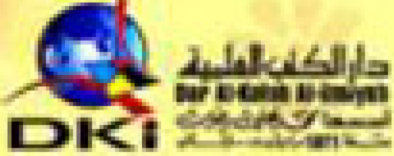
سلسلة أعيان من شيوخ الشاذلية بالمغرب ٩

شرح رائية وشرح تائية سيدي محمد البوزيدي

لتلميذه سيدي أحمد بن عجيبة
رضي الله عنهما



تحقيق
الدكتور محمد بن محمد المهدي التمسماني



سلسلة أعيان من شيوخ الشاذلية بالمغرب ⑨

شرح رائية وشرح تائية سيدي محمد البوزيدي

لتلميذه سيدي أحمد بن عجيبة

رضي الله عنهما

تحقيق

الدكتور محمد بن محمد المهدي التمسماني



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

الكتاب : شرح رائية وشرح تائية سيدي محمد البوزيدي

Title : ŠARḤ RĀ'IYYAT WA ŠARḤ TĀ'IYYAT SĪDĪ MUḤAMMAD AL-BŪZĪDĪ

التصنيف : تصوف

Classification: Sufism

المؤلف : سيدي أحمد بن عجيبة (ت ١٢٢٤ هـ)

Author : Sidi Ahmed ben Ajiba (D. 1224 H.)

المحقق : الدكتور محمد بن محمد المهدي التمسماني

Editor : Dr. Mohammed ben Mohammed Al-Mahdi Al-Tamsamani

الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages	192	**عدد الصفحات**
Size	17x24 cm	**قياس الصفحات**
Year	2017 A.D. - 1438H.	**سنة الطباعة**
Printed in	Lebanon	**بلد الطباعة** لبنان
Edition	1st	**الطبعة** الأولى

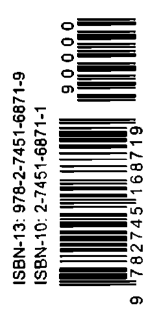
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah, Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ‎+٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٠/١١/١٢
فاكس: ‎+٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٣
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN-13: 978-2-7451-6871-9
ISBN-10: 2-7451-6871-1



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

قال الشيخ مولاي العربِي الدرقاوي رضي الله عنه ونفعنا الله ببركاته: (واعْلموا، عَلَّمَكُمُ الله خيراً ووقاكم شرّاً، أنّي آخر ما سَمعتُ من الشيخ الجليل أبِي الحسن سيدي علي الجمل العمرانِي رضي الله عنه: "تَعَرَّضُوا لنفحات الله")، ومن جملة التعرض لنفحات الله شرحُ التلميذ لبعض آثار شيخه، وهذا شأن المحبين الأذكياء الفطنين، ألا ترى أن سيدي أحمد بن عجيبة رضي الله عنه لَما شرَحَ قصيدة شيخه الرائية وأرسل له الشرح، فرح سيدي محمد البوزيدي رضي الله عنه فرحاً شديداً فقال: (لو سألنا الله تعالَى يوم القيامة عن سيدي أحمد لقلنا له إنه يحبنا)، ثم قال لِمن حضر: (سيدي أحمد هو خليفتِي حيّاً وميتاً).

هذا وسيدي أحمد بن عجيبة تعَرَّض أيضاً لنفحات الله، فشرَح قصيدة شيخه التائية، ولا أدري الجزاء الذي حصل عليه بشرحه للتائية.

ولا أعلم لسيدي محمد البوزيدي قصيدة أخرى، فلو كانت له قصيدة أخرى لشرحَها تلميذه سيدي أحمد بن عجيبة والله أعلم.

هذا ولسيدي محمد البوزيدي رسائل عديدة، وكتاب عظيم في الآداب وهو (الآداب المرضية لسالك طريق الصوفية)، فالرسائل وكتاب الآداب المرضية لا يحتاجان إلَى شرح، فلذا لَم يتعرض سيدي أحمد بن عجيبة إلَى شرحهما، والله أعلم.

الرائية والتائية شرحَهما مريد الشيخ بل خليفة الشيخ، وهاتان القصيدتان شُرِحتا

في زمن الشيخ واطَّلَعَ عليهما الشيخ، والشرحان مبارَكان، فقد أثْمر شرح الرائية بشارة عظيمة للمريد الشارح كما سبق ذكره.

الرائية تحتوي على 29 بيتاً، والرائية تحتوي على 366 بيتاً. الرائية قمرية والتائية شَمسية، أو تقول الرائية نورية والتائية ضيائية، أو تقول الرائية مستمِدة والتائية مُمِدَّة، فالتائية أعظم نوراً من الرائية، وكلاهما نورٌ.

القصيدتان نور، والشرح نور على نور، أي (نور) مستَمِدّ مِن (على نور)، لأن نور المريد من نور شيخه، وعند الشرح امتزج نور الفرع بنور الأصل، فرجَعَ نور الفرع إلَى أصله، والرجوع إلَى الأصْل أصْل. قال سيدي أبو الحسن الششتري:

مِنِّـــي علَـــيَّ دارَتْ كُؤوسِـــي مِـــنْ بعـــد مـــوتِي ترانِـــي حَـــيْ

(مِنِّي) أي نور الفرع، (عَلَيَّ) أي نور الأصل، (دارَتْ) وامتزجتْ، (كؤوسي) أي كؤوس المحبة الإلَهية التِي شربَها كلّ من الشيخ والمريد، والله أعلم.

وبِما أن النور، مع مرور الوقت، يزداد قوة ومناعة وإشراقاً وإشعاعاً، فالملاحظ أن شرح التائية أعظم نوراً وأعلى نفَساً من شرح الرائية، فقد تَمَّ شرح الرائية فِي عام 1214 هـ، وتَمَّ شرح التائية فِي عام 1221 هـ، وكلا الشرحيْن تَمَّا فِي منتصف شهر رمضان أي فِي شهر النور.

قال سيدي محمد البوزيدي في رسالته التِي وجَّهها إلَى تلميذه سيدي أحمد بن عجيبة في بداية أمره: (إنْ أدرتَ مفاتح العلوم ومخازن الفهوم فعليك بالقدوم).

قوله (مفاتح العلوم) أي علوم الباطن، فقد كان سيدي أحمد بن عجيبة أكبر عالِم في علوم الظاهر في زمانه.

فِي شرح القصيدتيْن، نرى بجلاء ووضوح نتائج المفاتح التِي أخذها سيدي أحمد بن عجيبة من شيخه سيدي محمد البوزيدي، وبفضل تلك المفاتح وصل سيدي أحمد بن عجيبة إلَى مخازن الفهوم، بل الشارح حقّاً للقصيدتيْن هو الشيخ سيدي محمد البوزيدي الذي أعطى لِمريده المفاتح والمخازن.

سيدي محمد البوزيدي شيخ عظيم في التربية، ففي كتابه (الآداب المرضية لسالك طريق الصوفية) وفي قصيدتيْه الرائية والتائية، ينصح سيدي محمد البوزيدي

المريدين ويرشدهم إلَى أقرب طريق وأكملها، قال الشيخ مولاي العربِي الدرقاوي في حق تلميذه سيدي محمد البوزيدي: (والله ما علمت أحداً من فقراء الوقت يعرف طريق القوم مثله)، وهذه شهادة عظيمة من إمام الطريقة الدرقاوية الشاذلية.

وفَّقَنا الله إلَى العمل بنصائح الشيخ سيدي محمد البوزيدي في قصيدتيْه، وهذا هو الهدف الأكبر من نشر هذا الكتاب، وجعلنا الله مِمن يستمع القول فيبتع أحسنه، والله ولِي التوفيق.

نسألك يا ألله يا نور، أن تعطينا نوراً على نور، وأن تجعلنا أنواراً ماحقة لكل ظلمة، وأن تحققنا باسْمك النور، وصلى الله وسَلَّمَ على النور الأوَّل سيدنا محمد الذي منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالَمين.

الدكتور محمد بن محمد المهدي التمسماني

الرباط 7 دجنبر 2008م

تنبيه

هذا الكتاب امتداد لكتابِي (الإمام سيدي محمد بن أحمد البوزيدي ترجمته وبعض آثاره) [الكتاب الثالث، ضمن سلسلة أعيان من شيوخ الشاذلية بالمغرب] الذي يتضمن ثَمانية أبواب:

. الباب الأول: ترجمة سيدي محمد البوزيدي.

. الباب الثانِي: ستة وعشرون رسالة لسيدي محمد البوزيدي.

. الباب الثالث: شرح سيدي محمد البوزيدي للأبيات الثلاثة التِي أوّلها (تطَهَّرْ بِماء الغيب إنْ كنتَ ذا سر).

. الباب الرابع: كتاب الآداب المرضية لسالك طريق الصوفية، لسيدي محمد البوزيدي.

. الباب الخامس: فهارس كتاب (الآداب المرضية لسالك طريق الصوفية).

. الباب السادس: قصيدتان لسيدي محمد البوزيدي الرائية والتائية.

. الباب السابع: تلاميذ وبعض أحباء سيدي محمد البوزيدي.

. الباب الثامن: موسم سيدي محمد البوزيدي.

أو نقول: هذا الكتاب امتداد للباب السادس من كتابِي (الإمام سيدي محمد بن أحمد البوزيدي ترجمته وبعض آثاره).

الباب الأول

ترجمة سيدي محمد البوزيدي

قال سيدي محمد بوزيان الغريسي المعسكري في كتابه "الطبقات"

(خالص خاصة صفوة خلاصة أرباب الشهود والعيان، وإنسان عين أعيان عيون قادة قدوة المتمسكين في الرسوخ والعيان، بحر جواهر لآلئ ياقوت المرجان، من أعطى في وقته ما لم يعط أحد من الخيرات الحسان وعرائس أبكار حور العين التي لم يطمثهن إنس ولا جان، من شرب كأس الحقيقة حتى خرج الري على أظفاره، ورأى ببصيرته ما فاض نوره على حدقة أشفاره، فأدرك بنور الحق ما لا يرى قط، وسمع ما لو سمعه شامخ الأطواد لدك وسقط، فرد الأولياء، وسيد أهل وقته بلا امتراء، من بكت عليه السماء والأرض، وصاحب المقام الأسمى، والمرتبة العظمى، من طلعت شمسه في أفق السماء، وأحيى الله به قلوباً غلفاً وعيوناً عمياً وآذانا صما، الحصن المانع الأحمى، وبمثل هذه وأحسن منها كان الشيخ [1] رضي الله عنه يترجمه بها، وهو سيدنا وعزنا وفخرنا وعنايتنا ونصرتنا ورفعتنا، وعطيته وهيبته وكرامته ومنته ورحمته التي ظهرت منا وإلينا وفينا وعلينا، وبدر طريقتنا وشمس ضحاها، وفلك حقيقتنا وقطب رحاها، ورئيس سفينتنا التي بسم الله مجراها ومرساها، وناشر لواء المعاني على من خلعت عليه وكساها، الواضح الآيات، البين العلامات، الساكر الصاحي الجامع، الفقيه

---

(1) أي الشيخ مولاي العربي الدرقاوي.

الصوفي الكامل الواسع، الشيخ الجليل القدر، العظيم الشأن والخطر، أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد بوزيد الغمَاري السَّلْمَانِي الحَسَنِي، رضي الله عنه وأرضاه، وجعل جنة النظر والمعارف مثواه. كان رحمه الله قبل ملاقاته بأستاذنا شابا صغيرا قد حبب الله له الانقطاع إليه، والاعتماد عليه، ودوام الصيام والقيام سائحا في الخلوات زاهدا، ورعا عابدا مجتهدا، لا يأوي إلى العمارة، بلغ في مقامه هذا مبلغا عند الله عظيما، نشأ على ذلك منذ الصبا لأن والدته رضي الله عنها كانت من الصالحات المتعبدات مأوى للعُبَّاد والزهاد يأتونها من بلد إلى بلد بقصد الزيارة والتبرك، فأخذه ذلك الحال، ورحله غاية الارتحال، فساح وجال بشاطئ بحر طنجة حرسها الله، فلما أراد الله به الكمال الحقيقي وسلوك طريق الشهود والعيان ترقيًا عن الدليل والبرهان ونفع العباد به وخدمة شيخنا وأولاده وعز طريق التصوف وأهله قيض له سبحانه وليًا من أولياء الغيب فقال له اذهب إلى فاس فشيخك بها وهو فلان الفلاني إذ الطريق لا تسلك بدون شيخ فقدم إليها وهو لا يعرفها ولا يعرف أهلها ولا الشيخ الذي قصد فسأل عنه فدل عنه في الحين فلما قرع الباب عليه خرج ونظر إليه فأخذ بيده وأدخله على أولاده وقال ما مثلك من يقف بالباب وأنا أنتظرك منذ كذا وكذا، فلقن له بعد الورد اسم الجلالة ألله إذ هو اسم الله العظيم الأعظم وسلطان الأسماء لأنه علم على ذات واجب الوجوب وهو عينها والأسماء كلها للتخلق إلا هو فإنه للتعلق كما قال سيدنا أبو العباس المرسي رضي الله عنه، فأخذه عنه بشروطه فنجح وأفلح، فلا تسأل حينئذ عما أخفي لهم من قرة أعين من الخير والفضل والبركة والسر والنور والبهاء ورفعة القدر في الدنيا والآخرة.

قام بأولاد الشيخ والإخوان والأضياف أحسن قيام، وكفاهم أمرهم ومؤونتهم على الدوام، علي المقام، مسموع الكلام، ظهرت لكل أحد فتوحاته، وانتشرت خلله وبيناته، أشرقت عليه شموس عظمة الذات، فغيبته عنه وعن جميع الكائنات، مصحوباً بالتأييد، مسلوكاً به طريق الكمال على التجريد والتفريد، لا يخرجه جمعه عن حد الاعتدال إلى الانحراف، كأهل الجمع الصرف وأرباب الاستشراف، وسمعته يقول في قول الشيخ الجليل سيدي محيي الدين ابن العربي الحاتمي رضي الله عنه (المشاهدة

يتقدمها علم، والرؤية لا يتقدمها علم): هذا قاله بحق وقد وقع بنا فجأة فغبت عني وعن كل شيء برؤيته على ما يليق به مع حفظ الشرائع، قال: وكُنَّا نجلس في بعض الأوقات بباب مدرسة العطارين والناس كما علمت من كل جانب كالسيل إذا سال بارك الله في أمة النبي صلى الله عليه وسلم ونحب أن نراهم فلا نراهم إلا كالتآبيب التي تكون في كورة الشمس لا وجود لهم ونقبض على ذاتي ونقرص عليها قرصا شديدا كي نؤلمها ويحصل لي بعض الشعور بذلك فلا نجد له ألما ولم يدخل علي من ذلك سقمٌ والغير مفقود بالكلية كما هو في حقيقة الأمر والوِرْد الشرعي محفوظ علينا بتوفيق وتأييد من الله.

وسمعته يقول خرج بعض الأيام على باب الجيسة من فاس حرسها الله وصعد نحو القُبَابْ وهو في سكر عظيم، فلقيه رجل عظيم القدر بَهي المنظر ليس عليه أثر سفر ولا يشبهه أحد من أهل المدينة ولا البادية ولا البَرابر فظنه سيدنا الخضر عليه السلام فقال له أيحيط العارف، فأجابه سيدي محمد: وإن الله قد أحاط بكل شيء علما، ورده لحقيقة العارف إذ حقيقته الله، قال فتبسم وانصرف. وسمعته يقول سأله هو أو غيره من أولياء الغيب ما حقيقة العلم؟ قال له سيدي محمد: العمل، فقال له وما حقيقة العمل؟ فقال له: الحال قال وما حقيقة الحال؟ قال له: الخراب الذي أنا فيه، فأعجبه ذلك وتبسم وانصرف، وقد كان سيدي محمد على خراب كبير لا يطيقه إلا من وفقه القوي القدير.

وحاصل الأمر أقول الحق ومن نفسي أنصف، هو أعلى وأجل من وصفي الذي له أصف، ولو جمعت ديواناً في سلوكه وجذبه، لم نف بغاياته وكنهه، وكيف وقد سمعت من الشيخ مراراً لا تحصى يقول سيدي محمد أكبر من الشيخ الجليل سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنهم، وسمعته مراراً يقول في حقه: هو الفرد والفرد أكبر من القطب في العلم بالله تعالى كما قاله الشيخ الحاتمي رضي الله عنه في مقام الفرد، وكان يقول لنا دائما في غيبته في حياته وبعد موته: سيدي محمد بوزيد هو الفرد والفرد هو أكبر من القطب في العلم بالله تعالى، ودخل الشيخ عليه لخلوته التي بدار الشيخ وقال له: يا سيدي محمد منذ كذا وكذا - وذكر له مدة طويلة- وأنا أريد أن

أخبرك بأمر قد أطلعني الله عليه والآن قد أذن لي في إعلامك به أنت الفرد والله على ما نقول وكيل والفرد أكبر من القطب في العلم بالله تعالى، ولسان الشيخ رضي الله عنه لسان الصدق والورع مالكٌ لأحواله لا يزيد ولا ينقص في جميع أعماله وأقواله وأحواله، قال: عقدت عقدة الصدق في ابتداء أمري لا أزيد ولا أنقص ولو رأسي يزول فانعقدت بحول الله وامتزجت بدمي ولحمي ومن أراد أن يصدقه الله في كل ما يقول فلا يزيد ولا ينقص ولو رأسه يزول، قال لي مراراً: إن أردت أن تكون أعلم العلماء كلهم فلا تترخص في المنطق ولا تزد ولا تنقص، وكفى بها شهادة من الشيخ لسيدي محمد.

وقرأ علينا يوماً من شرح ابن حجر على الهمزية وذكر فيه أمرا وقع بين سيدنا أبي بكر الصديق وبعض الصحابة رضي الله عنهم أجمعين وانتصار النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وظهور مرتبته التي لم يدركها أحد من أمته إلى أن قال لا تؤذوني في صاحبي أبي بكر لما قال الناس كذبت قال هو صدقت ووقاني بنفسه وأنفق علي ماله وزوَّجني بنته وكذا وكَذا وعد من شمائله وحسن خلاله كثيرا وهو مؤدب الأمة وإن كان المقول له أفضل الناس بعد أبي بكر الخليفة الأعظم الفاروق المحترم لئلا يتعرض الفاضل للأفضل أو يتقدم الكامل على الأكمل، ويكون بذلك التأسي والعمل، فطوى الشيخ الكتاب رضي الله عنه وبكى بكاء وسالت عبرته على لحيته إذ كان رقيق القلب قريب الخشوع محبًّا في النبي صلى الله عليه وسلم وفي أصحابه كلهم وآله وأزواجه وذريته والمؤمنين أجمعين يُعَظِّمُ ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ويستحضره ويجله ويتزعزع ويتصدع ويقشعر ويخشع ويخضع وقال وهو في ذلك الحال: وأنا عبد الله العَرْبي الدرقاوي والله ما نفعني أحد ما نفعني سيدي محمد بوزيد ولا خدمني أحد مثله ولا وافقني أحد مثله ولا كذا ولا كذا وصار يذكر فضله وخصوصيته ويظهر مرتبته ومزيته وكلام هذا معناه في جم غفير وجمع كثير من الإخوان علماء وصلحاء وقرَّاء وأساتيذ وفقراء رضي الله عنهم أجمعين وربما كان هناك من تحمله النفاسة لتقدمه عليه في الطريق وبلوغه مرتبة التحقيق.

وسمعت صاحب الترجمة يقول علم سيدنا الخضر في علم سيدنا موسى

عليهما السلام الذي علمه في قوله أما السفينة وأما الغلام وأما الجدار مما حكى الله عنه وغير ذلك مما كان قد هيأه له وأعده له لو صبر في قول النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك علم أويس القرني في علم سيدنا عمر وسيدنا علي رضي الله عنهم بالنبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك علم الفرد في علم القطب رضي الله عنهما، إنما هذه أمور خصوا بها ومزية، والمزية لا تقتضي التفضيل. قلت لا أدري هل هذه المسألة الثالثة كاللتين قبلها حقيقة أو قال ذلك تواضعا من حيث أطلق الشيخ عليه هذا الاسم وأراد تستر حاله وإظهار العبودية وكانت وصفه ولا يظهر عليه غيرها.

كان رحمه الله محبًّا للشيخ مرافقا له ومجاورا له وملازما لداره أكثر من داره هو، يخدمه ويقضي مآربه ويحمل له من كل ما عنده ويقول له في كل مرة: يا سيدي كل ما ملكني الله فهو لك حتى روحي فهي لك ملكا، حتى كان هذا القول هو آخر قول قاله له قرب وفاته.

قد خرج على يديه العدد الكثير من المريدين، فكان له بنون وحفدة وأبناء الحفدة، ويكفيك فيهم الأخوان العالمان الوليان العارفان المحققان الشريفان سيدي أحمد بن عجيبة وسيدي الهاشمي بن عجيبة وابن عميهما الأستاذ الجليل ولي الله سيدي أحمد بن عجيبة الصغير وسيدي عبد السلام القاضي وسيدي الحسن الكتامي وسيدي ابن يونس وسيدي أحمد بن قر وفقراء الرِّيف[1] والفَحْص[2] وغير ذلك نفعنا الله بجميعهم، وقد هدى الله بابني عجيبة خلقا كثيرا وجما غفيرا فأمرهما أشهر من نار على علم.

وكان يحض أصحابه وجميع من زاره واستنصحه من إخوانه في الله على خدمة شيخه والدؤوب على ذلك ويقول: (لا يحسب أحد التصوف في كثرة الذكر أو في الانقطاع عن الخلق أو مطالعة كتب القوم أو الصمت أو الجوع أو القيام أو الصيام أو

(1) الرِّيف: سلسلة جبلية في شمال المغرب.

(2) الفَحْص: السهل الممتد حتى جنوب مدينة طنجة.

التجرد أو غير ذلك من النسك من هوى النفس من غير مؤدب، لا والله ما الأمر كذلك، وإنما هو في ملازمة الشيخ وخدمته وسلب الإرادة إليه والأدب وترك التدبير والاختيار معه وطرح النفس والروح بين يديه كالميت بين غاسله). قد دخل من هذا الباب، فرآها أصلا لجميع مواهب الاكتساب، فكان يأتي على الدوام والاستمرار لدار الشيخ هو وجميع من ينتمي إليه ويخدم كالواحد منهم كل ما يحتاج الشيخ إليه سواء يعرفونه أم لا عزما وتوكلا على الله، لا يتأخر عن اللبن والقَرْمود والجِيْر والبناء وغير ذلك فأحرى عمل البادية.

ولا يعرف في حضرة الشيخ غيره ولا يباين علمه أو يظهر فهما يخالف فهمه، وقد رأيته مرارا يتذاكر مع الإخوان في معنى من المعاني الظاهرة أو الباطنة وحين يأتي الشيخ رضي الله عنه ويجلس يسأل في أي شيء تتذاكرون وكانت عادته كذلك فيخبرونه بالمسألة فيقول قولا يخالف قول سيدي محمد فيها، فيرجع إلى قول الشيخ في الحين في أول لفظ ظهر منه وينكر علمه وفهمه وذوقه ويتبرأ منه حتى يكون ذلك عجبا لمن يسمع ويرى، ولكن هو يعرف لأنه كان في حال جذبه بخلاف ذلك، ومن سلك طريق القوم علم مخاوفها.

ولا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

وأهل مكة أدرى بشعابِها.

وجماع القول أن أمره عظيم، وخطره جسيم، لا يعرف شأنه وقدره، إلا من مارسه ودخل ديره وميز ضيره وخيره وسار سيره. كان نادرة الزمان، وآية من آيات الرحمن، سكن من أرض المعارف ربوة ذات قرار ومعين، وفض ختام عرائس أبكار المعاني المخدرات الحور العين، وأقام على ذلك زمانا طويلا، وصدره أربابها واعتمدوه أخذا وتعويلا.

قد ترك من الأذواق ما لا يعد ولا يحصى، فلو جمعت رسائله ومنظوماته ووارداته لأربت عن مجلدات عدة، وجد من ذلك أستاذنا الشريف قدر نصف القامة نادرا أوراقا مفرقة مختلفة المعاني بحسب واردات الغيب لم يخرجها ولا ألفها وبوبها وجمعها لبعضها، إذ كان فيضه ربانيًا لا يلتفت لما فات منه وخرج عنه، وبقي بأيدي الإخوان في كل بلدة من مذاكراته وحكمه ورسائله ومنظوماته ما فيه كفاية لا سيما

كتابه المسمى بالآداب المرضية أجاد فيه ما شاء ومنظومته التائية في الخمرة الأزلية وسلوك طريق الصوفية التي مطلعها:

أيا من تجلى في بهاء جماله وسر كماله وعز ورفعة
تجليت بأسرار سرك ظاهرا وأخفيتها بعد الظهور لحكمة
وأبهمت أمرها على الخليقة جملة سوى عارف صفي من كل علة
له بالمعاني علم يدريها كيف ما تجلى بهاؤها على كل هيئة
محوت سواك عنه محواً مؤبدا وعاين حضرة المعاني القديمة
بأنوار علمها بدت لفؤاده وبضوء حالها رأتها السريرة
تنزلت الأسرار من بحر سرك فأجرى عليها منك حكم الكثافة
وبدا ظلال السر في الحس جهرة وهي التي كانت عليه أدلة
وصورة في الظهور طوت جميعه كما طوى سرها معاني الحقيقة
فسرها قد أحاط بالأشياء جملة وإن كان بالجسم الأشياء محيطة
فنقطة السر بحر والحرف برها ومن حرفها الحروف بدت لحكمة
وبالنقط والأشكال زادت تبينا لمن له علم بالمعاني القديمة

يشير بالحرف للرسول صلى الله عليه وسلم، وقال أيضا في رؤية القوم له بعد كلام في استمداد الخلق كلهم منه إيجاداً وإمداداً:

وخصوا بسره الخفي بين الورى وأعطاهم منه قرباً فوق الخليقة
ولا زالوا في ارتقاء نحو كماله حتى بدت صورة الحبيب البهية
كأن سواها في المظاهر لم يكن وهذه رتبة من أقصى الولاية
فلهم عينان للجمالين ناظرا فهذي لحالة وهذي لحالة
فواحدة تطوي الوجود بأسره وأخرى له بالنشر في كل ساعة
فيا له من مقام ما أعلى أمره لبعض رجالنا من أهل طريقة
وهذا علمي وفوق علمي علومهم فلم أدر سوى البعض منها لغفلة

وهي منظومة فيها ستة وستون بيتاً وثلاثمائة لها معانٍ كثيرة وفوائد غزيرة.

ونعرف له أيضا رائية جليلة فيها تسعة وعشرون بيتا مطلعها:

عليك بتقوى الله حيث توجهت   وكن كريم الأخلاق في السر والجهر

قد شرحهما العالم الجليل القدر الصوفي المحقق أبو العباس سيدي أحمد بن عجيبة الحسنِي رضي الله عنه رأيت شرحه لهما ألبسه فيه وصفه وأبدى حقيقته ونعته، **غير أنه لا يعرف قانون الشعر ولا يلتفت إليه في منظوماته وأرجوزاته، ويحب أن لا يبدل كلامه، وكان يوصي شارحه بذلك غاية ويقول نحبه كما أتانا غيباً وهبيًّا ليس للكسب فيه حظ كذلك يبقى ولا علينا في أحد، فمن طلب المعاني وجدها، ومن طلب الحروف والأوزان بقي معها**، جعلنا الله من أهل القلوب بمنه، وكلامه كله بيّن مفيد يعطي الحقيقة حقها، والشريعة حكمها، برزخا بين بحرين لا يبغيان، ساكرا صاحيا حاضرا غائبا الوصفان لديه سيان.

قال لي بعض الأيام: الاقتداء لا يكون بغير الكامل الجامع وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم رضي الله عنهم أهل كمال فلذلك قال (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) لكنهم متفاوتون فمنهم من سكر بالذات صاحي بالصفات، ومنهم من سكر بالصفات صاحي بها.

وقال لي مرة أشهدك الله على ما علمك الله هل وصفت أنا الخمرة الأزلية بقولي تنزلت الأسرار من بحر سرك "البيتين" أو إمام العشاق العارف بالله سيدي ابن الفارض رضي الله عنه في قوله:

يقولون لي صِفْها فأنت بوصفها   خبير أجَلْ عندي بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا   ونور ولا نار وروح ولا جسم

ففهمت منه أنه يقول لي ذهب ليصف فما وصف وذكر حال الحيرة وأجنح للتنزيه بمرة وهو رضي الله عنه أعطى للحق حقه وبين في الفتق رتقه ففهمه كل ذائق وصدقه، وإن كان الشيخ الجليل سيدي ابن الفارض صاحب السر الفائض من كبار أهل هذا الشأن، وممن بسطت له في العرفان اليدان، عظيم القدر طويل الباع، تصغي إليه

الآذان وتميل لكلامه النفوس والطباع، تغزل في الخمرة غزلا رقيقا، ودقق المعاني تدقيقا، ونوع الأساليب، وخالف التراكيب، وكنى وأبهم، ولوح وأشار لمن فهم، وإنما كلامنا معه في هذين البيتين حيث تبرع فيهما بأنه يصف وأنه له بأوصافها علم فأثبت وصفا ونفى آخر والله أعلم بمراده.

والحاصل خبره وسره بحر لا ساحل له، نفعنا الله برؤيته ومحبته، وقد قدمني للصلاة غير ما مرة، كان متواضعا مع كل أحد، كريم المائدة، لا يملك مع الشيخ والإخوان شيئا، وقد رأيت منه حين نكون عنده بداره كأننا والله أكابر الأولياء والصديقين، كل ما يأتي به يستقله في حقنا ويأتي بآخر، وهكذا كان مملوكا للشيخ هو وما معه وله وعنده لا يستقل دونه بشيء إلى أن مات رحمه الله تعالى ورضي عنه ليلة عاشر المحرم والله أعلم سنة تسع وعشرين ومائتين وألف، ودفن بداره في البيت الذي توفي فيه بزاويته التي بتجساس على شاطئ البحر بقبيلة غمارة حرسها الله بمنه آمين وزادها الله شرفا به إلى يوم الدين. وسمعت من شيخنا رضي الله عنه مرارا يقول بعد موته أي سيدي محمد هو والله فرد الأولياء وسيد أهل وقته بلا امتراء وهو ممن بكت عليه السماء والأرض. وشمائله كثيرة نفعنا الله به آمين.

كلمتان لسيدي أبي بكر البناني

* قال سيدي أبو بكر البناني في كتابه " مدارج السلوك إلى مالك الملوك ":

(ويرحم الله فرد الوجود، ومفيض العلوم العرفانية على بواطن الفقراء وإمام أهل الجود، أبا عبد الله سيدي محمد البوزيدي الغماري).

* وقال (ولما كان المقصود من العلم هو الفناء في الله وكان التخلي عن افراد الكون وسيلة إلى ذلك صح للعارف بالله سيدي محمد البوزيدي أن يقول في جوابه للخضر عليه السلام وقد سأله عن حقيقة العلم فقال له العمل قال وما حقيقة العمل قال الحال قال وما حقيقة الحال قال الخراب الذي تراني فيه وكان مخرب الظاهر فسلم له وذهب).

[أخذ سيدي أبو بكر البناني الطريقة عن شيخه سيدي عبد الواحد الدباغ، عن

مولاي العربي الدرقاوي].

قال سيدي محمد البوزيدي نفعنا الله ببركاته في كتابه

"الآداب المرضية لسالك طريق الصوفية"

* وقد منَّ الله علينا في حال صغرنا بالتعظيم لأهل النسبة والنية الصالحة ففتح الله علينا فتحا كبيرا لله الحمد وله المنة، ومن أعظم هذا الفتح أن ألقانا الله بشيخ كامل قل في الزمان الذي فات مثله ونلنا منه الحظ الأوفر والسر الأكبر.

* ولما لقيت شيخنا الإمام الهمام، العارف بالملك العلام، سيدنا ومولانا العربي بن مولانا أحمد الشريف المنيف الدرقاوي الحسني رضي الله عنه ونفعنا ببركاته آمين بحضرة فاس حرسها الله من كل بأس عام ستة وتسعين ومائة وألف، وقد أخبرني بفضل الله قبل قدومي عليه رضي الله عنه، والسبب في ذلك أنه كان هناك مع إخوان له في شيخه [أي الشيخ سيدي علي العمراني الجمل] فانحرفوا عنه بعد موت الشيخ وادعى كل واحد منهم بالدعاوي الكثيرة ومن جملة الدعاوي أن جعلوا الشيوخ منهم على وفق نفوسهم، وكان شيخنا رضي الله عنه ينصحهم ويذكرهم ويجلس لهم مع الباب الذي ينزلون فيه "البلاغي"، وكانوا لطف الله بنا وبهم لا يقبلون منه المشيخة إلا أن كلامه كانوا يقرونه كثيرا لأن الحق لا يرده أحد، ولكن لما غلب الحسد على قلوبهم كانوا لا يسمعون منه شيئا بقلوبهم، ولو سمعوا بالقلوب لانقادوا إلى حضرة علام الغيوب قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾، فلما أيس من هدايتهم خرج يوما بنية أن لا يعود أبدا إليهم فبينما هو مار في بعض أزقة المدينة المذكورة وهو يقول في نفسه هذا المريض الذي بين يدي عالجته بكل العلاج إن كان للموت يموت وإن كان للحياة يحيى وقد تعذر من يصحبني في هذا الفن يا رب، قال رضي الله عنه فإذا بالنداء من قبل الله تعالى يقول سيأتونك أهل هذا الطريق من البحار ويخلقون لك من الحجار، فما بقي بعد هذا إلا أياما قلائل وأنا عبد الله قدمت عليه بإذن ولي من أولياء الله تعالى وذلك بعد أن تعلق قلبِي بملاقاة القطب الكبير وكنت أطلبه في كل سجدة إلا نادرا وكنت والحمد لله مشتغلا بذكر الله والصلاة والسلام على مولانا

رسول الله صلى الله عليه وسلم تاليا لكتاب الله عز وجل معتزلا بنفسي في الخلا مصليا قائما وصائما وكان ذلك الولي يحبني غاية المحبة وكنت لا أرضاه شيخا فلما رآني تعلقت همتي بغيره وأردت المسير إلى مكة لكون الناس يقولون القطب الكبيــر هو بها أبدا فلما علم مني هذا الولي ذلك قال يا أخي هو بفاس عليك به وهــو فلان الفلاني، فقصدته في الحين مسرعا فوصلت لفاس وسألت عنه فلم نجد له خبرا فلم أزل أفتش وأسأل عنه حتى وصلت إلى بــاب داره ونقرت الباب وخرج إلي رضي الله عنــه مسرعا فقبلت يده الكريمة وطرفه الشريف، فقال لي من أين جئت، قلت له يا سيدي من البحر، فقال من أين من البحر، فقلت من جبل أشقر، **فقال ما تريد عندنا، فقلت أردت أن أكون ببركاتك من ملوك الآخرة، فقال أعطيناك سلطنة الدنيا والآخرة،** فدخل مسرعا للدار وقال لي ادخل فإن مثلك لا يترك خارج الدار، فأدخلني ورحب بي وأجلسني على سجادته التي كان يقعد عليها في خلوته فأطعمني وسقاني وجعل يحدثني ويوصيني، فمن جملة ما أوصاني به رضي الله عنه أن قال لي يا ولدي احذر من صحبة ثلاثة أصناف من الناس المتصوفة الجاهلين والقراء المداهنين والجبابرة الغــافلين، فمــا صــحبت أحــدا مــن هــذه الــثلاث إلــى الآن والحمــد لله رب العالمين........وكان لا يعرفنا أحد في ذلك الوقت غير بعض إخوان قليلين من أهل فاس كانوا يعرفون شيخه وكانوا يجتمعون معنا بالنهار وبالليل يذهبون إلى ديارهم، وكنت في الزاوية وحدي أياما عديدة ففتح الله بعد ذلك في الإخوان والأحبة، وكنا في ذلك الوقت متصلين الذكر والمذاكرة وكنا لا نعرف الليل من النهار إلا بالأذان في الصومعات.........وكان يدلني على السخاء وحسن الخلق والزهد أكثر من كل شيء، وكان يقول لي رضي الله عنه يا ولدي الرجل هو الذي يشمته الناس كلهم اختيارا عن طيب نفسه وهو يفرح لذلك والشماتة هو الذي يحب أن يشمت الناس كلهم لأن الرجال عملهم مع الله تعالى والشمايت عملهم مع نفوسهم. وكان رضي الله عنه يحبني أشد من حبه لأهله وأولاده، وكان رضي الله عنه يقول والله واحد ما شد لنا أكتافنا في الله مثل محمد بن أحمد البوزيدي، وبالجملة مدحه لنا كثير بقدر ذمنا وقبحنا وأكثر وأكْثر والسلام.

* وأكثر ما يقع الحسد الكبير في هذه الطائفة بعضها لبعض، نجانا وإخواننا من الحسد بجاه شيخنا وأشياخه إلى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال ذو النون رضي الله عنه والله أعلم أو غيره: (شهادة الفقراء تجوز على سائر الناس ولا تجوز على بعضهم بعضا لأني وجدتهم حسادا) وهذا ظاهر. كنت والله أظن أن الفقراء لا يحسدون بعضهم بعضا فلما اجتمعنا معهم بفاس وغيرها أصابنا لطف الله بنا وبهم ما أصابنا فكنا تارة بتارة لأن عداوة الجنس أصعب من كل شيء كما أن محبة الجنس أيضا أصعب من كل شيء.

وكان شيخي رضي الله عنه يجلسني على سجادته وفي موضعه، وكان كثيرا ما يقدمني للإمامة وقت الصلاة، وكان رضي الله عنه يأتيني لموضع كنت فيه ويتذاكر معي مذاكرة رقيقة، وكان رضي الله عنه إذا رأى مني وصفا مذموما نَهانِي عن ذلك نهيا كليا ويقول: الكبير لا يناسبه إلا الكبير، وكان يقول لي والله ما أنا شاك في ذوقك، وكان يقول رضي الله عنه: والله ما أنت عندنا إلا فوق ما نظن، **وكنت جالسا ذات يوم في خلوة لي مع بعض الفقراء فدخل وقال: فبالله الذي لا إله إلا هو ما يدخل ذراعك سيدي أبو العباس المرسي ولا سيدي أحمد زروق ولا أضرابهم** رضي الله عنه وعنهم وقال إلا أنك حامل لدبلة الفقراء وكان كذلك فذهبت مني تلك العلة في الحين، وكان يقول لي رضي الله عنه إذا جاءك من تذكره ذكره الله وأما من فر منك فالماء والشطابة حتى للبحر، وكان يقول لي رضي الله عنه أنت ميموني وأنا ميمونك، ووجدني يوما في حوز فاس عند بعض الإخوان من أولاد جامع وكان هناك رجل من أهل محبتنا حقا وكان من الصالحين وكان اسمه أبا الشتاء فدخل علي الشيخ رضي الله عنه وكنت مريضا ببصري كاد نورهما يذهب بالكلية وكنت راضيا بذلك فلما دخل قال رضي الله عنه لبعض الفقراء كانوا معنا هناك: من أراد أن ينظر وجه أبينا آدم الأكبر فلينظر وجه محمد بن أحمد البوزيدي، وكنت في المائة الثالثة عشرة من الهجرة في عام خمسة عشر منها نبني له عينا بزاويته الشريفة عمرها الله بالسر والولاية الكبيرة إلى يوم القيامة آمين قال يا ولدي مولانا عبد السلام هو الحج الأصغر، قلت له نعم يا سيدي، فقال لي وأنت أيضا الحج الأصغر مثله. وكتب كتابا لبعض إخواننا حيث رأى منهم الإنكار

علينا والحسد الكبير لنا فكتب لهم كتابا وهو يقول فيه محمد بن أحمد خليفتنا في حياتنا وبعد مماتنا رغما على أنفنا، فما زادهم ذلك إلا حسدا إلا بعض الأحباء وقليل ما هم، وهذا لا يستغرب منه إذ ما من نعمة إلا وعليها الحساد، وحساد هذه الطريقة أكثر من سائر الطرق لأنها طريق الإرث، ولما طال الحال رجعوا والحمد لله عن ذلك إلا النادر فالله يأخذ بيدنا وبيدهم.

ثلاثة رسائل من الشيخ مولاي العربي الدرقاوي في حق تلميذه سيدي محمد البوزيدي

الرسالة الأولى

إلى كافة إخواننا أهل التجريد الظاهر أهل فاس وغيرهم سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد فإياكم ثم إياكم من قلب الحقائق، والله ما هي خدمة سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الغماري لنا، والله ما هو عمله إلا لله، ولو كان لغير الله حتى يعيى منها، والله ما خدمنا الله عشر العشر من خدمته، والله ما هو إلا سيدنا كلنا كبيرنا وصغيرنا أحببنا أم كرهنا، والله لا يتكلم فيه بالسوء إلا فاسق أو منافق أو مخدوع أو حاسد أو راض عن نفسه أو من فيه دعوة نافذة. اللهم ارزقنا ما أعطيته من النية والمحبة والصدق وبارك في عمره يا رب، وارزقنا وإياه الأدب على الأدب حتى نلقاك يا رب يا رب يا رب يا رب يا رب يا رب. وقد كتبه أفقر الورى إلى رحمة مولاه العربي الدرقاوي تاب الله عليه.

الرسالة الثانية

إلى كافة من بفاس من إخواننا المتعلقين بنا سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فقد أجزنا سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الشريف فاحترموه وعظموه ووقروه وزوروه واسمعوا له إذ هو خليفتنا في حياتنا وبعد مماتنا رغما على أنفنا، والله ما علمت أحدا من فقراء الوقت يعرف طريق القوم مثله، وأنتم وأنا في أثره لأن شمس سعادته وصلت إلى وسط السماء وشمسنا وراءها، وقد أحببناه بأنفسنا بل بربنا أن يقدم

إلى بلده يذكر عباد الله كسيدي الشاذلي، والله يبارك فيه وفيكم إلى يوم القيامة، وعليكم بالتخلق بالرحمة على الدوام، رزقنا الله ذلك بجاه النبي عليه السلام. وكتبه عبد ربه العربي الشريف الدرقاوي لطف الله به.

الرسالة الثالثة

أرسل إلى الشريف الصوفي الأكمل سيدي محمد البوزيدي سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، أما بعد فافتح أذنيك ما استطعت واسمع ما أقول لك واحفظ ولا تنس واشدد يدك عليه ولا تفارقه والله معك.

اسمع يا سيدي إن الله أعطاك عطاء كبيرا حيث فقهك في طريق أوليائه وجعلك من ورثة أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فاشكره يا سيدي بشكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فغاية غاية الكمال الشرائع. واعلم يا سيدي أن الحالة التي كان عليها شيخنا شيخ أهل وقته سيدي علي العمراني رضي الله عنه حالة شريفة كبيرة غريبة قل من كان عليها من أولياء الله تعالى فإنه كان ظاهرا للناس خفيا عنهم بالزي الذي يتزيّى به الناس وهو زي أولياء الله تعالى أهل التجريد واختفى عنهم بالسؤال الذي كان يسأل في الأسواق وبإظهار البخل فإنه كان لا يطعم حبيبا ولا عدوا ولا قريبا ولا بعيدا إلا أنه كان لا يعرف أحدا فوجد قلبه على الدوام بإسقاط الكلف وهم رضي الله عنهم مع ما به صلاح قلوبهم، وأنت يا سيدي نحبك أن تقلل من معرفة الناس بإطعامهم البلبول بالماء والملح كما كان صلى الله عليه وسلم وكما كان الفقراء في الزمان المتقدم ليظهر الصادق من الكاذب والحبيب من العدو، فكُنْ يا سيدي على حال شيخنا رضي الله عنه إذ لحاله سر كبير في الوقت الذي بأيدينا وغيره، وانظر ماذا يفعل الله بأهل الظهور، واعتبر وتأمل في حالة الشيخ المذكورة تجدها كما تحب وترضى من أولها إلى آخرها، كان رضي الله عنه رئيسا كبيرا ماهرا يمشي بأصحابه بالليل والنهار والبر والبحر مع العدو والحبيب ولا يخشى عليهم ولا على نفسه من شيء، قدم مرة إلى المشرق كما علمت وأعطوه الأحباب الخيل الأحرار والإبل والقطايف والدواير والبقر والغنم وغير ذلك فباع كلما دخل بيده وقبض حقة فضة

وصرفها ذهبا ليصغر الحس وجعل ذلك في خنشة وأتى إلى أولاده فقيرا غريبا كما مشى من عندهم وهذا مما يناسب حالنا الذي نحن عليه يا سيدي، ولذلك قلت لك لا تأتينا إلا كما مشيت من عندنا. واعلم يا سيدي علمك الله علما لدنيا وعلم أولادك وأحباءك وأهل وقتك على يدك وعلى يد أولادك وأولادهم إلى يوم القيامة أن الغيبة التي غبنا من فاس فيها خير كبير كَبير كبير ووجوه كثيرة تولانا الله فيها رغما على أنفنا ونحن لم نشعر بذلك فله الحمد وله الشكر على الدوام، هذا وقد أحببنا بحب الله سيدي محمد بوزيدي أن يتهيأ لزيارة والدته وأهله وبلدته وأن يكون على بصيرة في القدوم إلى أهله وبلدته ليقيم بها يذكر عباد الله، والله يا سيدي محمد بن أحمد بوزيدي ما علمت على حاجة بقيت لك عندنا ولا عند غيرنا ولنا عندك حوائج بارك الله فيك وفي حوائجك إلى يوم القيامة، وقد أحببنا سيدنا يقيم مخفية للشيخ كما يحب ويرضى ويدفعها إلى ولده هاشم بارك الله فيه ولا تسرف ولا تقتر يا سيدي قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ صدق الله العظيم، وقد أحببنا سيدي محمد أن يعطي نسخة من هذه الرسالة لأهل فاس إخوانه سيدي عبد السلام بنونه وسيدي الحاج الطاهر الحبابي وسيدي محمد بن إبراهيم وسيدي محمد بن أبي يعزى بارك الله في إخواننا إلى يوم القيامة، ونحب من سيدي أن يدخر رسائلنا ليرحمنا إن متنا قبله ولا يهملها وحاشا لله أن نتهمه بإهمالها، وكذلك الرسالة التي أمرتك أن تعطي نسخة منها لسيدي الحسين البوزيدي حتى هي نحبك أن تدخرها إذ فيها ما ينفع ولا يضيع شيئا من رسالتك أنت كما قلت والله معك، وسلم على أحبائنا وأولادنا والسلام.

قال لي شيخي سيدي حمزة شقور

- **سيدي محمد البوزيدي هو أكبر ولي بالمغرب.**

لو أدركتُ سيدي البوزيدي حيا لما فضَّلتُ شيخا عليه.

لو عرف الناس مقام سيدي البوزيدي لما زاروا غيره.

سيدي البوزيدي لا يلتقي به أحد من الأولياء إلا إذا أراد سيدي البوزيدي

ذلك، وإن كان مقام ذلك الولي ما كان.

سيدي البوزيدي لا يعرفه شيوخ الطريقة بالمغرب. سيدي بدر الدين بن عجيبة وسيدي عبد القادر بن عجيبة كانا يعرفان سيدي البوزيدي.

سيدي البوزيدي ليس سهلا لكي يعرفه الآخرون.

- **سيدي البوزيدي يرقي العارفين بالله.**

- زيارة سيدي البوزيدي ليس فيها خطر على العامة.

سيدي البوزيدي هو "عَيَّار" الأولياء بالمغرب.

المريد الذي لم يَتَّصف بَعْد، فخَيْرٌ له أن لا يزور سيدي محمد البوزيدي.

من لم يطبع له سيدي محمد البوزيدي فلا يدخل إلى الولاية.

- سيدي البوزيدي جلالي، طويل القامة، جسمه ممتلئ.

- مولاي علي شقور وسيدي محمد البوزيدي لا يتفارقان.

- سيدي البوزيدي كان وليا ويطير قبل أن يلتقي بشيخه مولاي العربي الدرقاوي.

عندما التقى سيدي البوزيدي لأول مرة مع شيخه مولاي العربي الدرقاوي، كان سيدي البوزيدي آنذاك من الأبدال.

بقي سيدي محمد البوزيدي في خدمة شيخه مولاي العربي الدرقاوي وتحت تربيته نحو ست عشرة سنة، ثم أطلقه شيخُه من الحجر وأمره بالتربية: آنذاك أدرك سيدي البوزيدي مقاما أكبر من مقام شيخه، دون أن يشعر آنذاك سيدي البوزيدي بذلك.

- قصيدة التائية لسيدي محمد البوزيدي: العظمة لله الواحد القهار. مقام سيدي البوزيدي عَالِي عالِي.

كلام سيدي البوزيدي صعب على من لا يفهمه، كلامه صعب على العلماء.

سيدي البوزيدي يتكلم على نفسه في قصيدته التائية. ذلك المقام لم يصله مولاي العربي الدرقاوي.

- سيدي البوزيدي وصل بالتواضع والخدمة.

بالخدمة الكبيرة والأدب والإخلاص والنية "الواحدة": بهذا وصل سيدي البوزيدي. لا تَراجُعَ فيه، ولا تذبذب فيه، وكونه جعل الكل في شيخه: لهذه الأسباب تعدى سيدي محمد البوزيدي مقام شيخه.

- محبة سيدي البوزيدي لشيخه مولاي العربي الدرقاوي، بها وصل إلى درجة عظيمة. هذه المحبة لا مثيل لها ولا نظير لها عند باقي تلاميذ الشيوخ.

نية سيدي البوزيدي في شيخه خالصة صافية، حتى عندما أدرك سيدي البوزيدي ذلك المقام العالي فإن خدمته لشيخه لم تنقص بل ظلت قائمة.

- سيدي البوزيدي جازاه الله: "خَلْصُوا" الله لا أن شيخه:"خَلْصُوا".

- لو كان باقي تلاميذ الشيخ مولاي العربي الدرقاوي لهم الإخلاص التام الذي كان لسيدي البوزيدي لوصلوا كلهم إلى مقام سيدي البوزيدي.

أسئلة طرحتها على شيخي سيدي حمزة شقور

بخصوص أقوال وشهادات الشيخ مولاي العربي الدرقاوي

في حق تلميذه سيدي محمد البوزيدي

1- قال مولاي العربي الدرقاوي لتلميذه سيدي محمد البوزيدي: (فبالله الذي لا إله إلا هو ما يدخل في ذراعك سيدي أبو العباس المرسي ولا سيدي أحمد زروق ولا أضرابهم).

قال شيخي سيدي حمزة شقور:

سيدي أبو العباس المرسي قطب وسيدي أحمد زروق قطب.

2- قال مولاي العربي الدرقاوي: (وقد أحببناه بأنفسنا بل بربنا أن يقدم إلى بلده يذكرعباد الله كسيدي الشاذلي).

قال شيخي سيدي حمزة شقور:

آنذاك كان سيدي البوزيدي في مقام سيدي أبي الحسن الشاذلي ثم ارتقى بعد ذلك إلى ما فوق.

3- قال الشيخ مولاي العربي لسيدي البوزيدي: يا ولدي مولاي عبد السلام هو الحج الأصغر، فقال له نعم سيدي، فقال مولاي العربي: وأنت أيضا الحج الأصغر مثله.

قال شيخي سيدي حمزة شقور:

يشير مولاي العربي الدرقاوي إلى أن سيدي البوزيدي له آنذاك مقام القطب البسيط. القطب البسيط له معرفة بالله أكبر من معرفة القطب. القطب البسيط مرشح للغوثانية. عندما ينتهي أجل الغوث، فالقطب البسيط يصبح غوثا.

4- قال الشيخ مولاي العربي الدرقاوي: (والله ما نفعنِي أحد كما نفعني سيدي محمد بوزيد، ولا خدمني أحد مثله، ولا وافقني أحد مثله).

قال شيخي سيدي حمزة شقور: هذا اعتراف بالجميل.

5- قال الشيخ مولاي العربي الدرقاوي: (والله واحد ما شدّ لنا اكتافنا في الله مثل سيدي محمد بن أحمد البوزيدي).

قال شيخي سيدي حمزة شقور:

مولاي العربي الدرقاوي لم يَصِلْ لولا معاونة تلميذه سيدي محمد البوزيدي.

مولاي العربي في التجريد لا يُبالي بأولاده، وسيدي البوزيدي يباشر ويأتي بما يحصل في يده إلى دار شيخه.

6- قال مولاي العربي لسيدي البوزيدي: (والله ما أنت عندنا إلا فوق ما نظن).

قال شيخي سيدي حمزة شقور: هذا تعظيم، ولا يعطيه المقام.

7- قال مولاي العربي: (واعلم يا سيدي علمك الله علما لدنيا وعلم أولادك وأحباءك وأهل وقتك على يدك وعلى يد أولادك وأولادهم إلى يوم القيامة).

قال شيخي سيدي حمزة شقور: **سر سيدي البوزيدي يبقى إلى يوم القيامة.**

8- عند أول ملاقاة سيدي البوزيدي مع شيخه، قال مولاي العربي الدرقاوي: ما تريد

عندنا؟ فقال سيدي البوزيدي: أردت أن أكون ببركاتك من ملوك الآخرة، الشيخ مولاي العربي الدرقاوي: أعطيناك سلطنة الدنيا والآخرة.

قال شيخي سيدي حمزة شقور:

سيدي البوزيدي طلب أن يبقى مستوراً في الدنيا مثل مولاي عبد السلام بن مشيش، فقال له شيخه: أعطيناك المملكة في الدنيا والآخرة، أي أن تكون معروفاً في الدنيا والآخرة. التلميذ يطلب، والشيخ يُخَصِّصُ.

9- قال مولاي العربي الدرقاوي لتلامذته بخصوص سيدي البوزيدي: (وأنتم وأنا في أثره).

قال شيخي سيدي حمزة شقور:

سيدي البوزيدي "قُدَّامْنا" يفتح الطريق، ونحن نتبع أثره. الشيخ مولاي العربي الدرقاوي يطلب من الله أن نرى أثر سيدي البوزيدي وأما سيدي البوزيدي فلا نراه.

10- قال مولاي العربي الدرقاوي لسيدي البوزيدي: (اعلم يا سيدي أن الله أعطاك عطاء كبيرا حيث فقهك في طريق أوليائه وجعلك من ورثة أنبيائه).

قال شيخي سيدي حمزة شقور:

الولي، وإن وصل إلى ما وصل، لا يصل إلى درجة النبوءة. سيدنا الخضر سلطان الأولياء، لكنه لم يلحق النبوءة. النبوءة فوق الوصف. الولي ولي، والنبي نبي.

مولاي العربي الدرقاوي يقصد وراثة العلم. العلم شيء، والمقام شيء آخر. (وجعلك من ورثة أنبيائه) أي وراثة العلم لا وراثة المقام والدرجة.

11- قال مولاي العربي الدرقاوي: (من أراد أن ينظر وجه أبينا آدم الأكبر فلينظر وجه محمد بن أحمد البوزيدي).

قال شيخي سيدي حمزة شقور:

هذا تعظيم. سيدي البوزيدي على خَط أبينا سيدنا آدم عليه السلام. سيدي

البوزيدي له الصورة الحسية لسيدنا آدم، وله وراثة سيدنا آدم عليه السلام.
مولاي العربي الدرقاوي التقى بسيدنا آدم عليه السلام.

12- قال مولاي العربي الدرقاوي: (سيدي محمد هو والله فرد الأولياء وسيد أهل وقته بلا امتراء).

قال شيخي سيدي حمزة شقور:

سيدي البوزيدي هو سيد الأولياء في زمانه مشرقاً ومغرباً.

13- قال مولاي العربي لسيدي البوزيدي: (إن أردت أن تكون أعلم العلماء كلهم فلا تترخص في المنطق ولا تَزد ولا تنقص).

قال شيخي سيدي حمزة شقور:

(أعلم العلماء) أي في علم الباطن. يقول له: أعط الصمت في جمع أهل الله.
سيدي البوزيدي يَقْبِض.

سند سيدي محمد البوزيدي
في طريق التصوف

أخذ سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الطريقة الدرقاوية الشاذلية عن مولاي العربي الدرقاوي، عن سيدي علي العمراني الجمل، عن سيدي العربي بن عبد الله، عن أبيه سيدي أحمد بن عبد الله، عن سيدي قاسم الخصاصي، عن سيدي محمد بن عبد الله (وهو أب سيدي أحمد بن عبد الله)، عن سيدي عبد الرحمن الفاسي، عن أخيه سيدي يوسف الفاسي، عن سيدي عبد الرحمن المجذوب، عن سيدي علي الصنهاجي، عن سيدي إبراهيم أفحام، عن سيدي أحمد زروق، عن سيدي أحمد الحضرمي، عن سيدي يحيى القادري، عن سيدي علي بن وفا، عن أبيه سيدي محمد بحر الصفا، عن سيدي داوود الباخلي، عن سيدي ابن عطاء الله، عن سيدي أبي العباس المرسي، عن سيدي أبي الحسن الشاذلي، عن مولاي عبد السلام بن مشيش، عن سيدي عبد الرحمن المدني، عن سيدي تقي الدين الفقير، عن سيدي فخر الدين، عن سيدي نور الدين، عن سيدي تاج الدين، عن سيدي شمس الدين، عن سيدي زين

الدين القزويني، عن سيدي إبراهيم البصري، عن سيدي أحمد المرواني، عن سيدي سعيد، عن سيدي سعد، عن سيدي فتح السعود، عن سيدي سعيد الغزواني، عن سيدي جابر، عن سيدنا الحسن السبط رضي الله عنه، عن أبيه سيدنا علي كرم الله وجهه، عن سيد الوجود سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

الباب الثاني

ترجمة سيدي أحمد بن عجيبة

ترجمة سيدي أحمد بن عجيبة، اقتبستُها من كتابه "الفهرسة"

العارف بالله سيدي أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، الشريف الحسني، ولد في عام 1160 أو 1161 هجرية في قرية الخميس الواقعة في الطريق بين طنجة وتطوان، وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم، وعندما جَوَّدَه وأتقنه وحفظ عدة متون علمية التحق لطلب العلم بالقصر الكبير حيث بقي مدة من سنتين، ثم رحل لتطوان فتابع دراسته على كبار علمائها، ثم رحل لفاس عاصمة المغرب في العلوم الإسلامية في ذلك الإبان فتابع دراسته العليا بها، ثم عاد إلى تطوان حيث قام بتدريس علوم الشريعة.

قال قدس الله سره (ولقد كنت رأيت الشيخ أبا الحسن الشاذِلِي رضي الله عنه في النوم وأنا صغير حين شرعت في قراءة العلم، فقال لِي: الزمْ فوالله ليأخذن عنك العلم أربعة وأربعون عالِماً. وهذا والله أعلم في العلم الظاهر. وأما علم الباطن فلا يحصون والله أعلم. وكنت جلستُ للتدريس سنة تسعين أو إحدى وتسعين ومائة وألف).

قال رضي الله عنه ونفعنا الله ببركاته (ولما حصَّلنا بفضل الله ما قسم الله لنا من العلم الظاهر انتقلنا إلى التهيؤ للعلم الباطن وهو العمل بالشريعة الظاهرة إذ لا ينتقل العمل للبواطن حتى تستقيم الظواهر، إذ الشريعة باب والحقيقة باب، وسبب انتقالنا من العلم إلى العمل أني وجدت نسخة من الحكم لابن عطاء الله عند بعض الأصحاب فنسختها ثم طالعت شرح ابن عباد فلما طالعته زهدت في العلم الظاهر وانتقلت إلى

العبادة والتبتل لذكر الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم حببت إلي الخلوة وأبغضت الدنيا وأهلها).

ثم انجذب إلى سلوك طريق القوم فقرر أن يكرس نفسه وحياته لخدمة الطريقة والحقيقة وتتلمذ عام 1208 هجرية على الشيخ الفرداني سيدي محمد البوزيدي رضي الله عنه أشهر تلامذة الإمام مولاي العربي الدرقاوي رضي الله عنه مؤسس الطريقة الدرقاوية. قال سيدي أحمد بن عجيبة رضي الله عنه: (ولما رجعت إلى فاس المرة الثالثة لزيارة الأشياخ الذين أخذت عنهم العلم الظاهر جزت في رجوعي على بني زروال لملاقاة الشيخ مولاي العربي وسيدي محمد البوزيدي رضي الله عنهما، فلما قدمت عليهما فرحا بي فرحا شديدا ونظرا إلي نظرة تغني، فلقيت أولا سيدي محمد رضي الله عنه فقال لي بمجرد أن لقيته: جعلك الله كالجنيد يتبعك أربع عشرة مائة مرقعة، أو قال لي: تكون كالجنيد، لا أدري أيهما قال، ثم ذهب بي إلى مولاي العربي فلما زرته قال لي: جعلك الله كالجيلاني، فقال له سيدي محمد: أنا قلت له كالجنيد، فقال: يجمع بينهما إن شاء الله، فوجدت لدعائهما بركة عظيمة وبركة كبيرة).

ثم لما قدم لبلاده انقلبت أحواله ووجد في نفسه قوة عظيمة لم يكن يحس بها من قبل، ثم صار شيخه سيدي محمد البوزيدي رضي الله عنه يرسل إليه أن اقدم علينا فإن حاجتك عندنا، لكنه لم يقدر له القدوم عليه حتى قدم سيدي البوزيدي لتطوان فلقنه الورد وسَلَّم له سيدي أحمد نفسه وقال له أنا بين يديك افعل بي ما شئت، فقال تبارك الله عليك ثم التفت إلى بعض أصحابه فقال لهم: سيدي أحمد متصف بالزهد والورع والتوكل والصبر والحلم والرضا والتسليم والشفقة والرحمة والسخاء والكرم حتى عد نحو اثني عشر مقاما، فقال له سيدي أحمد بن عجيبة يا سيدي هذا هو التصوف، فقال هذا تصوف الظاهر وبقي تصوف الباطن ستعرفه إن شاء الله. ثم جعل سيدي أحمد بن عجيبة يزور شيخه ويتردد إليه تارة بغمارة وتارة ببني زروال حتى فتح الله عليه بالفتح الكبير.

خدمة المشايخ وصحبتهم هي سبب الظفر بالسر الأكبر، وما نال أحد مرتبة من مراتب الولاية إلا بالصحبة والخدمة.

قال سيدي أحمد بن عجيبة (وانظر قضية التباع [1] والغزوانِي [2] وسيدي عبد الله الوزاني وغيرهم من الأولياء والصالحين ما نالوا مرتبة الولاية وكمال الصلاح إلا بخدمة مشايخهم، وكذلك حال شيخنا رضي الله عنه بقي خادما على باب شيخه ستة عشر عاما أو نحوها، وكذلك شيخه قال رضي الله عنه: بقيتُ في خدمة شيخي سيدي علي رضي الله عنه بفاس سبع سنين ورحلتُ إلى بني زروال فبقيتُ نتردد إلى زيارته سبع سنين، كان يقدم عليه مرتين في السنة، فيقدم عليه في الزيارة ببقرتين للخليع وحملين من الزبيب وحمل من البلوط. وأما أنا عبد الله فلم تمكن لي الإقامة معه للقيام بالعيال وسياسة الفقراء فكنا نتردد إليه في الزيارة لبني زروال فنقيم معه ما شاء الله ثم يرسلنا، فكان يقول لنا: ترددكم إلينا متعطشين أنفع لكم من الإقامة معنا. ولما رحل لزاويته بغمارة جعلت أتردد إليه في الزيارة هناك وأقيم معه أياما نتفنن في العلوم اللدنية والأسرار الربانية. فأنا الذي بنيتُ غرفته التي يسكن فيها والكتينة[3] والحمام وذلك لما زرت معه مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه مع جماعة من الفقراء ونظر إلي وقال: نحبك أنت والحاج أحمد البسيري تبنون لي الدار بغمارة، فلما قدمنا من الزيارة قال الحاج أحمد أنا لا نقدر على شيء، فذهبت أنا بأربعة من المْعَلْمِين اثنين يبنيان واثنين يصنعان القرمود فأسسنا الدار وبنينا المدخل والاروى[4] وفوقهما الغرفة التي يسكنها الشيخ، ثم بنينا بيت النار والحمام فبقي الصُّنَّاع هناك نحو الشهر، فناب البنائين من الأجرة ستة وثلاثون مثقالا والأخيرين أربعة وعشرون مثقالا، وكنت دفعت في قطع الخشب تسع مثاقيل، فناب الجميع تسع وستون مثقالا، فبعت بعض الكتب وتسلفت الباقي فخلص الله الجميع. فبنى الله لي في مقابلة ذلك ثلاثة ديار دارا ببني سعيد ودارا بقبيلة أنجرا ودارا بفحص طنجة، غير أن التي بالفحص لم يوافق

---

(1) التبَّاع: أي سيدي عبد العزيز التباع، تلميذ سيدي محمد الجزولي صاحب "دلائل الخيرات".

(2) الغَزْوانِي: أي سيدي عبد الله الغزواني، تلميذ سيدي عبد العزيز التباع، وكلهم مدفونون في مدينة مراكش في المغرب.

(3) الكُتَيِنَة: أي المطبخ.

(4) الاروى: أي الإصطبل.

الشيخ على سكناها فخربت، وهذه عادته تعالى فيمن خدم أولياءه أن يعطيهم أكثر مما يعطوا. ولما قدم لزاويته أرسلني أخطب له من شيخه فامتنع وقال لم تكن صحبتنا لهذا الأمر، واعتذر بأنه كان خطبها منه ابن عمه. ثم خطب له ابن عمه سيدي محمد بن علي بوزيد من الشريف الرحموني، فجهزنا له أنا وأخي بمائة وأربعين مثقالا وصحفة من القمح وثور وما يقيم ذلك، فلما قدمنا بها وأردنا الانصراف رفع يديه مع من حضر من الفقراء فقال: بارك الله فيكم وفي ذريتكم وأولاد أولادكم ومن تعلق بكم إلى يوم القيامة. وكنت سمعت هاتفا حين كنا نشتري له الكسوة يقول: اصبروا فدعوة منه تخدم عليكم وعلى أولادكم، فكانت تلك الدعوة التي ذكرنا. ثم بنينا العين في دار شيخه ببني زروال فدفعت خمس مثاقيل للشيخ دفعهما للمُعَلْم. ثم بنينا المسجد الذي ببني زروال أنا وأخي، خدمنا فيه بأنفسنا وحملنا الخشب من غمارة على عواتق إخواننا. ثم بنينا ضريح سيدي يوسف الدرقاوي، فنال الفقراء من ذلك مشقة كبيرة، وذلك سبب ربحهم وراحتهم. ثم لم يزل يرسل إلي وإلى أخي في حوائجه ومآرب داره فنقوم بها بحول الله وقوته، فجُل زاويته قائم بنا والحمد لله. هذا في عالم الحكمة، وأما في عالم القدرة فما ثم إلا الله الحي القيوم، فلا شيء معه أصلا، فهو الذي يقوم بأمر عباده، وخصوصا أمر أوليائه. لكن الأمر كما قال في الحِكَم: إذا أراد أن يُظْهِر فضله عليك خَلَقَ ونَسَبَ إليك. وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).

جاهد سيدي أحمد بن عجيبة مجاهدات عظيمة: حيث لبس المرقعة، وحمل الجراب.

وخدم الفقراء فأطعمهم وغسل ثيابهم، وشطب السوق، وسأل في الحوانيت وأبواب المساجد، كل هذا لأجل مجاهدة النفس وقتلها، ثم ابتلي بالسجن والخروج من الوطن الخ.

مناقب سيدي أحمد بن عجيبة رضي الله عنه عظيمة، فمن ذلك شهادة شيخه له بالخلافة عنه في حياته وبعد مماته وذلك **أنه لما شرح قصيدة شيخه الرائية وأرسل له الشرح فرح سيدي محمد البوزيدي رضي الله عنه فرحا شديدا فقال: لو سألنا الله تعالى يوم القيامة عن سيدي أحمد لقلنا له إنه يحبنا، ثم قال لمن حضر: سيدي أحمد هو**

خليفتي حيا وميتا.

قال سيدي أحمد بن عجيبة رضي الله عنه (وسمعت منه مرة أخرى ببني زروال مع حضور جمع كبير من فقراء المشارقة وأخي معهم، فقال لمن حضر في كلام يعظمني فيه: واللهِ لو كان الغزالي حيا لحط رأسه لسيدي أحمد، أشهدكم أنه خليفتي حيا وميتا) وقال (فممن شهد لنا شيخنا رضي الله عنه وذلك أني لما لقيته المرة الأولى وسلمت عليه طلبت منه الدعاء فقال لي: والله ليكونن لك أمر عظيم والله ليكونن لك شأن عظيم، ثلاثا. ثم قال: والله لتكونن جامعا بين حقيقة وشريعة. ثم قال لأصحابه: ما زال يكون لسيدي أحمد وقت كبير. وقال لي حين لقنني الورد: (يكون أصحاب سيدي أحمد أصغرهم مثل الجنيد) أي على قدمه. ودخلت عليه مرة وهو بزاوية بني سلمان فلما رآني قال: مرحبا بسيدي أحمد سيدي أحمد حبرا كاملا وشيخا مربيا جامعا بين حقيقة وشريعة).

وقال رضي الله عنه: (والحمد لله ممن جدد الله بنا الدين في هذه المائة، قال عليه السلام "يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لأمتي أمر دينها"، وقد شهد لنا بذلك أشياخنا فقد سمعت من شيخنا البوزيدي الحسني رضي الله عنه حين قدمنا عليه لزيارته في العام الأول قال: والله حتى يجدد الله بكم الدين المحمدي. وكتب إليّ شيخه مولاي العربي رضي الله عنه زمان الوباء ما نصه بعد كلام: نطلب الله تعالى ألا تموت حتى تكون داعيا إلى الله ينتفع بك أهل المشرق والمغرب. ولقد كنت حين دخلت في طريق القوم وحصل لي الإذن من الشيخ في تذكير الناس نطوف عليهم في المداشر والقبائل نعلمهم الدين وندلهم على الله، فعلت ذلك ثلاث سنين أو أكثر كما تقدم، وها نحن ما زلنا على ذلك ندعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين. فإذا كان الشيخ السنوسي يعلم الناس التوحيد العام في الزقاق، فنحن والحمد لله نعلم الناس التوحيد الخاص في المداشر والقبائل والمساجد والجوامع لمن قدر عليه، ومن لم يقدر علمناه ما يقدر من توحيد الدليل حتى يفتح الله سبحانه في توحيد العيان. وأما من زرعنا فيه العلم الباطن فجُلهم حصل لهم الغنى الأكبر ودخلوا مقام الإحسان بالذوق أو بالعلم إذا كان متجردا، وإذا كان

متسببا حصل له القناعة والاستقامة والتقوى وتنوير الباطن، فكلهم على بينة من ربهم والحمد لله.

وقد أردت ذكرهم وتحلية كل واحد منهم ببعض ما منحه مولاه من الفضل، فضاق الأمر عن ذلك لكثرتهم وعدم استقصاء عددهم، بارك الله في جميعهم آمين).

توفي رضي الله عنه بقرية بوسلامة قي قبيلة غمارة، بقرب دار شيخه سيدي البوزيدي رضي الله عنه، وذلك يوم الأربعاء سابع شوال عام 1224 هجرية في حياة شيخه سيدي البوزيدي وشيخ شيخه مولاي العربي الدرقاوي رضي الله عنهما، وبهذه القرية دفن، ثم نقل بأمر شيخه لقبيلة أنجرة لقرية الزميج التي تبعد عن مدينة طنجة بحوالي 25 كيلومتراً، ولا يزال ضريحه يُزار للتبرك والدعاء عنده، وتحتفل الطريقة العجيبية الدرقاوية بموسمه حوالي 14 غشت من كل عام.

قال سيدي محمد بوزيان الغريسي المعسكري في كتابه "الطبقات"

(العلم المفرد، يتيمة نظم هذا العقد، عديم النظر في أمثاله، جبل النية والمحبة والصدق وخرق العادة والسيرة الحميدة، الذي لا يوجد في وقته من نسج والله على منواله، ولا رأينا ولا سمعنا من حام حماه من جميع أشكاله، مؤلف التآليف العديدة، ومقيد العلوم الغريبة المفيدة، العالم العلامة، الصوفي المشارك الفهامة، العارف المحقق الجليل، الشيخ الكامل الجميل، الشريف البركة ولي الله تعالى أبو العباس سيدي أحمد بن عجيبة الأنجري بفحص طنجة حرسها الله. كان حجة الطائفة الدرقاوية مبينا لأحكامها، وناشرا لأعلامها، سبر عن علومها حتى صار ينبوعا لشموسها وأقمارها ونجومها، فتق رتق مقام علم اليقين وعينه وحقه، وما منح الله لكل فريق من خلقه. قد ألف نيفا وثلاثين تأليفا بيَّن فيها الشريعة والطريقة والحقيقة فبعضها كبير فيه مجلدات عديدة كالتفسير والطبقات وغيرهما، وبعضه فيه سفر كالحِكَم والمباحث والنونية وغيرهم، وبعضها صغير الجرم غزير العلم كمائة حقيقة الذي أعطاه للشيخ الجليل

الشريف الأصيل سيدي علي بن أحمد بوزان وللعلامة النحرير سيدي محمد الرهوني، وكتبه كلها مفيدة غاية. وله سفر مستقل على فاتحة الكتاب العزيز سماه البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ذكر فيه بعد مقدمات التفسير عند قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أنواع الحمد والشكر والثناء على الله تعالى وجلب في ذلك فوق ما يصف الواصف من العلوم اللدنية، وعند قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ العوالم وأسماءها وأوصافها، وعند قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ ﴾ أسماء الله الحسنى كلها وكيفية التعلق والتخلق والتحقق بكل اسم منها أمرا خارقا للعادة، وعند قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ يوم الجزاء ومراتبه ومواضعه ومواقيته وتنوع تجليات الحق فيه وتباين مقامات الناس يوم القيامة، وعند قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ أسرار الشريعة والعبادة والطريقة، وعند قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أسرار العبودية والحقيقة والمشاهدة، وعند قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ حقيقة الطريق المستقيم وأحوال المنعم عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين والجرس والأقطاب والنجباء والأبدال والأوتاد والأفراد والقرباء وغير ذلك وما يعلم جنود ربك إلا هو رضي الله عنهم أجمعين، وعند قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ جنود إبليس اللعين وأتباعه من اليهود والنصارى لعنهم الله ودمرهم واختلاف مللهم وآرائهم وافتراقهم على اثنين وسبعين فرقة كلها في النار ومن أين نشأ جهلهم وفسقهم وأصولهم الخبيثة، فكان سفرا مستقلا في الرباعي، وشرع حينئذ في التفسير على طريق الاختصار فبدأ بالفاتحة أيضا إلى أن ختمه فجاء في أربعة أسفار في القالب الكبير كل آية لها ظاهر وباطن على طريق المحققين من المفسرين كالإمام ابن عطية والإمام البيضاوي وغيرهما والإشارة كالقشيري والسلمي والورتجبي وغيرهم ومِنْ فتوحاته وإلهاماته ومواهبه أكثر من ذلك على أضعاف مضاعفة، والحاصل هو أشهر من نار على علم يبعد مثلي أن يعرف به وبأمثاله وإنما التبرك بذكره.

كان بفاس حرسها الله في العشرة السابعة من المائة الثانية عشرة وأقام بها مدة

ولقي بها فقهاء وصلحاء وقرأ عليهم حتى حصل له الحظ الأوفر والنصيب الأكبر وأكثر ملازمته للشيخ سيدي التاودي والفقيه الأجل سيدي محمد الرهوني صاحب الحاشية وأجازهما الشيخ المذكور في قراءة سيدي البخاري وغيره. لكن سيدي أحمد صاحب الترجمة بعد مدة لقي الصوفية أصحاب الباطن وهم أشياخنا رضي الله عنهم وأخذ عنهم وسلك مسلكهم وسكن ديرهم ونال خيرهم وفتحت له وعليه أسرار الحقيقة. وقد كان قبل ملاقاته بشيخنا رضي الله عنه من أهل النسك الكبير والعمل الصالح الغزير والكرامات العديدة ورؤيته المصطفى صلى الله عليه وسلم. كان يقول تعلق قلبه بعض ليالي عرفة بالوقوف بها صبيحة تلك الليلة على طريق خرق العادة فلما حضرت همته وقوي عزمه سمع هاتفا من قبل الحق يقول له هل تريد الوقوف بعرفة أو المعرفة فاختار المعرفة بالله لأنه كان له اعتناء بمطالعة كتب القوم واستشراف على أحوالهم وشرح لكلامهم من وراء حجاب ومحبة واشتياق لأذواقهم، فكان من قدر الله بعد ذلك قدم جمع غفير من إخواننا في الله فيهم الشيخ الجليل ولي الله تعالى سيدي محمد بوزيد سائحين لتلك الناحية بإذن الشيخ [أي الشيخ مولاي العربي الدرقاوي] لهم رضي الله عنه فلما اجتازوا بقبيلة أنجرة وكان بها أخوه الفقيه الأجل العارف بالله عز وجل سيدي الهاشمي بن عجيبة ملازما لجامع قرية القصيبة فتيمه حالهم وأقلعه من موضعه وأخرجه عن قصده وإرادة نفعه وملئ باطنه بطلب ربه وطهارة سره ولبه حتى يشاهد بروحه وقلبه مكنونات غيبه فساح معهم حتى وصلوا مدينة تطوان حرسها الله، فسمع بِهم وبه سيدي أحمد إذ كان ساكنا بِها يدرِّس العلم فقدم عليهم في جماعة من الطلبة بقصد أن يذكرهم الله وينهاهم عن فعل مثل هذا الذي وقع بأخيه من الجذب وتركه شرطه وخروجه عن طلب معاشه ويرد أخاه إلى موضعه فوجدهم في حلقة الذكر وسيدي محمد بوزيد يذكر قائما وراء الحلقة فحين وصل إليه قبضه بيده المباركة ورماه في وسط الحلقة من دون الجماعة التي معه فانجذب من حينه وأشرق نوره فكأنه كان في قعر بئر فإذا هو برأس منار فضلا من الله ونعمة، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، فوقع به من أحوال الجذب خرق عادة فقدموا على الشيخ [مولاي العربي الدرقاوي] فأمرهم أن يلازموا سيدي محمد بوزيد وأن لا يعروا الحال معه وقال: كلنا

واحد، فكانوا يخدمونه ويخدمون الشيخ معه على الدوام في كل عام يأتونه مرتين أو ثلاثة وفي كل مرة يلازمونه مدة إلى أن ماتوا رحمهم الله، وكان لا يشغلهم الحس عن المعنى فهم يحضرون خدمة البادية للشيخ والدواية والقرطاس لا تفارقهم يحمل كل واحد ذلك على ظهره في قراب من الدوم وحين ترد على أحد معنى من المعاني يجلس ويقيد ذلك ويشرع في عمله الذي هو بصدده وهكذا مرارا بالنهار رأيناهم على هذا الحال وكذلك بالليل إذ هم أهل فكرة قوية وجد واجتهاد وهكذا كان شيخ شيخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنهما سمعناه من الشيخ مرارا. وسمعت سيدي أحمد صاحب الترجمة رحمه الله يقول كانت له كتب عديدة فباعها كلها وبنى بها الدار المعلومة الكبيرة لسيدي محمد بوزيد التي بغمارة ببني سلمان قال سوى كتاب القاموس كان عنده لم يخرج عنه في ذلك الوقت إذ كان مراد الله منه ومراد الأشياخ أن يخرج إلى الخلق بالذكر والمذاكرة والتأليف فكان الأمر كذلك فحصل الإذن في أيام قليلة. سمعته يقول دخل في الطريق عام ثمانية من المائة الثالثة عشرة، وفي إحدى عشرة كان يؤلف تلك التآليف شرح الحِكم وغيره، وقد أخذ عنه في مدة يسيرة ما يزيد عن ستمائة فقير ما بين تطوان وأنجرة[1] والفحص[2] وطنجة ونواحيها وبني سعيد[3] وبني حسَّان[4].

وسمعته يقول كنت نذكر اسم الجلالة أللـه بكيفية شروطه في الخلوة فإذا جالت نفسي في غيره نضرب رأسي ضربة حتى نكاد نغيب من شدة الدوخة والألم، قال:

وكان الشيخ الجليل سيدي أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه يدخل لخلوته حزمة من القضبان ويشتغل بذكر الله تعالى فإذا جالت نفسه في المكونات فيأخذ قضيبا منها ويضرب رجليه حتى ينكسر وهكذا حتى يكسرها كلها ويأخذ أخرى كذلك حتى

(1) أنجرة: قبيلة تقع في المنطقة المتراوحة ما بين مدن طنجة وسبتة وتطوان.
(2) الفحص: السهل الممتد حتى جنوب طنجة.
(3) بني سعيد: قبيلة تقع بناحية جبالة (إقليم تطوان) ، وتحد شمالا بالبحر الأبيض المتوسط.
(4) بني حسّان: قبيلة بناحية تطوان.

لا تجول نفسي في المكونات. انظر أهل العزم والحزم والجد والاجتهاد إذ لا شك أن من جَدَّ وجد، ومن أدمن السير وصل، قال الشيخ الجليل سيدي عمر ابن الفارض رضي الله عنه:

وجُذ بسيف العزم سوف وإن تَجُدْ تَجِدْ نفسا والنفس إن جُدْتَ جَدَّتِ

وقال أيضا صاحب الترجمة كنت مسافرا مع بعض الفقراء قاصدا زيارة الشيخ فصلينا العصر بشاطئ البحر وأرادوا السير فأقسم عليهم لا يبرحون من مكانهم إلا إن أخبروه بمعنى قول سيدي علي الجمل رضي الله عنه كل شيء ظنوه الناس إلا كونهم يذكرون الله تعالى على هذا الكون حتى يذهب ويتلاشى ولم يبق إلا المكون سبحانه كما هو في حقيقة الأمر فلم يظنوا ذلك، وإنما سألهم عن هذا السؤال لأنهم أهل معرفة وشهود وعيان، قال فقالوا له لا تظن أن هذا الكون يذهب ويتلاشى أفلاكه وسماؤه وأرضه وما هو ثابت بإثبات الحي فهذا لا يظنه عاقل وإنما النظرة تنقلب ويذهب الجهل ويثبت العلم الحقيقي ويكاشف الولي بما هو الأمر عليه فقوي نور الإيمان وأشرقت شموس الإيقان فأذهبت ظلمة الأكوان وحصل الشهود والعيان، ففهم ما أشاروا إليه وقال قوموا بنا الآن نسافر. وسمعت منه من الفوائد خرق العوائد إذ كنت أسأله عن المسائل الغريبة كثيرا ويجيبني جوابا شافيا كافيا مفيدا، وسألته مرة هل يحيط العارف بالله علما، فقال لي إجمالا حطنا به، ففهمت أنه يشير إلى أن العلم بأمر الله ومن الله هو تفصيلي بين العبد وربه لا يتناهى ولا يحاط به في الدنيا ولا في الآخرة في حق كل مخلوق ولا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا ولي عارف كامل مكمل، ولا يحيطون بشيء من علمه، ولا يحيطون به علما، قال في المباحث:

والعلم لو كانت عنده نهاية يوقف عند حدها وغاية
ما كان أزكى مرسل وأسما قيل له قل رب زدني علما

والعلم بالله هو علم إجمالي في وقت مخصوص لا يسعني فيه غير ربي كما قال عليه السلام، فحال العبد فيه السحق والمحق والدهش والتلاشي في كبرياء الحق

جل جلاله وهو المعني عندهم بالفناء والوصول وشهود الجمع وجمع الجمع، قال تاج الدين[1]: (وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به وإلا فجَلَّ ربنا أن يتصل بشيء أو يتصل به شيء) وقال أيضا: (الأكوان ثابتة بإثباته وممحوة بأحدية ذاته)، والأحدية مبالغة في الوحدة بحيث لا يتخيل فيها وجود الاثنينية فكيف يكون النقص والزيادة في العلم والعمل والتفاوت أو الفرق بين شيء وشيء، وكنت حين هذا السؤال قادما معه على الشيخ[2] رضي الله عنه إذ كان قريبا منا، وهو يتذاكر مع جم غفير من الإخوان فيهم سيدي محمد بوزيد وسيدي الهاشمي بن عجيبة وسيدي أحمد الأغزاوي وسيدي أحمد بن محمد بن روح وغيرهم من أهل الجبل وتطوان والفحص، وكنا بتارغة بحَجَر لا إله إلا الله[3] بساحل البحر، فوجدناهم يذكرون المشاهدة وصدمتها فقال سيدي أحمد للشيخ سيدي مولاي العربي: يا سيدي المشاهدة تتقوى في أهل الكفر أكثر من أهل الإيمان إذ الإيمان ستر لها كالمكب على المائدة، فسمعه الشيخ لكن استفهمه ثانيا أو ثالثا والله أعلم كعادته وقرب منه لأنه كان يقول ويقسم بالله أن النية والفترة التي فيه ما رآها أبدا في أحد من أقرانه علماء وفقراء قط، وعند ذلك تبسم الشيخ وقال: كان شيخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنه يقول: (النور العظيم لا يخرج إلا من الظلمة العظيمة)، ففتح سيدي أحمد عيناه كثيرا وتبدل لونه وقال: هذه أحسن هذه أحسن، وكررها مرتين أو ثلاثة يعني عبارة سيدي علي أحسن من عبارته. وسألته: هل الأولى والأفضل للمريد الإكثار والاستهتار من ذكر لا إله إلا الله أو تلاوة القرآن العظيم، فقال: للناس مقاصد، أما طالب الأجور والحور والقصور فتلاوة القرآن أولى له لأنه جاء في كل حرف في الصلاة قائما خمسون حسنة ونصفها للقاعد وغيرها لكل حرف عشر إلى غير ذلك، قال: وصاحب رفع الستور ودوام الحضور ينبغي له الإكثار والمداومة على ذكر لا إله إلا الله، ليسرع إليه تأثير الجمع وتأخذ باطنه لوامع وطوالع الحقيقة، قال: وهذه المسألة تكلم الناس فيها قديما وحديثا، وفيها اختلاف بين أهل

(1) تاج الدين: أي سيدي ابن عطاء الله الإسكندري.

(2) أي الشيخ مولاي العربي الدرقاوي.

(3) تازْغَة: قرية تقع جنوب شرق مدينة تطوان، وتوجد بها حَجَر لا إله إلا الله.

الظاهر والباطن وأهل البداية وأهل الوسط والنهاية، وكان شيخ أشياخنا سيدي أحمد زروق رضي الله عنه ينكر على الفقراء في زمانه الإكثار من ذكر لا إله إلا الله دون تلاوة القرآن ويقول إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، قال: والتي هي أقوم هي لا إله إلا الله، ولما طالت مراسلته لطريق الصوفية رضي الله عنه وسَلَك وسَلَّكَ الناس على منهاجهم صار يقول: لا بد للمريد المبتدئ الإكثار من لا إله إلا الله ليتحد قصده وينجمع على الله همه ومطلبه. وقال لنا مرة: لا ينبغي الإكثار من الكلام في الحقيقة، ويكفي فيه قول الله تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (كان الله ولا شيء معه)، قال: وزاد فلان الفلاني وسمّاه ونسيته أنا (وهو الآن على ما عليه كان)، قال: والكلام عندنا طويل وعريض في سلوك الطريق وأصولها، وأستاذ الطريق قال وإمامها هو الشيخ سيدي زروق رضي الله عنه وقد قال: أصول طريقتنا هذه خمس، وصار يتكلم على كل أصل منها بما يبهر العقول وقد شرحها كما شرحها الشيخ الجليل ولي الله تعالى سيدي محمد بن سعيد الهبري الطرابلسي الخروبي رضي الله عنه وغيرهما من المشايخ رضي الله عنهم أجمعين.

وسمعنا منه فوائد غزيرة، ومن إخواننا وأشياخنا، لكن التوفيق من الله، وقد كتب لي مرة حال القراءة باللوح فاتحة الكتاب وصدرا من سورة البقرة، إذ كنت خرّجت السلكة وأردت الاستفتاح على يده تبركا ومرة أخرى لم أكن منها على يقين فالله أعلم.

وكان قليل اللحم يابس الجلد على العظم من كثرة المجاهدة والزهد والورع، ويلبس جلابة وسلهام مرقعة كما هو عند فقراء درقاوة ومظمة[1] عريضة من الدوم يجمع بها جسده عند الكتابة وحلقة الذكر، وكنا لا نقدر قدره في حلقة الذكر إذ كان يتبدل حاله ويشخص بصره ويذكر بجد وجذب وقوة خارقة للعادة، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا ببركاته آمين.

---

(1) مظمة: أي حِزَام.

قال سيدي الحسن بن محمد بن قاسم الكوهن الفاسي المغربي
في كتابه "جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية"

(الشريف الحسيب، قطبُ دائرة الولاية الكبرى، ومنبع أسرار أهل الحقيقة، شيخ الطريقتين، وعمدة الفريقين، ولِيُّ الله الأكبر، وغوثُه الأشهر، سيدنا ومولانا أحمد بن عجيبة الحسنِي الإدريسِي الشاذلِي الفاسِي.

كان رضي الله عنه من أهل التمكين، تلقى في بدايته العلوم الشرعية.

وكان رضي الله عنه يلبس الملابس الحسنة، ومال إلى طريق التصوف، فأخذ أنوار الطريقة، وتلقى أسرار الحقيقة من أستاذه فردِ هذه الطائفة سيدي محمد البوزيدي رضي الله عنه، ولقَّنه العهود والأوراد والذكر، وقال له: يا أحمد، يا ولدي، شروط الطريق عندنا الصدق والمحبة. وقال رضي الله عنه: فقلتُ له: يا سيدي، نحب أن تكتب لنا ذلك في كاغد. قال: فكتب لي بذلك، ولما خلوتُ بنفسي، نظرت إلى الكاغد، وقرأت ما فيها، ففُتح عليَّ في الحين، وصرتُ من أهل الحقائق والتمكين.

وبلغ رضي الله عنه وأرضاه مقامات العارفين بصدقه وحبه، فخلع ما كان عليه من الثياب، لَمَّا فُتحت له الأبواب، وناداه منادي الأحباب: ما هذا الحال يا ابن عجيبة؟ فأفيضت عليه الأنوار، فارتدى مرقعة وإزاراً، وعلَّق سبحته وقرابه في عنقه كما هو شأن الأخيار، وصار يمر في الأسواق معلقاً قرابه في عنقه، لابساً لمرقعته وسبحته، وهو يقول بأعلى صوته: الله الله، أش هاذي الغريبة؟ لو كان العلم يغني عن الحال ما يعلّقُ القرابَ ابنُ عجيبة.

واستمر على هذا الحال حتى نال ما نال، وتكلم على أسرار أهل الكمال، فأبدى علوماً غريبة، وأسراراً عجيبة، وأجمعت على ولايته أهل المغرب بأسرها، وتبركوا بتقبيل يديه، وأقبلت الوفود عليه، وكان قدَّس الله سره نظره إكسيراً، إذا آتاه أو التقى معه من يَعرفه يرقيه في ميدان "حسنات الأبرار سيئات المقربين"، حتى كثرت على يديه الأتباع والمريدون.

ومن يطالع شرحه على "الحِكَم" يعرف قدره ومكانته عند ربه، وكان شرحه

لهذه الحِكَم العطائية بأمر مَنْ لا تسعه مخالفته فردِ الطائفة الشاذلية أستاذه وموصله بسلسلة الأنوار سيدي محمد البوزيدي، قال قُدّس سره: وجُل هذا الشرح الذي نقيده إنما هو مواهب، لأني أكتب الحكمة ولا أدري ما أكتب، فأقف مفتقراً إلى ما عند الله.

وله تآليف وشروح كثيرة، منها كتاب "قواعد التشوف في حقائق التصوف"، وله تفسير للقرآن في الظاهر والباطن، قال قدس الله سره: إذا أردتُ أن نتكلم في التفسير أو غيره نشرع في الكلام، ثم نغيب، فكنت تحس بالكلام يخرج مني من غير اختيار، كأنه السحاب، فتصدر مني علوم وحكم، ولقد حضر معنا ذات يوم رجل كبير السن فسمع ذلك، فقال: والله لقد حضرت مجالس العلماء والصالحين، والله ما رأيت مثل هذه الجواهر واليواقيت التي تخرج من سيدي أحمد بن عجيبة، وذلك كله ببركة صحبة أشياخنا، فجزاهم الله عنا أحسن جزائه.

ومن تفسيره عند قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ ...﴾ [الأحزاب: 56]: "وأما كونها - أي الصلاة - تقوم مقام الشيخ في دخوله مقام الفناء والبقاء حتى تعتدل حقيقته وشريعته، فلا تنقطع رعونات النفس إلا بآمر وناه من غيره، يكون عالماً بدسائس النفوس وخدعها، وغايةُ ما تُوصل إليه الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم يظفر بالشيخ الفناءُ في الصفات، وينال مقام الصلاح الأكبر، وتظهر له كرامات وخوارق، ويكون من أرباب الأحوال، وإن وصل إلى مقام الفناء، تكون شريعته أكبر من حقيقته، هذا ما ذقناه وسمعناه من أشياخنا، والطريق التي أدركناهم يستعملونها، وأخذنا عنهم أنهم يأمرون المريد إن رأوه أهلاً للتربية أن يلتزم الاسم المفرد، ويفنى فيه حتى تنعدم عوالمه، فإذا تحقق فناؤه، وغاب عن نفسه ورسمه، ردُّوه إلى مقام البقاء، وحينئذ يأمرونه بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لتكون صلاته عليه كاملة، يصلى على روحه وسرّه بلا حجاب، ويشاهده في كل ساعة كما شاهد ربَّه".

أقول: ولهذا كانت الطريقة الشاذلية بدايتُها نهاية غيرها، ونهايتُها تحقيق، فافهم.

وتآليفه قدس الله سره، ونفعنا به عليها لوائح نفثات أهل المعرفة الكُمَّل، فإنه أُعطي رضي الله عنه ناطقة أسرار أهل الله، وأدرك مقامات العارفين بربهم، حتى عُدّ

قطب الزمان، وواحدَ الأوان.

وكلامه قدس الله سره عال، حلَّ مشكلات القوم، وفكَّ طلاسم أسرارهم، وتكلم بما أبهر عقول الأعيان.

توفي قدس الله سره في منتصف القرن الثالث عشر، ومقامه بالمغرب مشهور يُتوسَّل به إلى الله في قضاء الحاجات ودفع الكربات، أمدَّنا الله بمدده، ونفعنا به، وجعلنا على أثره، آمين).

قال سيدي عبد السلام العمراني في

"معلمة المغرب" ص 5990

(ابن عجيبة، أحمد بن محمد الحسني (1161- 1224/ 1748- 1809) ولد بقرية بقبيلة الحوز (بإقليم تطوان) تعرف باسم اعْجِيبِشْ. تعلم القرآن في قريته، وحفظه على جدّه المهدي، كما أقرأه إياه: أحمد الطالب، عبد الرحمن الكتامي الصنهاجي، العربي الزوادي، محمد أشمل. وإلى جانب القرآن كان يشتغل في حفظ المصنفات كالآجرومية، وألفية ابن مالك، والمرشد المعين لابن عاشر، ونظم الخرّاز، وحرز الأماني للشاطبي. وحينما كان يقرأ القرآن ويحفظ المتون على الفقيه أشمل بدار الشاوي من قبيلة بني مصوّر، تعرّف على محمد السوسي السملالي الذي كان يدرّس بمدينة القصر الكبير، فأخذه معه، وهناك تفرّغ لدراسة العلم وللعبادة.

وفي سنة ثمانين ومائة وألف هـ (1767م)، انتقل إلى مدينة تطوان، فدرس على الفقيهين أحمد الرشتي، وعبد الكريم ابن قرّيش، درس على الأول: الألفية، ومختصر خليل، والسلم، ومختصر السنوسي في المنطق والصغرى والبكري له، ودرس معه المقنع والخزرجية، ودرس على الثاني: التفسير، وصحيح البخاري مراراً، وصحيح مسلم، ومختصر خليل مراراً، والرسالة لأبي زيد القيرواني، وتحفة الحكام لابن عاصم، ولامية الزقاق، وألفية ابن مالك مراراً، والمغنى لابن هشام، ولامية الأفعال، ومختصر السنوسي، والعقيدتين الصغرى والكبرى له، والسلم في المنطق، وتخليص المفتاح في البيان، ومختصر السبكي في الأصول، والشفا للقاضي عياض، وهمزية الإمام

البوصيري... ودرس على غيرهما أيضا: مثل النحوي محمد العباس، والقاضي عبد السلام ابن قريش، ومحمد غيلان، وعلي شطير. ولما قدم الشيخ محمد الجنوي الحسني إلى مدينة تطوان، درس عليه ابن عطاء الله في التصوف، وأصول الطريقة للشيخ زروق في التصوف كذلك وغيرهما.

ولما توفي شيخه هذا، رحل إلى مدينة فاس، بغية التزود بالعلم، فدرس على العلامة محمد التاودي ابن سودة صحيح البخاري، وأجازه إجازة عامة، ودرس علم الفرائض على فرضيِّ وقته محمد بنيس، كما درس جزءاً من "التسهيل" لابن مالك، ودرس التفسير أيضا على الفقيه أحمد الزعري، وأخذ "التلخيص" عن الطيب ابن كيران... ومن فاس رجع إلى تطوان فزاول التدريس بها، واشتغل بذكر الله تعالى فرداً وجماعة إلى أن تعرّف على شيخه الروحي العارف بالله محمد البوزيدي الحسني فأخذ عنه أصول الطريقة الدرقاوية ولازمه مدة، وتأثر به في سلوكه، وأطاع أوامره في الزهد والتقشف والورع والتقوى.

وتوفي في سابع شوال من عام 1224 هـ (15 نوفمبر 1809) في دار شيخه الصوفي سيدي محمد البوزيدي الحسني بقرية بوسلامة، بفرقة بني سلمان من قبائل غمارة، وبقي مدفوناً بالقرية مدة اختلف فيها: فمن قائل إنها كانت ثلاثة أيام، ومن قائل إنها كانت أربعين يوماً، ومن قائل إنها كانت ثلاثة أشهر، ولكن مريديه (الفقراء) اغتنموها فرصة فنبشوا قبره، وأتوا بجثته إلى موطنه بقرية الزُّمِّيجْ من قبيلة أنجرة حيث ما زال ضريحه هناك يُتبرك به).

قال لي شيخي سيدي حمزة شقور

- قال سيدي أحمد بن عجيبة لأخيه سيدي الهاشمي: لنذهبْ إلى مجذوب لأن المجذوب يفضح، فإن ناداني بالشريف آنذاك نتيقن أننا شرفاء. ذهبا إلى مجذوب الذي نادى سيدي أحمدَ بالشريف، فلم يقنع سيدي أحمد. ثم بعد ذلك التقى سيدي أحمد بن عجيبة بشيخه سيدي البوزيدي الذي نادى سيدي أحمدَ بالشريف، فلم يقنع سيدي أحمد. ثم حصل الفتح الكبير لسيدي أحمد بن عجيبة والتقى بسيد الوجود

صلى الله عليه وسلم الذي قال لسيدي أحمد (أنت ولدي حقا لا تشك)، آنذاك اقتنع سيدي أحمد بن عجيبة بشرفه.

- العلمُ الكبير يُعين: الولي يتبحَّر في العلم الظاهر وفي العلم الباطن. الحوتُ يُقْلَى بالطحين لكي لا يلتصق الحوت بالمَقْلَى. سيدي أحمد بن عجيبة قضى فقط ستة عشر عاماً في الولاية ومع ذلك أدرك مقام القطب، ولو أنه عاش طويلا في الولاية لوصل إلى مقام الغوث.

- سيدي أحمد بن عجيبة، أثناء حياته، خَدَمَ على نفسه وخَدَم على أولاده وعلى أولاد أولاده (الخدمة مع ربي).

- قال سيدي أحمد بن عجيبة في كتابه "الفهرسة": (ومن ذلك أني كنت بفاس بجامع القرويين صبيحة ليلة القدر فرأيت الناس كلهم نياما، فأسندتُ ظهري للمنبر، وقلت في نفسي: اللهم سهلْ لي في ملاقاة ولي من أوليائك وأعرف أنه ولي، فما أتممت الخاطر حتى أخذتني سِنَة، ففتحتُ عيني فإذا برجل جالس بين يدي متربعا فقال معروفاً لله ورفع يديه ورفعت معه يدي، فقال: ادع لي أنت، فقلت: الله يعرفك به، وقلت له: ادع لي أنت، فقال: حفظ الله عليك إيمانك. ثم قام وغاب عني).

الولي الذي أتى إلى سيدي أحمد بن عجيبة ودعا معه، هو سيدي محمد البوزيدي.

- سيدي أحمد بن عجيبة وأخوه سيدي الهاشمي بن عجيبة، من كثرة محبتهما في شيخهما سيدي محمد البوزيدي، مات كل واحد منهما في زاوية شيخهما وبحضرة شيخهما.

أسئلة طرحتها على شيخي سيدي حمزة شقور، وأجاب عنها

1- قال سيدي أحمد بن عجيبة في كتابه "الفهرسة": (فقال له الرجل الشريف: رأيت البارحة في النوم النبِي صلى الله عليه وسلم وبين يديه الفقيه سيدي أحمد وأخوه وهو يمسح على ظهر أحدهما، فلما رآنِي قال لِي: يا

أولادي هؤلاء أولادي حقّا).

قلت لشيخي:

. هل مسحَ سيد الوجود على ظهر سيدي أحمد بن عجيبة أم على ظهر أخيه؟

. ما معنَى مسح سيد الوجود على ظهر ابن عجيبة؟

فقال شيخي رضي الله عنه:

سيد الوجود مسح على ظهر سيدي أحمد بن عجيبة، ومعنَى المسح على الظهر هو فرحُه به كما يفرح أحدنا بولده. سيد الوجود فرحٌ بسيدي أحمد بن عجيبة الذي يمشي على الخط الذي يريده سيد الوجود صلى الله عليه وسلم.

2- قال سيدي أحمد بن عجيبة في كتابه "الفهرسة": (رأى الحاج الزكامي قال: رأيت الشيخ مولاي العربِي [الدرقاوي] وهو يقول: ها نحن ألبسنا صاحبك سيدي أحمد [بن عجيبة] التاجَ).

قلت لشيخي: ما معنَى التاج؟

فقال لِي رضي الله عنه: التاج لا يكون إلا تاج القطبانية.

3- سألت شيخي: هل عندما ألَّفَ سيدي أحمد بن عجيبة كتابه (الفهرسة) عرف أن أجله اقترب؟ فقال لي رضي الله عنه: لا يعلم الغيب إلا الله. الله يهيئ الأسباب. الله هيأ سيدي أحمد بن عجيبة لتأليف ذلك الكتاب.

4- سألت شيخي: من يحرس منطقة الزميج؟

فقال لي رضي الله عنه: هو سيدي أحمد بن عجيبة.

قلت لشيخي: سيدي أحمد بن عجيبة كان قطباً وابنه سيدي الحاج عبد القادر كان غوثاً. فقال لي شيخي: الابن لا يتقدَّم أمام أبيه.

5- سألت شيخي: من يحرس منطقة بوسْلامة في غمارة؟

فقال لي رضي الله عنه: سيدي الهاشمي بن عجيبة.

6- سيدي محمد البوزيدي توفي في قرية بوسْلامة، ثم بعد وفاته نقلَه شيخُه مولاي العربي الدرقاوي إلى السْطِيحَاتْ. سيدي أحمد بن عجيبة توفي في قرية بوسلامة في قبيلة غمارة، ثم نُقِل إلى قرية الزُّمِّيج في قبيلة أنجرة.

قلت لشيخي: لماذا نقَل مولاي العربي الدرقاوي جسدَ سيدي محمد البوزيدي إلى السطيحات؟ ولماذا نُقِلَ سيدي أحمد بن عجيبة إلى الزُّمِّيجْ؟

فقال لي رضي الله عنه: ليحرس سيدي محمد البوزيدي منطقة السطيحات. حراسة منطقة السطيحات أصعب من حراسة منطقة بوسلامة. يجيء الإلهام الرباني إلى بعض الناس، فينقلون الوليَّ من مكان إلى آخر، ولا يعارض الآخرون.

مقامات ومناقب سيدي أحمد بن عجيبة

قدس الله سره

1- قال مولاي العربي الدرقاوي لسيدي أحمد بن عجيبة رضي الله عنهما: (جعلك الله كالجيلاني). الفهرسة صفحة 45.

2- قال سيدي محمد البوزيدي لتلميذه سيدي أحمد بن عجيبة رضي الله عنهما: (جعلك الله كالجنيد). الفهرسة صفحة 45.

3- قال سيدي البوزيدي حين لقَّن تلميذه سيدي أحمد بن عجيبة الورد: (يكون أصحاب سيدي أحمد أصغرهم مثل الجنيد) أي على قدمه. الفهرسة صفحة 67.

4- قال سيدي أحمد بن عجيبة: (وسمعت منه [أي من سيدي البوزيدي] مرة أخرى ببني زروال مع حضور جمع كبير من فقراء المشارقة وأخي معهم، فقال لمن حضر في كلام يعظمني فيه: والله لو كان الغزالي حيّاً لحَط رأسه لسيدي أحمد، أشهدكم أنه خليفتي حيا وميتا). الفهرسة صفحة 70.

5- قال سيدي أحمد بن عجيبة: (ومن ذلك ما أخبرني به صاحبنا الفقير الصالح سيدي علي الطفري قال: رأيت الشيخ زروق رضي الله عنه في النوم فقلت له يا سيدي الفقيه سيدي أحمد بن عجيبة يظهر علومك ويشهر طريقتك، فقال: جزاكم الله عنا خيرا. ثم قدَّمَ الفقيه سيدي أحمد أمامه وجعل يمشي خلفه). الفهرسة صفحة 70.

6- قال سيدي أحمد بن عجيبة: (فإذا كان الشيخ السنوسي يعلم الناس التوحيد العام

في الزقاق، فنحن والحمد لله نعلم الناس التوحيد الخاص في المداشر والقبائل والمساجد والجوامع لمن قدر عليه، ومن لم يقدر علمناه ما يقدر عليه من توحيد الدليل حتى يفتح الله سبحانه في توحيد العيان). الفهرسة صفحة 76.

7- قال سيدي أحمد بن عجيبة: (ومن ذلك ما أخبرنِي به بعض الإخوان مِمن أثق به قال: حدثه به بعض الصالحين من أولاد البقال قال: تَمنيتُ أن أعرف القطب، وأضمرت ذلك في نفسي، فنمت فرأيت في المنام في صحن جامع سيدي علي الجعيدي وإذا هو مَملوء طباسيل من عسل، فنَزل سيدي أحمد بن عجيبة فجعل يقسم على الناس وأعطانِي طبسيلاً من ذلك). الفهرسة 68.

8- قال سيدي أحمد بن عجيبة: (ومن ذلك ما أخبرنِي به الفقيه الأعدل الزكي الأفضل سيدي الهاشمِي أفيلال الحسنِي قال: كنت ذات يوم في الدار فأزعجتنِي نفسي لزيارة أَبِي عبد الله الفخار، ولَم تكن عادتِي زيارته، فقلت في نفسي: اللهم اجعلنِي نلقى هناك القطب. فلما زار، دخلتُ عليه القبة من غير ميعاد، فقال لِي: جرى لِي كذا وكذا. فقلت: حقق الله ذلك ببركة جدكم صلى الله عليه وسلم).

الفهرسة صفحة 67.

9- قال سيدي أحمد بن عجيبة: (رأى الحاج الزكامي قال: رأيت الشيخ مولاي العربِي [الدرقاوي] وهو يقول: ها نحن ألبسنا صاحبك سيدي أحمد [بن عجيبة] التاجَ. وقال أيضاً: رأيتُ الأولياء اجتمعوا وقالوا نتفق على السلطان، فقال قائل: السلطان ببنِي زروال مولاي العربِي وخليفته بتطاون سيدي أحمد بن عجيبة). الفهرسة صفحة 69.

باب الدعاء الذي ربح منه سيدي أحمد بن عجيبة ربحاً عظيماً

1- قال سيدي أحمد بن عجيبة: (وحدثتنِي- الأم رحمها الله- أنّها كانت تقول في مدة حملها بِي: اللهم ارزقنِي ذرية صالِحة، تقول ذلك خلف كل صلاة، وفي رمضان الإجابة) الفهرسة صفحة 26.

2- قال سيدي أحمد بن عجيبة رضي الله عنه: (جزتُ في رجوعي على بني زروال لملاقاة الشيخ مولاي العربي وسيدي محمد البوزيدي رضي الله عنهما. فلما قدمت عليهما فرحا بي فرحاً شديداً ونظرا إلي نظرة تغني، فلقيت أولا سيدي محمد رضي الله عنه فقال لي بمجرد ما لقيته: جعلك الله كالجنيد يتبعك أربع عشرة مائة مرقعة، أو قال لي: تكون كالجنيد. لا أدري أيهما قال. ثم ذهب بي إلى مولاي العربي [الدرقاوي] فلما زرته قال لي: جعلك الله كالجيلاني. فقال له سيدي محمد: أنا قلت كالجنيد. فقال: يجمع بينهما إن شاء الله. فوجدت لدعائهما بركة عظيمة وبركة كبيرة). الفهرسة صفحة 45.

3- قال سيدي أحمد بن عجيبة قدس الله روحه: (وكتب إليَّ شيخُه مولاي العربي - الدرقاوي- رضي الله عنه زمان الوباء ما نصه، بعد كلام: نطلب من الله تعالى ألا تموت حتى تكون داعياً إلى الله ينتفع بك أهل المشرق والمغرب). الفهرسة صفحة 76.

4- قال سيدي أحمد بن عجيبة بخصوص شيخه سيدي البوزيدي: (فلقَّنني الورد، ثم نهضتُ على يده جزاه الله عنا أحسن جزائه. ولما لقنني قلت له: أنا بين يديك افعل بي ما شئت. فقال: تبارك الله عليك). الفهرسة صفحة 46.

5- قال سيدي أحمد بن عجيبة بخصوص زواج شيخه سيدي البوزيدي: (ثم خطب له ابن عمه سيدي محمد بن علي بوزيد من الشريف الرحموني، فجهزنا له أنا وأخي بمائة وأربعين مثقالا وصحفة من القمح وثور وما يقيم ذلك، فلما قدمنا بها وأردنا الانصراف رفع يديه مع من حضر من الفقراء فقال: بارك الله فيكم وفي ذريتكم وأولاد أولادكم ومن تعلق بكم إلى يوم القيامة. وكنت سمعت هاتفا حين كنا نشتري له الكسوة يقول: اصبروا فدعوة منه تخدم عليكم وعلى أولادكم، فكانت تلك الدعوة التي ذكرنا). الفهرسة صفحة 48.

6- قال سيدي أحمد بن عجيبة قدس الله سره: (فممن شهد لنا شيخنا رضي الله عنه، وذلك أني لما لقيته المرة الأولى وسلمت عليه طلبت منه الدعاء، فقال لي: والله ليكونن لك أمر عظيم والله ليكونن لك شأن عظيم،

ثلاثا. ثم قال: والله لتكونن جامعاً بين حقيقة وشريعة. ثم قال لأصحابه: ما زال يكون لسيدي أحمد وقت كبير).

الفهرسة صفحة 67.

7- قال سيدي أحمد بن عجيبة نفعنا الله به: (ومن ذلك ما أخبرتني به الأم، قالت: زرت السيدة البهالية المجذوبة سيدتي فاطمة بنت الولي الصالح سيدي عبد الرحمن بن عجيبة وكانت من أهل الكشف العظيم. قالت: فقلت لها: ولدي أحمد ادعُ له إني أريد أن أزوجه. فقالت لها: دَابَ ينهدوا له القبائل. هكذا بالنون بعد الياء. قلت: لعله ما وقع من هداية الناس على أيدينا، وما سيقع إن شاء الله، والله تعالى أعلم). الفهرسة صفحة 68.

8- قال سيدي أحمد بن عجيبة نفعنا الله ببركاته: (ومن ذلك أني كنت بفاس بجامع القرويين صبيحة ليلة القدر، فرأيت الناس كلهم نياما، فأسندت ظهري للمنبر، وقلت في نفسي: اللهم سهلْ في ملاقاة ولي من أوليائك وأعرف أنه ولي. فما أتممت الخاطر حتى أخذتني سِنة، ففتحت عيني فإذا برجل جالس بين يدي متربعاً فال معروفاً لله ورفع يديه، ورفعت معه يدي، فقال لي: ادع لي أنت، فقلت: الله يعرفك به، وقلت له: ادع لي أنت، فقال: حفظ الله عليك إيمانك. ثم قام وغاب عني).

الفهرسة صفحة 73.

نفحات من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم
على سيدي أحمد بن عجيبة

- (ولقد رأيتُ النبِي صلى الله عليه وسلم في مسجده المقدس فقال لِي: أنت الفقيه ابن عجيبة، فقلتُ له: نعمْ أنا عبدكم أحمد بن عجيبة. في رؤيا طويلة وقال لِي: أنت ولدي حقّاً لا تشك) الفهرسة صفحة 17.

- (ولقد حدثنِي الأستاذ الصالح سيدي الطاهر البقال أنه كان ملازماً عند شرفاء العَلَم في مدشر أفزنو، فأتَى إليه ذات يوم رجل صالِح من صلحاء الشرفاء كبير السن

فقال له: أولاد بن عجيبة هل ينتسبون للشرف أم لا؟ فقال له: لا أدري، غير أنّهم يدعون الشرف. فقال له الرجل الشريف: رأيت البارحة في النوم النبِي صلى الله عليه وسلم وبين يديه الفقيه سيدي أحمد وأخوه وهو يمسح على ظهر أحدهما، فلما رآنِي قال لِي: يا أولادي هؤلاء أولادي حقّاً). الفهرسة صفحة 18.

- (وقد رأيته عليه الصلاة والسلام في النوم مراراً) الفهرسة صفحة 43.

- (ومن ذلك ما أخبرنِي به صاحبنا سيدي الحسن الزيدي حين كان معنا في الطريق قال: "رأيت في النوم كأن رواحل خرجت من تطاون وعليها متاع الدار وقش البيت لسيدي أحمد فنَزلت في مدشرنا، ثُم رجعت مع سيدي أحمد، فلقينا في الطريق النبِي صلى الله عليه وسلم ومعه بعض أصحابه والأنوار ساطعة منه، وهو مُنكَّب - أي ملثم - فلما قربنا منه أزال عن وجهه النكاب، فسلمنا عليه، ثُم التفت إلَى سيدي أحمد وقال: أسيدي أحمد أينما تنْزل ننْزل إنا معك. ثُم قدم معنا إلَى الْمنْزل الذي نزل أول مرة". فهذه بشارة تدل على أن الهداية المحمدية والنور النبوي لا يفارقنا ويحل معنا أينما حللنا، والحمد لله رب العالَمين). الفهرسة صفحة 70.

- (ومن ذلك أيضاً شهادة النبِي صلى الله عليه وسلم لنا بالتربية النبوية، وذلك ما حدثنِي به صاحبنا الفقير الصادق سيدي عبد القادر مدينة التطاونِي، قال: "رأيت في عالَم النوم جمعاً عظيماً وفيه النبِي صلى الله عليه وسلم ومولاي العربِي الدرقاوي قريباً منه فتكلم بعض الفقراء وقال: سيدي أحمد لا يربّي. فقال مولاي العربِي الدرقاوي رضي الله عنه: بل يربّي. والتفت إلَى النبِي صلى الله عليه وسلم، فتكلم معه سرّاً كأنه يسأله، ثُم التفت إلَى الناس وقال: لا إله إلا الله عليها سيدي أحمد بن عجيبة يربّي"). الفهرسة صفحة 71.

الباب الثالث

شرح رائية سيدي محمد البوزيدي، لتلميذه سيدي أحمد بن عجيبة

رائية سيدي محمد البوزيدي

عليك بتقوى الله حيث توجهت   وكنْ كريم الأخلاق في السر والجهر

وحسن الظن بالعباد إذا شئت   سروراً مؤبداً من اللب والقشر

وهَبْ عرضَك للخلق إن كنت صادقا   تريد بهاء ثم فخرا على فخر

وكف الأذى عن الخلائق جملة   وللأذى منهم فاحمل بالرضا والصبر

فإن صار مرّها حلوا فزدْ إلى   مقام هو الموصوف بأكمل الأمر

إن الرضا باب الله والصبر يا فتى   به تنال المقام الأعلى من الشكر

وقم واجتهد في الفرض والنفل إذ قمت   وكن ظاهرا في البر والقلب في البحر

وغب عنك والغيبة في الغيب إن غبت   وكن حاضرا في الغيب والسر والجهر

وراقب جمال المعنى في الحس إن جئت   إلى بلد العيان بالصحو من سكر

سلكت طريق القرب هكذا إن كنت   وإلا فَسِرْ ما دام يومك في العمر

أمامك أقوام تراهم إذا نمت   عن الكون وإلا فإنك في ستر

حجابك هو القرب بالقرب قد غبت   ولولا وجود القرب لم تكن في الجهر

فإنك وَهْمٌ بالجهالة ما دمتَ   وإن جاءك التحقيق صرت عين الأمر

فسرك مرموز في نفسك إن قلت ... فإنك عين السر وأنت لم تدر

أزل عنك وصف البعد بالوصف قد تهت ... ولولا ذاك لكنت في أنوار البدر

وبعدها فجْر الصبح في الوصل قد بَدَتْ ... شموس الضحى تبدو إلى آخر العصر

فهذا سير الرجال إن كنت قد جئت ... لحضرتهم فاهجر هواك كل الهجر

وبعْ نفسك لهم حقيقا إذا شئت ... مقاما تقيم فيه بالفتح والنصر

ولازم آداب البر في البحر إن همْتَ ... وكن قائما بالعدل في الخير والشر

وقم بميزان العلم في كل ما قمت ... إلا أن علم الحال خير على خير

وصفة هذا العلم من أي ما جئت ... تشاهد وصف الذات لارتفاع الستر

فإن كنت قد حصلت هذا فوَاصِلٌ ... وإن كنت تارة فقف بباب القصر

حتى تستوي الأحوال فيك جميعها ... عريفا به حقيقا في الطول والقصر

فَرُحْ واسترحْ وأبشر هنيئا لقربك ... ولا بُعْد إلا الوَهْم أتاك بالشر

وتشخص لك الكون في ذهن عقلك ... وما بدا لك جهرا حقا هو عين الأمر

تنبه له وانظر لباطن سره ... ترى شمسه تبدو جهارا بلا ستر

وما استتر الجمال إلا لكشفه ... ولفقد علمه نظرته بالغير

ولو كنت ذا حال لكنت في راحة ... في بحرك مجذوبا وسالكا في البر

فقد كشفنا لك الوصال إذا كنت ... سائلا عليه قبل وضعك في القبر

شرح سيدي أحمد بن عجيبة لرائية شيخه
سيدي محمد البوزيدي

الحمد لله رب العالَمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وقائد الغر المحجلين، ورضي الله تعالَى عن أصحابه الكرام أجمعين.

أما بعد، فهذا شرح لطيف على قصيدة شيخنا العارف الربانِي مربّي السالكين، وقدوة الواصلين، القطب الواصل، المحقق الكامل، سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الحسنِي. أخذ رضي الله عنه عن شيخنا المربّي الواصل سيدي ومولاي العربِي الدرقاوي الحسنِي، بقي في حضانته حتّى رشده وشهد له بالكمال وقدَّمه للتربية في حياته، وقال في حقه إن شَمسه تقدمتْ على شَمسنا، على ما وقفتُ عليه في رسالة كتبها لبعض أصحابه، وحدثنِي رضي الله عنه قال: (كنتُ ذات يوم في بيتِي وأنا ببنِي زروال، فأتانِي الشيخ- يعنِي مولاي العربِي- وقال لِي: هذه ثلاثة أيام وأنا نريد أن نأتيك لنقول لك كلاماً أُذِنَ لِي أن أقوله والقدرة تَمنعنِي، واليوم أُذِنَ لِي في ذلك، فاستقبل القبلة وقال: والله الذي لا إله إلا هو لا يدخل ذراعك أبو العباس المرسي ولا الشيخ زروق ولا أضرابه الخ). وبقي في خدمة شيخه نحو ست عشرة سنة، ثُم أرسله يُعمر زاويته بغمارة فحييت البلاد واشتهر ذكره في أقطار الأرض، فأظهر الطريق بعد خمود أنوارها، وأشرقت شُموس المعارف بعد كسوف أسرارها، وهو رضي الله عنه في قيد الحياة، أطال الله بقاءه للأنام، وله سياحات في بدايته وكرامات كثيرة تركنا ذكرها خوف التطويل، ولأن الكرامات الحسية غير مراعاة عند المحققين، بل الكرامات العظمى هي كشف الحجاب ودخول حضرة الأحباب، وكمال اليقين في الباطن والاستقامة في الباطن، وله كلام في علم الحقائق ورسائل كثيرة عند أصحابه، لو جمعتْ لكان سفراً كبيراً، وهذه القصيدة وإنْ كانت غير موزونة عند أهل الميزان، فالمقصود الْمعانِي دون الوقوف مع الأوانِي، ويرحم الله القائل:

لسان فصيح معرب فِي كلامه ... فيَا ليته من وقفة العرض يسلم

وما ينفع الإعراب إن لَم يكن تقى ... وما ضر ذا تقوى لسان معجم

وهذا أول القصيدة:

عليك بتقوى الله حيث توجهت ... وكنْ كريم الأخلاق في السر والجهر

قلت: التقوى هي حفظ الجوارح الظاهرة والباطنة من الوقوع فيما يوجب العتاب، أو يوقع في الحجاب، وهي أساس الطريق، وباب الوصول إلَى عين التحقيق، وهي أحد الأصول التِي بنيت عليها الطريقة، قال الشيخ زروق رضي الله عنه: (أصول الطريقة خَمسة: تقوى الله في السر والعلانية، واتباع النبِي صلى الله عليه وسلم في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرجوع إلَى الله في السراء والضراء، والرضا عن الله في القليل والكثير)، فمَنْ لا تقوى له لا طريق له، ومن لا طريق له لا وصول له، وللتقوى فضائل وكرامات استنبطت من القرآن حصرها ابن جزي في خمس عشرة خصلة:

الأولَى الْهدى لقوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

الثانية النصرة لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾

الثالثة الولاية لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

الرابعة الْمحبة لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

الخامسة الْمعرفة لقوله تعالى: ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ أي نوراً يفرق بين الحق والباطل.

السادسة والسابعة الْمخرج من الغم، والرزق من حيث لا يحتسب، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

الثامنة تيسير الأمور لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾

التاسعة غفران الذنوب لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴾

العاشرة إعظام الأجور لقوله تعالى: ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾

الحادية عشرة تقبل الأعمال لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

الثانية عشرة الفلاح لقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

الثالثة عشرة البشرى لقوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾

الرابعة عشرة دخول الجنة لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ﴾

الخامسة عشرة النجاة من النار لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾.

وقال القطب ابن مشيش رضي الله عنه في قصيدة له في علم الطريق، قال:

عليك بتقوى الله فِي السر والْجهر ... إذا شئتَ توفيقاً إلَى سُبُل الْخير

لأن التقى أصل إلَى البر كله ... فخذه تفز بكل نوع من البر

وخير جَميع الزاد ما قال ربنا ... فكن يا أخي لله مُمتثل الأمر

انتهى المراد منه.

ولَها درجات باعتبار الْمقامات، فتقوى أهل مقام الإسلام حفظ الجوارح الظاهرة من الزلات، وتقوى أهل مقام الإيمان حفظ القلوب من المساوي والغفلات، وتقوى أهل مقام الإحسان حفظ السر من الوقوف مع المحسوسات والركون إلَى العادات أو الوقوع مع الأسباب الْمألوفات.

ولَها بواعث تنبعث عليها، فباعث تقوى أهل الإسلام خوف العقاب، ورجاء الثواب، وباعث تقوى أهل الإيمان القرب من الحبيب، والْهيبة من شهود القريب، وباعث تقوى أهل الإحسان القيام بِحقوق العبودية، والأدب مع عظمة الربوبية.

فقوله رضي الله عنه: (عليك بتقوى الله حيث توجهت) أشار إلَى الحديث الذي قاله عليه السلام لِمُعاذ بن جبل قال له صلى الله عليه وسلم: (اتق الله حيثما كنت، وأتبعِ الحسنة السيئة تَمحها، وخالِق الناس بِخُلق حسن).

وقوله (وكنْ كريم الأخلاق في السر والجهر) أشار إلَى الحض على حسن

الخُلق المذكور في آخر الحديث، وهو من أمارات الطريق، وثَمرات التحقيق، فمَنْ كان حسن الخلق لين الجانب، علمنا أنه من أهل الطريق، ومن كان سيئ الخلق فظّاً غليظاً، علمنا أنه بعيد من الطريق، لا حظ له في علم التحقيق، قال صلى الله عليه وسلم: حسن الخلق يعدل الصيام والقيام وإن الرجل ليدرك بِحُسْن خُلقه درجة الصائم النهار القائم الليل، أو كما قال عليه السلام، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: (ألا أنبئكم بأحبكم إلَي وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً الذين يألفون ويُؤلَفون)، وقال صلى الله عليه وسلم: (حسْن الخُلق خُلق الله الأعظم) رواه الطبرانِي، وقال صلى الله عليه وسلم: (حسن الخلق نصْف الدين)، وقال صلى الله عليه وسلم (حسن الخلق يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد).

وحسن الخلق يجمع ثلاثة أمور: الحلم والتواضع ولين الجانب، فمَنْ كانت فيه هذه الخصال الثلاث كان حسَن الخلق وإلا فلا، وإن شئتُ قلت حسن الخلق هو ألا تُغْضِبَ ولا تَغْضَب ولا تتكبر على أحد ولا تحتقر أحداً من خلق الله، والله تعالَى أعلم.

ثُم قال رضي الله عنه:

وحسن الظن بالعباد إذا شئت   سروراً مؤبداً من اللب والقشر

يقول رضي الله عنه إذا أردت أن يدوم سرورك في قِشرك ولُبك، أي في ظاهرك وباطنك، فحَسِّنْ ظنك بعباد الله كلهم، لأنك إذا حسَّنت بِهم الظن عظَّمتهم، وإذا عظّمتهم استمددتَ منهم الأنوار حتّى يَمتلئ قلبك بأنوار الملكوت، وإذا ملئ قلبك بالأنوار ذهبتْ منه الأغيار، وإذا ذهبت الأغيار ذهب الحزن وارتحل الْهم، إذ لا سبب للهم والحزن إلا شهود الأغيار، وفي الْحِكَم: (ما تجده القلوب من الأحزان، فلأجل ما مُنِعتْ من الشهود والعيان)، وقال ابن الفارض في شأن الخمرة الأزلية:

وإن خطرت يوماً على خاطر امرئ   أقام بِها الأفراح وارتَحل الْهم

وقال أيضاً:

فما سكنت والْهم يوماً بِموضع   كذلك لا يسكن مع النعم الغم

ولِهذا كان حسن الظن بعباد الله أمره كبيراً، قال صلى الله عليه وسلم (خصلتان

ليس فوقهما شيء من الخير: حسن الظن بالله وحسن الظن بعباد الله، وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر: سوء الظن بالله وسوء الظن بعباد الله)، وقال صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة دبّتْ لِهذه الأمة: الظن والطيرة والحسد) قالوا يا رسول الله كيف الخلاص منها؟ قال: (إذا ظننتَ فلا تحقق، وإذا تطيرت فلا ترجعْ، وإذا حسدت فلا تَبْغِ)، أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

وفي سوء الظن بعباد الله شر كبير، لأنه إذا أساء ظنه صغَّرهم، وإذا صغَّرهم حقرهم، وقد قال صلى الله عليه وسلم (بِحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم) الحديث، والخلق كلهم عيال الله وأحب الخلق إلَى الله أنفعهم إلَى عياله، ويؤخذ بالْمفهوم أن أبغض الخلق إلَى الله أضرهم لعياله، والتحقير أكبر الضرر، والله تعالَى أعلم.

ثُم قال رضي الله عنه:

وهَبْ عرضَك للخلق إن كنت صادقا تريد بهاء ثم فخرا على فخر

يقول رضي الله عنه إذا أردت بَهاء وجمالاً في ظاهرك وباطنك وفخراً زائداً على فخر، فَهَبْ عرضك للمسلمين وتصدقْ به عليهم، بِحيث تَعْقِدُ العفوَ والصفحَ عن كل من يؤذيك ويتكلم فيك كائناً من كان، خاصّاً أو عامّاً، قريباً أو بعيداً، وافعلْ كما يفعل الصحابِي الجليل أبو ضمضام رضي الله عنه كان إذا أصبح يقول اللهم إنّي تصدقتُ بعرضي على المسلمين فقال عليه السلام: (أيعجز أحدكم أن يكون كأبِي ضمضام) يُحَرِّض على اتباعه والاقتداء به.

وإنّما كان التصدق بالعرض يُكسب الجمال والبهاء ويزيد في الفخر والشرف، لأنه يدل على سلامة الصدر والإيثار، وهما أصل كل خير وافتخار، قال بعض السلف (ما فاتكم أصحاب محمد عليه السلام بكثرة صلاة ولا صيام، وإنّما فاقوا الناس بسلامة الصدور وسخاوة النفوس وحسن الخلق)، وكما تُطلب هِبة العِرض والسماحة فيه، كذلك تُطلب السماحة في المال والدم، ولذلك قالوا: الصوفِي مالُه مباح ودمه، لأنه لا ينتصر لنفسه ولا يطلب لَها حقا عاجلاً ولا آجلاً، إذ لا يرى الفعل إلا من الله، وكل شيء بقدَر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثُم قال رضي الله عنه:

وكف أذاك واحمل أذاهم واصبر حتّى يـرى صـبرَك القـوي والرضـا بـالأمر

قلت ذكر رضي الله عنه أربعة أركان من أركان الطريقة:

أولها كف الأذى عن المخلوقات، فمن كان يؤذي عباد الله خرج عن حقيقة الإسلام، فضلاً أن يكون مريداً لقوله عليه السلام (الْمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)، وقالوا (البر لا يُؤذي الذّر)، فلا يكون المريد مريداً حتّى لا يصدر منه إذاية لِمخلوق آدمياً أو غيره، بل يأمن من ضرره الوحوش والطيور والبهائم وسائر الخلق.

الركن الثانِي حمل الجفاء، وهو تَحمل إذاية الخلق والصبر لَهم والحلم عليهم، فلا يشتغل بِمقابلة من آذاه، بل يلتفت إليه ويصفح ويعفو عنه ويدعو له بالخير والْهداية حتّى يأخذ الله بيده، وهذه درجة الصديقين ينتفع بِهم أعداؤهم وكل من قرب إليهم، نفعنا الله بِهم.

الركن الثالث الصبر، وهو حبس القلب على حكم الرب، أو تجرع المرارة من غير تعبيس، أو تلقي البلاء بالرحب والتسليم، وهو عنوان الظفر، وفِي الْمحن عنوان الفرج، قال الشاعر:

الـصَّبْرُ كالـصِّبْر مُـرٌّ فِـي مذاقتـه لكـن عواقبـه أحلـى مـن العـسل

وهو من الإيمان كالرأس من الجسد، ويكون في أربعة مواطن: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على الشدة بعدم الشكوى، وصبر على النعمة بعدم الطغيان بِها والشكر عليها.

الركن الرابع الرضا، وهو سرور يجده القلب عند حلول القضاء وترك الاختيار على الله فيما دبَّر وأمضى، أو شرح الصدر ورفع الإنكار لِما يرد من قِبَل الواحد القهار، أو تلقي المهالك بوجه ضاحك، أو التسليم فهو ترك التدبير والاختيار بالسكون تحت مجاري الأقدار فهو أبلغ من الرضا، والله تعالَى أعلم.

وفي الحديث (إن الله جعَلَ الرَّوْحَ والراحة في اليقين والرضا، وجعل الْهم والحزن في الشك والسخط) أو كما قال عليه السلام، وكان الشيخ رضي الله عنه يقول لنا (أركان التصوف ثلاثة: كف الأذى وحمل الجفاء وشهود الصفاء)، وذكرهم الشيخ

زروق وزاد (ورمي الدنيا بالفقا).

وقوله (حتّى يرى صبرَك القوي) يحتمل أن يريد حتّى يرى صبرك القوي والضعيف، أي حتّى يظهر صبرك القوي والضعيف أي حتّى يظهر صبرك للخاص والعام، أو يريد القوي المتين وهو الله تعالَى.

وهذا البيت صعبٌ وزنه، فلو قال:

وكفّ الأذى حمل الجفا متعين وكنْ صابراً شاكراً مع الرضا بالأمر

وقد أصلحه الشيخ بعد فقال:

وكف الأذى عن الخلائق جملة وللأذى منهم فاحمل بالرضا والصبر

ثُم زاد هذا البيت بيتاً آخر فقال:

فإن صار مرّها حلوا فزدْ إلى مقام هو الموصوف بأكمل الأمر

يعنِي فإن جاهدت نفسك على مرارة الصبر في خرق عوائدها، حتّى صار الْمر عندها حلواً، فزِدْ إلَى مقام الرضا الذي هو أعلى من الصبر وأكمل، وهو باب الله الأعظم، كما أبان ذلك بقوله:

إن الرضا باب الله والصبْر يا فتَى به تنال المقام الأعلى من الشكر

قلت لا شك أن الرضا باب عظيم للدخول على الله، فلا يزال الحق تعالَى يبتلي عبده وهو يصبر ويرضى حتّى يجتبيه لِحضرته ويصطفيه لِمعرفته، فيترقى حينئذ من مقام الصبر إلَى مقام الشكر وهو أعلى المقامات، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُمْ﴾، ولَم يضمن الحق تعالَى الْمزيد في مقام من المقامات إلا في مقام الشكر، فدلَّ على أنه أفضل الْمقامات، وهو الصراط المستقيم الذي قعد عليه إبليس حيث قال فيما حكى الله تعالَى عنه ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ولَم يقل صابرين ولا خائفين، فدلّ على أنه أعز المقامات، والقائم به قليل، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، وهو كما قال بعضهم صرفُ العبد جميع ما أنعم الله عليه به من السمع والبصر وغيره إلَى ما خُلِقَ لأجله، ومرجعه لثلاث: شكرٌ باللسان وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة، وشكر بالبدن وهو اتصافه بالرفق والخدمة، وشكر بالقلب وهو اعتكافه على

بساط الشهود مع حفظ الحرمة أي حرمة الشريعة.

وقيل لأبِي حازم رضي الله عنه: ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بِهما خيراً أعلنته وإذا رأيت بِهما شرّاً سترته، قيل: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سَمعتَ بِهما خيراً وعيته، وإذا سَمعت بِهما شرّاً دفنته، قيل: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بِهما ما ليس لك ولا تَمنع حقّاً هو لله فيهما، قيل: فما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله صبراً وأعلاه علماً، قيل: فما شكر الفرج؟ قال: كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَـٰفِظُونَ ۝ ﴾، قيل: فما شكر الرجلين؟ قال: إذا رأيت شيئاً غبطته استعملتهما وإذا رأيت شيئاً مَقَتَّه كففتهما.

وقال الجنيد رضي الله عنه (الشكر ألا يُعْصَى الله بنعمه)، والشكر على ثلاث طبقات: شكر العوام على السراء فقط، وشكر الخواص على السراء والضراء، وشكر خواص الخواص الغيبة عن النعمة في شهود المنعم، والله تعالَى أعلم.

ثُم قال رضي الله عنه:

وقم واجتهد في الفرض والنفل إذ قمت وكن ظاهرا في البر والقلب في البحر

يقول رضي الله عنه: وقُمْ أيها المريد واجتهد في أداء الفرض في وقته محافظاً على شروطه وأركانه وآدابه، فإذا قمت بالفرض كما ذكرنا فاتبعه بِما تيسر من النفل المؤكد، لأن النوافل جابرة لِخلل الفرائض، فلا ينبغي للمريد أن يخلي نفسه منها، فإن العبد الذي يؤدي الخراج الذي عليه ويتحف سيده بلطف وهدايا أفضل عند السيد وأعز من العبد الذي يقتصر على ما فرض سيده عليه.

ثُم ينبغي للمريد أن يكون ظاهره في بر الشريعة وباطنه في بحر الحقيقة. الشريعة كاملة والحقيقة كاملة، فشريعة بلا حقيقة ناقصة، وحقيقة بلا شريعة زندقة، والجمع بينهما ولاية، وكان مالك رضي الله عنه يقول (من تشرَّع ولَم يتصوَّف فقد تفسَّق، ومن تصوف ولَم يتشرع فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تَحقق)، وقال آخر (قومٌ تشرعوا ولَم يتحققوا، وقوم تَحققوا ولَم يتشرعوا، وقوم جعلوا الشريعة باباً والحقيقة إياباً) ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٢٢ ﴾

ثُم قال رضي الله عنه:

وغب عنك والغيبة في الغيب إن غبت وكن حاضرا في الغيب والسر والجهر

يقول رضي الله عنه: وغِبْ أيها المريد عن رؤية وجودك في شهود معبودك، والغيبة تكون في شهود عالَم الغيب إنْ غبتَ عن شهود عالَم الشهادة، فإن غبت عن وجودك فقد غبت عن الوجود بأسره.

أو يقول وَغِبْ عن وجودك بشهود عدمك لوجوده، والغيبة عن الوجود هي في الغيب عن نفسك، إن غبت عنها غبتَ عن الوجود بأسره كما تقدم، وهذا هو الفناء الذي قيل فيه هو مَحو واضمحلال وذهاب عنك وزوال.

ثُم دلك على الكمال، وهو مزج السكر بالصحو والجذب بالسلوك، فقال (وكنْ حاضراً في الغيب) أي كن حاضراً في غيبك، صاحياً في سكرك، سالكاً في جذبك، باقياً في فنائك، السر في الجهر، والجهر في السر، السر يُحس بِما في الجهر، والجهر غائب في السر، القلب في البحر والقالب في البر، وهذا هو المقام الأكمل الذي أشار إليه ابن عطاء الله بقوله بعد ذكر السلوك المحض والجذب المحض (وأكْملُ منه رجلٌ شرب فازداد صحواً، وغاب فازداد حضوراً، فلا جَمْعُه يحجبه عن فرْقه، ولا فرْقُه يحجبه عن جمْعه، ولا فناؤه يصرفه عن بقائه، ولا بقاؤه يصده عن فنائه، يعطي كل ذي حق حقه، ويوفي كل ذي قسط قسطه).

وفي الشطر الأول تعقيد، فلو قال: وعنك فغِبْ فالغيب للكل حاصل الخ.

وقد تكلم الناس عن الغيبة والحضور، قال القشيري: (الغيبة عبارة عن ذهول القلب وغيبته عن أحوال الخلق، لاشتغاله بِحكم الحق، والحضور عبارة عن حضور القلب مع الحق، لأنه إذا غاب عن الخلق فقد حضر بالحق، وذلك لاستيلاء ذكر الحق على قلبه، فهو حاضر بقلبه بين يدي ربه، فعلى حسب غيبته عن الخلق يكون حضور بالحق، فإن غاب بالكلية كان الحضور على حسب الغيبة، فإذا قيل فلان حاضر فمعناه أنه حاضر بقلبه لربه غير غافل عنه، ثُم يكون مكاشفاً في حضوره على حسب رؤيته لِمعانٍ يَخصه الله بِها، وإذا قيل فلان غائب فمعناه غائب عن أحوال الخلق، وقد يغيب عن إحساس نفسه إن استوت غيبته).

ثُم قال رضي الله عنه:

وراقب جمال المعنَى في الحس إن جئت   إلَى بلد العيان بالصحو من سكر

قلت لَما ذكر رضي الله عنه مقام الفناء الكامل، ذكر مقام البقاء الكامل، فأمَرَكَ أن تراقب جمال المعنَى في قوالب الحس إذا جئت إلَى بلد الشهود والعيان، بأن رجعت من السكر إلَى الصحو ومن الفناء إلَى البقاء، ومعنَى مراقبة المعنَى في الحس شهود أسرار الذات في أنوار الصفات ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ، فالمعانِي حاصلة للأوانِي، فلولا الأوانِي ما ظهرت المعانِي، ولولا المعانِي ما قامت الأوانِي، فمَنْ وقف مع الأوانِي حجب عن الْمعانِي وكان جاهلاً بالله من أهل الإيمان بالغيب، ومن نفذ إلَى شهود المعانِي كان عارفاً بالله من أهل الشهود والعيان، ولذا قال الششتري رضي الله عنه:

لا تنظر للأوانِي
وخض بَحر الْمعانِي
لعلك ترانِي

واعلم أن الأوانِي كثيفة والمعانِي لطيفة، وتكثيف الأوانِي عارض بسبب الاشتغال بالحس، فإن اشتغل القلب بتنمية المعانِي تلطفت الأوانِي، وإلَى ذلك أشار ابن الفارض في خمريته حيث قال:

ولطفُ الأوانِي فِي الْحقيقة تابعٌ   للطف الْمعانِي والْمعانِي بِها تَنْمُو

وقلت في تائيتِي الخمرية:

وغيبُ الأوانِي فِي الْمعانِي مُحقق   فناء الأوانِي فِي الْمعانِي القديمة

ويترتب على مراقبة المعنَى في الحس الأدب مع الأشياء كلها وتعظيم الأشياء بأسرها، فالأدب عنوان المعرفة، فمَنْ رأيته يتأدب مع كل شيء عرفنا أنه عارف، ومن رأيته ناقص الأدب علمنا أنه ناقص المعرفة.

تنبيه: تكلم القشيري على الصحو والسكر فقال: الصحو رجوع إلَى الإحساس بعد الغيبة، والسكر غيبة بواردٍ قوي، إلا أن السكر أقوى من الغيبة إذا قوي، فالغيبة

للعُبّاد بِما يغلب على قلوبِهم من موجب الرغبة والرهبة، والسكر لأهل المحبة وأصحاب المواجد، فإذا كُشِفَ بنعت الجلال حصل السكر وطرب الروح وهام القلب. واعلم أن الصحو على حسب السكر، فكل من كان سكره بِحق كان صحوه بِحق مصحوباً، ومن كان سكره بِحظ مشوباً كان صحوه بِحظ مشوباً، ومن كان مُحقّاً في حاله كان محفوظاً في سكره.

ثُم قال رضي الله عنه:

سلكت طريق القرب هكذا إن كنت وإلا فَسِرْ ما دام يومك في العمر

يقول رضي الله عنه قد سلكتَ أيها المريد طريق القرب وصرت من المقربين إن كنت هكذا كما وصفنا، بِحيث سلكت مقام الفناء فغبت عن الوجود، ومقامَ البقاء بأن رجعت من سكرك إلَى صحوك فرأيت الأشياء قائمة بالله لا وجود لَها مع الله. وإلا تكنْ هكذا فجاهِدْ نفسك وسِرْ من حيث ساروا حتّى تدرك ما أدركوا، أو تَموت، فما دام يومك في مدة عمرك فاغتنم السير، وهو الخروج من العوائد وارتكاب الشدائد وتجرع مرارة الذل والفقر والتحقق بِمقام الصبر والشكر، حتّى تفنَى أوصافك بشهود أوصافه وتغيب عن ذاتك في شهود ذاته، وما ذلك على الله بعزيز.

ثُم قال رضي الله عنه:

أمامك أقوام تراهم إذا نمت عن الكون وإلا فإنك في ستر

يقول رضي الله عنه قد تقدَّم أمامك أقوام جاهدوا وكابدوا حتّى عاينوا وشاهدوا، فازدادوا بالقرب والوصال، وصارت أفكارهم في الْملكوت تجول، تراهم بعينك وتشاهدهم ببصيرتك إذا كنت من أهل البصيرة، بحيث نامت عين قلبك عن رؤية الكون، وأعرضت عما سوى المكون.

وإلا تكن هكذا بِحيث تعلقت همتك بالعَرض والفانِي، فإنك في ستر عنهم، فلا تعرفهم ولا تستمد منهم، إذ لا يعرف الولِيَّ إلا الولِيُّ، سبحان من لَم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ولَم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه، وإذا حجبته عنهم حجبته عن الله، إذ لا طريق لرفع الحجاب عن الله إلا صحبة من ارتفع عنه الحجاب، وإلا بقي دائماً في الحجاب يأخذ أجره من وراء الباب، والله تعالَى أعلم.

ثُم قال رضي الله عنه:

حجابك هو القرب بالقرب قد غبت ولولا وجود القرب لم تكن في الجهر

يقول رضي الله عنه حجابك أيها المريد عن الوصول إلَى الله تعالَى هو شهود قربك منه ووقوفك مع حلاوة الطاعات ولذيذ المناجاة، وهو عند العارفين سُموم قاتلة وحُجب حائلة، وهي التِي حجبت العُباد والزهاد، ووقَف عندها جل العِباد، فسبحان من حجب الصالِحين بصلاحهم عن مُصلحهم، وحجب العلماء بعلمهم عن معلومهم، وفِي الحِكَم (ربّما وقفتِ القلوب مع الأنوار، كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار)، وفِي ذلك يقول الششتري رضي الله عنه:

تقيدت للأوهام لَما تداخلت عليك ونور العقل أورثك السجْنَ

وهمت بأنوار فهمنا أصولها ومنبعها من أين كان فما هِمنا

وقد تحجب الأنوار للعبد مثل ما تُبعّد من إظلامٍ نفسٌ حَوتْ ضغنا

فقد غبت أيها المريد بشهود القرب عن شهود القريب المجيب، ولولا وقوفك مع القرب لَم تكن من أهل الجهر أي من أهل الظاهر، بل تكون من أهل السر أي من أهل الباطن، وإنّما كان القرب حجاباً لأنه يقتضي وجود النفس إذ هي التِي تقرب أو تبعد، وأما لو حضر الفناء والغيبة عنها لغاب القرب والبعد فِي لُجة بَحر الوصول. قال فِي الحِكَم (شعار البصيرة يُشهدك قُرب الحق منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق لا عدمك ولا وجودك، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان)، فإذا انفتحت عين البصيرة لَم يبق قرب، وإنّما هو شهود حق بِحق، وذهاب خلق في شهود حق، وأنشدوا:

فلم يبق إلا الله لا رب غيره حبيب لقلب غاب عن كل مقصد

هنيئاً لِمن قد نال حب حبيبه وخاض بترك الغير أكرم مورد

نعيم بلا حد لديه مُجدد على عدد الأنفاس في كل مشهد

ثُم قال رضي الله عنه:

فإنك وَهْمٌ بالجهالة ما دمتَ وإن جاءك التحقيق صرت عين الأمر

يقول رضي الله عنه: فإن وجودك أيها المريد وهم باطل، والوهم أمر عدمي لا حقيقة له سببُه الجهل، فما دمت جاهلاً بالله فإنك تشاهد وجودك الوهمي وتحجب به عن الله، فإن جاءك التحقيق وخضت بَحر الوصول ذهب عنك الوهم وغاب عنك وجودك وصرت عين الأمر أي عين السر، فما حجبك عن الله إلا تَوَهُّمُ وجودك، فإذا ارتفع الوهم زال الحجاب وارتفع الارتياب، ووقع العيان على فقد الأعيان، وفِي ذلك يقول ابن العريف رضي الله عنه:

بدَا لك سرٌّ طال عنك اكتتامه ... ولاحَ صباحٌ كنت أنت ظلامه

فأنت حجاب القلب عن سر غيبه ... ولولاك لَم يطبع عليك ختامه

فإن غبت عنه حل فيه وصبَّتْ ... على موكب الكشف الْمصون خيامه

وجاء حديث لا يمل سَماعهم ... شهي إلينا نثره ونظامه

إذا سَمعته النفس طاب نعيمُها ... وزال عن القلب الْمُعَنَّى غرامُه

وقال الششتري رضي الله عنه:

يا قاصداً عين الْخبَر ... غطاه أينك

الْخمر منك والْخبَر ... والسر عندك

ارجعْ لذاتك واعتبِر ... ما ثَم غيرك

وقال تلميذ لشيخه: أين الله؟ فقال له: أسحقك الله هل تطلب مع العين أين، وقال الشاعر:

كم ذا تَمَوُّهٍ بالشعبين والعلم ... والأمر أوضح من نار على عَلَم

أراك تسأل عن نَجد وأنت بِها ... وعن تُهامة هذا فعلُ متهم

وقال في المباحث:

يا جاهلاً من داره سكناها ... وهو يؤدي أبداً كراها

أتدري من أنت وكيف تدري ... وأنت قد عزلت والِي الفكر

ومقالات العارفين في هذا كثيرة نظماً ونثراً، كل على حسب ذوقه وشربه وسكره وصحوه، وفيما ذكرنا كفاية.

ثُم قال رضي الله عنه:

فسرك مرموز في نفسك إن قلت — فإنك عين السر وأنت لم تدر

يقول رضي الله عنه سرُّك الذي تطلبه وتجاهد نفسك في الوصول إليه، هو مرموزٌ في نفسك كامنٌ في ذاتك كمونَ الزبد في الحليب والحب في الغصون، إن قلت أنا ذلك السر كنت صادقاً في مقالتك، فما دام اللبن أي الحليب لَم يُمخض لَم يظهر زبده، فإذا مخض ظهر ذلك الزبد، كذلك الإنسان ما دام لَم يمخض نفسه بالذكر والمذاكرة في خرق العوائد وارتكاب الشدائد لا يطمع في شهود ذلك السر الذي كمن فيه، فإذا مخض نفسه وجاهدها ظهر سره وذاق حلاوته وتَمتع به في حياته ومَماته، وكذلك الحبوب والثمار كامنة في غصون الأشجار، فإذا أرعدت الرعود ونَزلت الأمطار ولانَ العودُ وجال في أغصانِها الرياح، فهنالك يُنتَظر اللقاح ويظهر الثمار بِحكمة الواحد القهار، فأنت أيها الإنسان عين السر المكنون، وأنت لَم تدر، فجاهِدْ نفسك واصحبْ من يعرفك به تجده عندك وأنت جاهل به، وفي ذلك يقول ابن المرحل رضي الله عنه أو غيره:

ومن عجب أنّي أحِن إليهمُ — وأسأل شوقاً عنهم وهُمُ معي

وتشتاقهم عينِي وهم بسوادها — ويشكو النوى قلبِي وهم بين أضلعي

وقال في المباحث:

فهذه حقيقة الإنسان — حيث له أنْموذج ربانِي

ووضعه فِي الكتب لا يَجوز — بل هو كنْز فِي السر مكنوز

وقال في موضع آخر:

متَى ارتقيت عن قبيل الْحس — أدركت فِي نفسك معنَى النفس

يا مَنْ على القشر غَدَى يَحوم — حتّى عن اللب متَى تصوم

ثُم قال رضي الله عنه:

أزلْ عنك وصف البعد بالوصف قد تهت — ولولا ذاك لكنت في أنوار البدر

وبعدها فجْر الصبح في الوصل قد بَدَتْ — شموس الضحى تبدو إلى آخر العصر

يقول رضي الله عنه: أَزِلْ عنك أيها الْمريد وصف البُعْد وهو الجهل والوهم، فإنّما تِهت وبعدت عن الحضرة بوصف البعد أي باعتقادك البعْد في حال القرب ووصفك نفسك بالبين في حال الوصل، فلولا توهمك وجود نفسك واشتغالك بِحظوظها لكنت في ضياء البدر ابتداءً، وإشراق شُموس النهار انتهاءً، فإذا طلع قمر التوحيد ظهرت الطريق، وإذا بدت غرة الفجر انتشرت أنوار التحقيق، ثُم تشرق شُموس العرفان، ويبدو الشهود والعيان، فليس لَها بعد الطلوع أفول، ولا عن سَماء القلوب نزول، بل تصير الحضرة معشش قلوب العارفين، فيها يبيتون وإليها يأوون، فإن نزلوا إلَى سَماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين، جعلنا الله من أعظمهم. قال عمر بن عثمان المكي رضي الله عنه في بيان المشاهدة هي أن تتوالَى أنوار التجلي على القلب من غير أن يتخللها ستر وانقطاع، كما لو قدر اتصال البروق، فكما أن الليلة الظلماء بتوالِي البروق واتصالِها إذا قدرت تصير في ضوء النهار، فكذلك القلب إذا دام به دوام التجلي متع بنهاره فلا ليلُ، وفي ذلك يقول الشاعر:

قلبِي بوجهك مشرق ... وظلامه فِي الناس ساري
الناسُ فِي سَدَفِ الظلام ... ونَحن فِي ضوء النهار

ثُم قال رضي الله عنه:

فهذا سير الرجال إن كنت قد جئت ... لحضرتِهم فاهجر هواك كل الهجر
وبعْ نفسك لهم حقيقا إذا شئت ... مقاما تقيم فيه بالفتح والنصر

يقول رضي الله عنه هذا الذي ذكرت لك من إزالة وصف البعد واستبداله بشهود القرب حتّى يشرق عليك ضياء قمر التوحيد ثُم يطلع الفجر وتشرق شَمس الضحى، هو سير الرجال أهل التمكين والكمال، فإن كنت قد جئت لِحضرتِهم وأردت سلوك طريقهم فاهجرْ هواك هجراً كلياً وبعْ نفسك لَهم بيعاً حقيقياً، فاخضعْ لَهم وتأدبْ معهم واستمعْ لقولِهم واخدمهم بنفسك ومالك، واستقلل ذلك من نفسك في جانب ما نلت من معرفة ربك، فإن فعلت ذلك نلت مقاماً رفيعاً وحصناً منيعاً تقيم فيه أبداً سرمداً، ملتبساً بالفتح المبين، والتأييد والنصر المتين، وتحشر في زمرة المقربين، مع النبيئين والصديقين والشهداء والصالِحين، والحمد لله رب العالَمين.

ثُم قال رضي الله عنه:

ولازم آداب البر في البحر إن همْتَ　　وكن قائما بالعدل في الخير والشر

يقول رضي الله عنه ولازِمْ أيها المريد آداب البر، وهو القيام بآداب الشريعة من امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وإياك أن تنحرف عن الاعتدال، فإن همت في بحر الوحدة وكنت سالكاً في جذبك فأعْطِ كل ذي حق حقه: القلبُ هائم في بحر الجبروت والقالبُ قائم بآداب العبودية حتّى يَموت، وكن قائماً بالعدل في أمورك كلها خيرها وشرها، فلا يَسْرِقك الخير حتّى تطغى وتبطر، ولا يسرقك الشر حتّى تقنط وتغضب، إن واجهك بالخير فكن لله شاكراً، وإن واجهك بالشر فكن عليه صابراً، قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه (العارف مَنْ عرف شدائد الزمان في الألطاف الخافية من الله عليه، وعرف إساءته في إحسان الله إليه، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون).

ثُم قال رضي الله عنه:

وقم بميزان العلم في كل ما قمت　　إلا أن علم الحال خير على خير

وصفة هذا العلم من أي ما جئت　　تشاهد وصف الذات لارتفاع الستر

يقول رضي الله عنه وقُمْ أيها المريد بِميزان العلم أي علم الشريعة بِحيث لا تقدم على أمر حتّى تعلم حكم الله فيه، فلا تتحرك ولا تسكن إلا لله، ولا تنقل قدمك إلا حيث ترجو ثواب الله، ومدار ذلك على الإخلاص وتَحرير النية، قال صلى الله عليه وسلم (إنّما الأعمال بالنيات وإنّما لكل امرئ ما نوى)، فإذا قيّد المريد ظاهره بِميزان الشريعة فليُحسن ظنه بعلم الطريقة كي يُشْرق عليه أنوار الحقيقة، وعلم الطريقة هو علم الحال، وهو العلم الباحث عن أحوال النفوس وأحوال القلوب وأحوال الأرواح والأسرار، ويبحث أيضاً عن التنَزل في الأحوال والمقامات وعن معرفة الأحوال الصحيحة من المعلولة، فهذه صفة علم الحال، فإذا عمل به وذاق حلاوته ارتفع عنه الستر والحجاب حتّى يشاهد وصف الذات كشفاً وعياناً حيثما كان ولأي وجهة توجّه، قال تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾، فإذا انضم علم الحال إلَى علم الشريعة كان خيراً على خير، والفرق بين علم الحال وعمل الحال، أن علم الحال هو معرفته وتعلق

القلب به، وعمل الحال هو بالْمجاهدة في نيله حتّى يصير مقاماً، مثال ذلك التوبة يتعلق العلم أولاً بِها وبِمعرفة حقيقتها، ثُم يجاهد نفسه في تحصيلها فهذا عملها، فما دام العبد يتوب ويرجع يسمى حالاً، فإذا تَمكن منها صارت مقاماً، وكذلك الصبر يتعلق به العلم أولاً ثُم يتجرع مرارته فهذا عمله، فما دام يحصل ويزول كان الصبر حالاً، فإذا تَمكن صار مقاماً، وكذلك التوكل والرضا والتسليم والمراقبة والمشاهدة ما دامت تَحول وتزول سُميت أحوالاً، فإذا تَمكنت من القلب سُميت مقامات، ولكل حال ومقام علم وعمل، فالعلم باحث على العمل، والعمل مُحقق للحال، والحال موصل للمقام، ولذلك قالوا: (الأحوال مواهب والمقامات مكاسب)، لأنّها تكتسب بدوام العمل والحال، والله تعالَى أعلم، ومنتهى المقامات مقام المشاهدة، وبعد مقام المشاهدة ترقيات وزيادات وكشوفات إلَى أبد الأبد، والله تعالَى أعلم.

ثُم قال رضي الله عنه:

فإن كنت قد حصلت هذا فوَاصِلٌ ... وإن كنت تارة فقف بباب القصر

يقول رضي الله عنه فإن كنت قد حصلت هذا، وهو رفع الحجاب والدخول مع الأحباب، وتَمكن ذلك من قلبك بِحيث انكشف سَحاب الحس عن شَمس المعانِي وطلع النهار على الأقمار ولا بقي إلا ربّي، فأنت واصل، وإن كنت تارة تنجلي شَمس المعارف فيبدو النهار وتارة تُغطّيها سَحاب الآثار فترجع إلَى ليل وجودك، فقِفْ بباب الدار وأدْمِنْ قرع الباب حتّى تفتح لك الأبواب وتدخل مع الأحباب فلا تخرج أبداً، والله تعالَى أعلم. ثُم قال رضي الله عنه:

حتى تستوي الأحوال فيك جميعها ... عريفا به حقيقا في الطول والقصر

فَرُحْ واسترحْ وابشر هنيئا لقربك ... ولا بُعْد إلا الوَهْم أتاك بالشر

وتشخص لك الكون في ذهن عقلك ... وما بدا لك جهرا حقا هو عين الأمر

تنبه له وانظر لباطن سره ... ترى شمسه تبدو جهارا بلا ستر

وما استتر الجمال إلا لكشفه ... ولفقد علمه نظرته بالغير

ولو كنت ذا حال لكنت في راحة ... في بحرك مجذوبا وسالكا في البر

فقد كشفنا لك الوصال إذا كنت ... سائلا عليه قبل وضعك في القبر

يقول رضي الله عنه: فما دمت بين الطلوع والنّزول، وبين الخروج والدخول، فقِفْ بالباب والزم الآداب حتّى يستوي عندك جميع الأحوال، بِحيث لا يثقل على النفس شيء، ويتجلى لك الحق ظاهراً قبل كل شيء وبعد كل شيء ومع كل شيء وفي كل شيء، ويتمكن ذلك من قلبك حتّى لا يحجبك حسك عن معناك، ولا معناك عن حسك، ولا فرْقك عن جَمْعك، ولا جَمعك عن فرْقك، كما أشرنا إليه فيما تقدّم، فتكون عارفاً به حقيقة، تشاهده في الطول والقصر والحلو والمر والجلال والجمال، فإذا حصلت هذا فأَرِحْ نفسك من التعب، واسترحْ من النصب والوَصب، وأبشرْ بقرب الحبيب ومشاهدة القريب، ولا بُعْد على الحقيقة، وإنّما الوهم أثبت لك الغير وأتاك بالشر وهو الشرك الخفي، فلو ارتفع حجاب الوهم لثبت لك الإخلاص وذهب عنك الشر والبأس، والوهم أيضاً هو الذي شخص لك الكون في ذهن عقلك فأثبت وجوده مع ربك، ولو ارتفع حجاب الوهم أيضاً لوقع العيان على فقد الأعيان، ولأشرق نور الإيقان فغطَّى وجود الأكوان، فما ظهر لك من الكائنات الحسية هو عين سر الألوهية، فتنبهْ له وانظر لباطن عبرته، ولا تقف مع ظاهر غرته، فباطنه أسرار، وظاهره أغيار، فالعارف ينظر لِما بطن فيه من الأسرار، والجاهل ينظر لِما ظهر من حس الأغيار، فإذا نظرت لباطن الأكوان أشرقت عليك شُموس العرفان، وأفضيت إلَى مرتبة الشهود والعيان، فما استتر جَمال الحق إلا لشدة ظهوره، وما رأيت غيره إلا لفقد علمك به، ولو كنت ذا علم وحال، لظفرت بالوصال، ولكنت في روح وريحان وجنات رضوان، باطنك مجذوب في بحر الحقيقة، وظاهرك سالك في بر الشريعة، وهذا هو كمال الكمال، فقد كشفنا لك طريق الوصال، وبيّنا لك حقيقة الحال، إذا كنت صادقاً في السؤال طالباً للوصال قبل تغير الحال وحصول الانتقال، فلا بد ولا بد لِهذا الكون أن تنهدّ دعائمه، وتسلب كرائمه، فمن كان هنا عارفاً وبالله عالِماً، بعث يوم القيامة عارفاً عاملاً، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى، لكن من اتصل بشيخ التربية لَم يقطع سيره حصول المنية، بل يبقى سائراً حتّى يبعث مع المتمكنين، ثُم يترقى إلَى أبد الآبدين، قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ

وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾.

ختم الله لنا ولأحبابنا بالحسنَى، وجَمعنا معهم في المقر الأسنَى، في جملة الصديقين مع النبيئين والمقربين، آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالَمين.

كمل الشرح بِحمد الله وحسن عونه وتوفيقه الجميل ضحوة يوم الأربعاء منتصف رمضان سنة أربع عشر ومائتين وألْف هجرية، على يد جامعه عبد ربه أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنِي، لطف الله به في الدارين آمين، والحمد لله رب العالَمين.

الباب الرابع

شرح تائية سيدي محمد البوزيدي، لتلميذه سيدي أحمد بن عجيبة

تائية سيدي محمد البوزيدي

أيـا مَـن تَجلـى فِـي بَهـاء جَمالِـه ... وسـر كمالـه وعـز ورفعـةِ
تجَليْـتَ بأسـرار سـرك ظـاهرا ... وأخفيتَهـا بعـد الظهـور لحكمـةِ
وأبْهمـتَ أمرهـا علـى الخلـق جملـة ... سـوى عـارف صـفي مـن كـل علـةِ
لـه بالمعـاني علـم يـدريها كيـف مـا ... تجلـى بهاؤهـا علـى كـل هيئـةِ
محـوتَ سـواك عنـه محـوا مؤبـدا ... وعـاين حـضرة المعـاني القديمـةِ
بـأنوار علمهـا بـدتْ لفـؤاده ... وبـضوء حالهـا رأتهـا الـسريرةِ
لهـا إدراك الكمـال خـصت بـسره ... مـن بـين أسـرار الخلـق فـازت بعـزةِ
فلـولا دنـي الوصـف ألبـستْ نفـسها ... لمـا احتجبـتْ عنهـا أسـرار العليـةِ
فحُـسْنُكَ ظـاهر ولكـن لجهلهـا ... خفـى سـره وهـو فـي أقـوى شـدةِ
فـصَوَّرَ وهْمُهـا الوجـودَ ولـم يكـن ... ومـا كـان هـذا قبْـلُ إلا لعِلـةِ
فلـو دَرتْ حُـسْنَه فـي كـل آنيـة ... لمـا التفتـتْ للـبعض منـه بنظـرةِ
فكـل جمـال مـن جمالـك أبْـرز ... علـى ترتيـب المـراد فـي كـل سـاعةِ
ولمـا أردْتَ للعِيـان بُـرُوزَهُ ... تجليْـتَ بالكمـال فـي كـل وجهـةِ

تجَلَيْــتَ حكمــة وهــذا عالَمُهــا وسِــرك قــد بَــدا بــألطف حكمــةِ
فقلــتَ لنفــسِك لأعظــم سِــركَ لِمَا شئتَ كنْ يبدو في أسرع لمحةِ
فهــي طــوْعُ المــراد منــك حقيقــة وكــل مــراد يُقْــضَى بعــد الإرادةِ
تَنزلــتِ الأســرارُ مــن بحْــر ســرك فــأجْرى عليهــا منــك حُكْــمُ الكثافــةِ
وبــدا ظــلال الســر فــي الحــس جهــرة وهــي التــي كانــت عليــه أدلــةِ
وصــورةٌ فــي الظهــور طــوَتْ جميعَــه كمــا طــوى سِــرّها معــاني الحقيقــةِ
وللــروح أكبــرُ العقــول تنَــزل وبــأكبر العقــول صــارت كبيــرةِ
ومِــنْ أربــاب الأذواق نالــتْ علومَهــا وهاجــتْ فهومُهــا وصــارت عاليــةِ
ودَرتْ مــا لــم تــدره قبــل فنائهــا ومنهــا بــدت لهــا الأســرار الغريبــةِ
طويت في شكلها الأشكال جميعها وإن كانــت فــي التجلــي مــا لــه نهايــةِ
فــسِرُّها قــد أحــاط بالأشــياء جملــة وإن كانــت بالجــسم الأشــياء محيطــةِ
فلــو زال وصــفُها لزالــت حُجوبُهــا ولبَــدتْ شمــسها بنــور مــضيئةِ
ولانكــشفَ لــسِر صــاحب ســرها حقــائق أســرار الوجــود الخفيــةِ
ولكــان كــل الكــون عنــد مــراده يُقلبــه حقًّــا فــي أســرع لحظــةِ
ولــدرى ســر المعنــى فــي كــل مظهــر ولبــدى وجــه الســر فــي كــل وجهــةِ
ولأيقــن منــه الفــؤاد بــذاتها وأنهــا وحــدة مــن غيــر ثنيــةِ
فمــن ســر الســر ســره بــدا جهــرة بــذلك كانــت كــل الأشْــيَا خديمــةِ
فنقطــة الــسر بحــرٌ والحــرفُ بَرُّهــا ومِــنْ حرفهــا الحــروف بــدتْ لحكمــةِ
وبــالنقط والأشــكال زادت تبينــا لمــن لــه علــم بالمعــاني القديمــةِ
وقــد بــدتْ جهــرة مــن بعــد اســتتارها وراءَ لامَــيْنِ للظهــور مــشيرةِ
وبــالنطق بهــا تــدري إن كنــت فاهمــا وفيهــا انتهــتْ رُيَّــاسُ بحْــر الحقيقــةِ
فواصِلٌ في بحْر الأولى غاص فكره وكامــلٌ زاد فــي المعــاني الجليــةِ
ظهَــرت لــه ظهــورا فــي كــل مَظهَــر ولــيس علــى التحقيــق ســوى الحقيقــةِ

أزالتْ كل الأكوان عند ظهورها ولم تكنْ قبْلَ المَحْو إلا لحكمةِ
بها ثبت الإبعادُ للورى عامة توَهَّمَتْها غيرًا لِجَهْل الطريقةِ
فلو سَلكوا حقا بَدَا لهم سرُّها وغاب جميع الفَرْق في كل وجْهَةِ
ولو خَرجتْ عَمَّا به قد تعودتْ لنالت شفاء الروح من كل علةِ
ولَصَحَّ جسْمُها السقيم من كل ما أصابها من عشق الأمور العاديةِ
ولبَدَتْ شمسُ سرها في عالمها ولأوضحتْ معناه كل الإضاحةِ
فلولا الهوى لما احتجب بهاؤه وما النفسُ إلا للهَواء مطيعةِ
فلِجُيوش الهواء كنْ متشتتا نصحتُك فاقبلْ يا لبيب نصيحتِي
فإنْ مِلْتَ فَرَّتْ مغناك وتباعدتْ وأقبل ليلك برعد وظلمةِ
فإنْ شئتَ المعاني جَمْعك دائما فلا تمِلْ نحوه ففي الميل ذلةِ
ويكفيك سجنك في قفص عالمك ورؤية كونك بعَيْن العَمِيَّةِ
فحَقّ البصير يفني ما سوى وجهه وإلا فلست من أرباب البصيرةِ
فمَنْ له عيْنُ الجَمْع أعلى حقيقة ومَنْ لا فلا يدري كمال الولايةِ
وإن أُبْرِزَتْ على يديه خوارق وظاهره على منهاج الشريعةِ
فأحوالها تبدو على من توجه إليها بخدمة من أهل الإرادةِ
وهذا لبعض القوم في حال سيرهم وتبدو لأقوام في حال النهايةِ
فأكثرهم على اليقين بناؤهم فلا التفات لهم من أول وهلةِ
عَلَتْ هِمَمُ الأرواح للعالم الأسنى بمحض تفضل وجود ومنةِ
وعاينت أسرار المعاني بعينها ولولاها ما رأتها عين السريرةِ
بنورها قد بدَتْ عن طلعة وجهها إلى عين مرآة القلوب الصافيةِ
فمَنْ كنتَ له بالمِنَن مُقابِلا رَفعْتَ عنه تلك الحجب الساترةِ
وعَلَّمْتَهُ من العلوم لطيفَها وحَقَّقْتَ سره بسِر الحقيقةِ
وأشْهَدْتَهُ السرَّ المَصُونَ بسرك وأيْقَنَ أن ما سِواك لغفلةِ

وبالقهر والقضا المقدر عندك ستَرتَ منك الأسرار وهْيَ جَلِيَّةِ
ظهورُها قد تغَطى بالكشْف للغطا وبانسدال الغطا استدل البريةِ
فأقوام بالآيات كان استدلالهم وأنت لبعضهم غاية الأدلةِ
هنيئا لمن كنت عليه دليله مُلازم للأفراح في كل ساعةِ
ومبسوطٌ بِسِوَاك حَدُّهُ نفْسُه وروحُه بالتحقيق في أقوى نَكْدَةِ
فمبْسُوطا كنْ به ولا تكنْ بالهوى ولا بَسْط إلا بعْد مَحْو البقيةِ
فكنْ سالكا حقيقا في الجذب تنتهي ولا تقْنَعْ ظاهرا بأمر الشريعةِ
قليلا يليق بالطريق لِصَعْبِهَا وجُلُّ عباد الله أهل شريعةِ
فإنْ سَاوَى حالُ الشيء فيك وضده تيَقَّنْ بأكمل صفاء السريرةِ
وكنْ برزخا واحذر من الميل دائما ولازمْ مقام الْحَدّ في كل عثرةِ
وقِفْ على حَدّ الشرْع والزم كماله وجنبْ من البسط المؤدي لرخصةِ
فمن أطلق العنان في حال سيره فلا بد أن يعود في حال شهوةِ
وما التذت به النفس حتما يمدّها سموما من أعظم السموم القاتلةِ
وإن لم يكن في الشيء لذة طبْعها فلا بأس إن كان بأمر الشريعةِ
توَرَّعْ إن الورع أعظم بابها وأولى بها حقيقا أهل الحقيقةِ
ولا تلتفت لما جرى به حكمه فليس ذاك من شأن أهل المحبةِ
فكل محبوب بالمحبوب اشتغاله ناسيا لما سواه في كل حالةِ
وإن جاءك من المحبوب تَعَرُّفٌ فَتَلَقَّهْ بالإجلال في كل دفْعَةِ
فلولا شيء يُكَدِّرُهَا في سيْرها لما صارتْ من بعد الكدَر صافيةِ
فلا تُنْكِرْ حُكْمَه إذا بَدا قهره فعن قريب يُحْلى من بعد المرارةِ
فمن لم يكن بحال من مات جهرة فميت عن حياته الأبديةِ
فليس له علم وإن كان لفظه يشير إلى التحقيق كل الإشارةِ
فأكثرهم فيها يطول كلامهم وليس لهم سوى الألفاظ العاريةِ

فمَـنْ كـان فـي كـل الهـوى متمكنـا — فكيـف يـدري حقيقـا عِلْـمَ الحقيقـةِ
فعِلمُهـا نـور يُبْـدي عـن سـر وجههـا — وتـشهده منـك الأرواح الـصافيةِ
وقولُهـا يعجـب النفـوس سـماعه — وأولـى بـه مـرا شـديد المـرارةِ
تَفِـرُّ منـه النفـوس كـلاً بأسـرها — سـوى نفـس كانـت بـالمِنَن مُمـدةِ
علـى عهـدها الأول لـم تـنقض أمـره — سـبقت لهـا عنـد الإلـه الـسعادةِ
لهـا عـزم دائمـا وحـزم بـين الـورى — خـادم لأهـل الفـن أشـد خدمـةِ
علـى سـبيل الإجـلال والحـب دائمـا — ولـيس لهـا اعتـراض فـي كـل حالـةِ
فـنِعْمَ التـي كـان محلهـا هكـذا — تنـال مـن الحكـيم أعظـم حكمـةِ
فيـا سَـعْدَ مـن كـان إليـه مجـاورا — علـى بـساط التعظـيم فـي كـل سـاعةِ
ببعـضه قـد كنـا إليـه ولـم نكُـنْ — بكلـه ونِلْنـا اقترابـا ووصـلةِ
وأيـن هـم فـي الوجـود قـلَّ وجـودهم — فـأكثر أهـل الوقـت أربـاب دعْـوةِ
وقـد ضـاع آداب المريـد فـي وقتنـا — وواصـلون لهـا بمحـض الكرامـةِ
فلـولا رجالهـا يمـد بوصـفها — حقيقـا مـا نلنـا منهـا كقـدر حبـةِ
وقـد ملئـت كـل النفـوس بوصـفها — وفنـتْ عـن جملـة الأوصـاف العاليـةِ
بفـضله قـد جـاد الإلـه بجـوده — ولـيس للفـضل منـه وجـود علـةِ
فمـن لـم يـزل عنـه الحجـاب بفـضله — يعـوم فـي سـره وعنـه فـي غفلـةِ
ولا شـيء غيـر سـرك بـدا جهـرة — لـذاك صـارت معانيـه مـستترةِ
ظهـرت بـأنواع الجمـال حقيقـة — وسـميته كـلا باسـم الخليقـةِ
فكـان نهايـة اسـتتار ظهـوره — وهـذا مـن أعظـم الحكـم البالغـةِ
وخصـصْتَ آدم بـسر علومهـا — وأعْجَـزتَ سـكان الـسماء العاليـةِ
وحققـتَ أحمـد بكـل حقيقـة — جَـرتْ عليهـا منـك الأسـماء البديعـةِ
لأنـه نـورك وسـر جمالـك — وبحـر كمالـك وأعظـم نعمـةِ
هـو المظهـر الأعلـى وسـر المظـاهر — بـأنواره كـل الأشـياء منيـرةِ

بعَيْن البَقَا يراه من كان فانيا ... وهذا لبعض القوم بعد النهايةِ
وليس من الأحوال ما صَحَّ عندنا ... ولكن شريعة المعاني القديمةِ
وللقبْضَة عِلْمٌ مَنْ أدرك علمها ... عالما يصير بالأسرار الغريبةِ
أفاضتْ من نوره الأنوار جميعها ... ومن سره الأسرار كلا ممدةِ
ومن بحره العلوم فاضت بأسرها ... على باطن العرفان بأعلى حكمةِ
ومن نور عقله عقول تنورتْ ... لذاك صارت أهلا لنيل الطريقةِ
وهام كل الأرواح منهم بفكرة ... وعاينت أسرار الأسرار الخفيةِ
وللروح قوة على حمل سره ... من بين نفوس الخلق فازت بقوةِ
على الحالة الأولى جاءت لنا أولا ... ومدها علم الفرق في حال فطرةِ
وقبل اجتماعها بعالم جسمها ... كانت من علوم روحها مستمدةِ
لها علم بالأسرار تدريها دائما ... بعقل وروح جوهرة نفيسةِ
وجسم لحكمة وبه تَكَمَّلَتْ ... وبسره صارت في الأرض خليفةِ
وهنا بدت معاني الذات لنفسها ... ولكن بعد انفصال عن كل عادةِ
فكل حقيقة بضدها أظهرت ... وليس على التحقيق سوى الحقيقةِ
تنزلت الأسرار جهرا لحكمة ... وبأسرار النزول صارت في رفعةِ
تنزل لها إن شئت تدري نزولها ... وإن كنت في المعالي كانت عاليةِ
فمن لم يكن عبدا لكل عبيدها ... على مذهب تحقيق أهل الحقيقةِ
فلا يدري سرها الذي بدا جهرة ... وإن كانت ألفاظ المقالة قويةِ
فكل علم لا يصحب الفعل جنبه ... فإنه على التحقيق خالي الحقيقةِ
وكل صورة الفعل يبقى خيالها ... تشاهدها الأسرار فارحلْ بسرعةِ
وقلد سيوف العزم واركب خيولها ... وقاتلْ جيوش الوهم في كل ساعةِ
ولا تقنع بعلم الفروق قناعة ... فأكثر أهله جُهَّال الطريقةِ
وفي علوم المعاني كن متبحرا ... ولا تزد في سواها فوق الكفايةِ

فكم عارف نال المعاني ببعضها ... ونال مراده في أقرب ساعةِ
وكم تالف له الكثير من أمرها ... وقلبه معلول بأعظم علةِ
فعلم في القلب نور يهديك نوره ... ويرشدك إلى الطريق الناجيةِ
وجهل له ظلام في النفس دائما ... يسير بها إلى البلاد الخاليةِ
فمن له عين العلم يرى بنورها ... ومن له عين الجهل أعمى البصيرةِ
ستر رداء الوهم مرآة قلبه ... وأغشاها ليله بأقبح ظلمةِ
وأبصر ظاهر الأكوان بعينها ... وصارت كلا في لِبِّه مستقرةِ
فناظر للأشياء بعين ذاتها ... جاهل وإن قام برسم الشريعةِ
ومبصرها بنور عين صفاته ... له علم ببعض الأسرار العاليةِ
وناظرها بعين ذات جماله ... ولايته أعلى من كل ولايةِ
فإنه في أقصى الكمال إذا صحى ... وإلا فمغروق في بحر الحقيقةِ
وواقف في العالمين ولم يمِلْ ... كثيرا هو الإمام عند الأئمةِ
له رؤية في الشيء والشيء لم يكن ... سوى لفظه المشير به لحكمةِ
فرؤية الكون بالمعاني عزيزة ... ومن عثر عليها فاز بعزةِ
فكن متمَّ السلوك إن شئت وصلة ... وجنبْ دسائس النفوس الخفيةِ
وإن غفلت نفس جالت في عالمها ... وأهواها حسنه المجازي في لمحةِ
وتعظم ظلمة النفوس بليلها ... وتأتي لك الأوهام من كل جهةِ
وتبدو لك صورة ظاهر نفسك ... وتنطبع فيها الأشياء الفانيةِ
فللمعنى إن كانت صافية للمرا ... وإن كانت بالكدر للحس مرآةِ
فكل شيء تقابله بسرها ... يقابلها والمعنى أشرف حالةِ
وهمة مع أسباب تقضي جميع ما ... في الوقت تريده في أسرع لمحةِ
بتلك السّرين قام سرّ وجوده ... بقدرته وحكمته العاليةِ
فكن جامعا لِشأن همة سرك ... على محبوب القلوب تعطى الولايةِ

وتـأتي علـوم الـنفس كالـسيل نـازلا فلـم يحـصها سـوى كبيـر العنايـةِ
وتلـك علامـة تجلـي معانيهـا بوجـه جمالهـا لعـين الـسريرةِ
وقد بـدا فـي الأزل للروح كيف شا كـذلك يبـدو فـي الأبـد لحكمـةِ
فكلهـا أوجـه إذا صـفى مرآهـا لـذلك يبـدو إليهـا فـي كـل وجهـةِ
فأنـت بهـا عظـيم الجـاه ولكنـي أراك عـن سـرها فـي أعظـم غفلـةِ
فإن كنت في الصورة خلقا فيما يرى فأنـت فـي غيرهـا أمـور عظيمـةِ
تكـلّ عنهـا الأفهـام فـي شـرح سـرها تحيـر فـي فهمهـا العقـول الراشـحةِ
فكـل واصـل كَـلَّ عنهـا لـسانه وكامِلُنـا يـأتي بلفـظ الإشـارةِ
فلـو صَـحَّ لـك العلـم بـأمْر سـرها لكنـت بقـدرها عظـيم المزيـةِ
فإنهـا لـوح المعـاني فـاذْر شـرفها ولـوح العُـلا فيـه علـوم الخليقـةِ
مـن سـرها قـد تكـون جـسم لوحهـا ومـن لوحهـا علومـه مـستمدةِ
فـذاك لـبعض القـوم يـشهد سـره وهـذا علـى التحقيـق عـين الحقيقـةِ
فـلازمْ خمولهـا بـين الجـنس دائمـا ففيـه صـفاء الـسر مـن كـل علـةِ
فبقـدر دفنهـا فـي عـالم فرْقهـا يتجلـى أمرهـا لعـين البـصيرةِ
فـلازمْ وصـف العبيـد وكـن عبيـدهم ودعْ عنـك جملـة الأوصـاف العاليـةِ
بهـا بعـدت عـن الإلـه حقيقـة ولـو دَنَـتْ للأدنـى لـصارت عاليـةِ
فلـولا قمـيص الـذل مـا صَـحَّ عِزهـا ولـولا رداء الفقـر مـا طابـت لـذةِ
فخـذها إلـى الثـرى بـألطف حكمـة تأتـك مـن المعـالي بـأعلى حكمـةِ
فـلا علـم لمـن كـان بوصـف نفـسه فنـور نهـاره محجـوب بظلمـةِ
ولا جهـل لمـن زالـت ظلمـة ليلـه وبـدت شموسـه بنـور مـضيئةِ
إذا شئت معنى السر فاذْنُ إلى الثرى ولا ترفـعْ منـك عـضوا فـوق البريـةِ
فلو كنت تـدري معنى سر وجودهم لكنـت لهـم مجلـى فـي كـل حالـةِ
فعلـم علـى التحقيـق يخـرق كـونهم ويفنـي وجـودهم فـي أسـرع لمحـةِ

وتبدو لك حقيقة كل مظهر وتدري بعد التحقيق معنى مقالةِ
فكل علم لا يأتي بك لذلة فلا بد أن تأتيك منه المذلةِ
فكن كالذين صارت نفوسهم كالفضا وهامت كل الأرواح منهم بفكرةِ
وأظهرت لهم منه أعظم آية في باطنهم فاستجمعت كل آيةِ
ولنفسهم بدت حقيقة نفسها وطوتْ على التحقيق كل حقيقةِ
بأعظم علمك ظهرت لأهلك بأكمل سرك لعين السريرةِ
أزلت وجودهم بسر وجودك وليس لهم وجود قبل الإزالةِ
فكنتَ ولم يكن سواك حقيقة سوى تلوين الجمال زاد في عزةِ
تعاليْتَ عما لا يناسب حالك لأنك مفرد بالذات العاليةِ
فلِله ما أظهر سر جمالها ولله ما أخفاه بألطف حكمةِ
حكمتَ على الأسرار بالستر والخفا وهي كشمس الأفق حين تجلتِ
لشدة كشفها أخفيت ظهورها سترتها عن أهل انطماس البصيرةِ
يرونها والعقل القصير يظنها سواها وهي عين كل آنيةِ
فبسر اسمك القاهر سترتها لك الحمد أنعمت بأعظم منةِ
رفعت رداء القهر عن عين سرنا نظرنا بها إليها أحسن نظرةِ
تمتعنا في بهاء حسن جمالها رأيناها عيانا بعين العاليةِ
فرؤيتها شرع لأهل كمالها بعين معانيها تفهم إشارتي
وغاية سرها وأعظم أمْرها لقطب جمالها وخير البريةِ
لأنه شمسها ونور بهائها وعين كمالها وبحر النهايةِ
فلا أحد يحوم حول مقامه لقوة أنوار التجلي العظيمةِ
وجبريل في الإسراء لو زاد خطوة لأحرقت جسمه الأنوار القويةِ
فذاك مقامه في القرب وحده وأحمد زاد فوق ما لا نهايةِ
فلو بدا ما بدا إلى الورى جملة لأفنى وجودهم في أسرع لمحةِ

ويكفيك في الجبل محو وجوده ... مما بدا له من تجلي الحقيقة

ولما رأى الكليم أعظم أمره ... صار داهشا وغاب أعظم غيبةِ

حرام على مخلوق أن يرى وجهها ... ولكن بها ترى الأسرار العجيبةِ

فعَيْنُها عِلْمُها وبه البصائرُ ... تشاهده عيانا في كل لحظةِ

وإن بدا في الأشياء أفنى وجودها ... ولم يبق غير اللفظ منها لحكمةِ

وبقدر قوَّة الأرواح شهودُه ... ولو زاد لها في التجلي لدكَّتِ

وذلك شيء في الأزل مقدّر ... وإن شاء زاد ربنا في العطيةِ

ولأقوام تجلٍّ لو بدا سره ... لمن دونهم لامتحت كل آنيةِ

وذاك لهم بقدْر سر اقترابهم ... وقربهم بقدر صفاء المرايةِ

ومرآتهم تجلى بحسب زهدهم ... وزهدهم بقدر الهِمَم العاليةِ

وأجنحة الأرواح سر هممها ... وإن علت الهمة صارت عاليةِ

فمن كان رافعا لمقدار نفسه ... فلا شيء له في الرتب العاليةِ

وإن كان علمه كثيرا وصومه ... فهذا الطريق لا يُنال برفعةِ

ولكن بخَلْع النفس عن كل لذة ... وتغييبه عنها وعن كل غيبةِ

وأنفع علم يدنو بك إلى الثرى ... وغيره يرفعك أقبح رفعةِ

فكن مبصرا في الشيء إن شئت وصله ... ولا وَصْل إلا بعد محو البقيةِ

ولا محو إلا بعد دفن وجودك ... ولا دفن إلا بعد فقر وذلةِ

ولا فقر حقًّا إلا عن طيب نفسك ... ولا ذل إلا جهرا بين الأحبةِ

فمن كان للعز محبًّا وللغنى ... فمعبوده الهوى على أي حالةِ

فجانبْ كل ما مال قلبك نحوه ... سوى حبه الصفي من كل علةِ

ولا رخصة للقوم في حال سيْرهم ... لأنها لأهل الهمم الضعيفةِ

وأنت مقام القوم تريد وصْلة ... فهو بعد الصفاء من كل علةِ

فخذ منهاج العرفان واسلك سبيلهم ... ولا تقتد بأكثر أهل نسبةِ

حكموا على الأسرار بالقول دائما   وحَلُّوا قيود النفس في كل شهوةِ
وزال خصيم النور وفنَى وجوده   وجاء رضاء النفس بكل علةِ
فلا علْم لمن كان عنها راضيا   أحاطت به الأهواء من كل وجهةِ
ولا جهل لمن كان عليها ساخطا   من أجل عصيانها لرب البريةِ
وقد كانت بحر السر وهي أميرة   وجاءت لتدري معنى سر الإمارةِ
فملكها الهوى وصارت مأمورة   عليها أمير الكون بأعلى سطوةِ
لها صفة الإنسان والطبع أغلظ   وأقوى من الحمار في حال زفرةِ
فأين حقيقة الإنسان التي كانت   عليها عند الإيجاد أول نشأةِ
فكن مُخلِصا وأخلصْ من إخلاصك الذي   وكن باريا من كل حول وقوةِ
وكن بالإله معتصما بقلبك   وقل يا سلام سَلِّمْ من كل فتنةِ
ولازمْ كتاب الله واحكمْ بحكمه   وسنة أحمد إمام الأئمةِ
وعالم ورع في دنياه زاهد   فكن عنه آخذا لأمر الشريعةِ
ومن كان سالكا ومجذوبا دائما   ولا أخذ إلا عن شيوخ الطريقةِ
كمثل أستاذي قَلَّ في القوم مثله   وفخري به طرًّا على أهل نسبةِ
وبه على الورى أصُولُ حقيقة   ولا أخشى إلا من إله البريّةِ
فجملةُ أهل الوقت تحت لوائه   عارف بأحكام النفوس الخفيةِ
له هِمَّة إن قال للشيء كنْ يَكُنْ   يُعِز إذا شاء يُذِل في لحظةِ
تمد مددَ الخلق همةُ سِره   جميع همم الخلق في كل حاجةِ
يقلد في الأمور كلا بأسرها   في حكم الحقيقة وأمر الشريعةِ
فمن لم يدر معنى سلوك طريقة   حقت له جملة الأحمال الظاهرةِ
لمثله كنْ عبدا تنلْ كل المنى   وتبلغ منتهى الأسرار العاليةِ
وكن لأهل علم المعاني مجاورا   تمد من الأسرار في كل دفعةِ
فعَنْ رجال الأفكار تروى عقولهم   على صفة التلقين في كل ساعةِ

ويكفيك بعد الفرض ما هو آكد ... لأنك حامل لحمل الطريقةِ
وقَلَّ من كل للجهتين عامرا ... فأكثر أهل الله لإحدى جهةِ
توجَّهْ إلى المعاني حيث توجهتْ ... وذُرْ معها سريعا في كل دورةِ
وكن حريصا على الأنفاس جميعها ... فمطلوبها كلا بفكر ونظرةِ
وذكر بجمع القلب جاء حقيقة ... وبه استقام حال أهل الطريقةِ
وإنْ كَبُرَ العيان بحكم قهره ... على سائر الأحوال في كل ساعةِ
ومالكٌ للأحوال هو إمامُنا ... به يقتدي الجميع في كل حالةِ
تعلق بسره تخلق بوصفه ... تحقق بوصف الفقر تحظى بعزةِ
على منهاج الكمال امش ولا تخف ... وخل عصاة الخلق وأهل طاعةِ
وجَنبْ جميع الناس واحذر غرورهم ... ومدعي الفقر جهرا أكبر غرةِ
ومَنْ ظن علمه فوق الورى جملة ... وفهمه أعلى من جميع البريةِ
فهذا أجهل الناس كلاًّ بأسرهم ... فنظرة منه تأتي بألف ظلمةِ
وعالم به كل ما ازداد علمه ... وفهمه عنه زاد فقرا وذلةِ
فخَلِّ سوى من كان لك موافقا ... حقيرا فقيرا راضياً بكل محنةِ
ضعيفا عاجزا خامل الذكر في الورى ... وجُلُّ جميع الناس عنه في غفلةِ
فواضعُه ورافعه كلاهما ... لشغله بالمحبوب في كل ساعةِ
وأين هذا في الناس قلَّ مثالُهم ... فسيدهم معلول بكل علةِ
إذا مدح أو بالعطاء وجهته ... أتاك سريعا مظهرا للمحبةِ
وإن كنت له بالمذمة واجها ... على حذر كنْ منه في كل طرفةِ
فيا أسفا على الذين تقدموا ... كانت لهم نفس بالمجاري راضيةِ
يرونها من عين المعاني حقيقة ... يحبونها إجلالا أشد المحبةِ
إذا ووجهوا بالذم ترى وجوههم ... بنور كأنها شعاع الأهلةِ
وإذا منعوا زادوا فرحا ونشوة ... فهكذا حالهم في أمر البدايةِ

كانت لهم أخلاق كرام مع الورى وأوقاتهم بين حضور وغيبةِ
ووقتنا بالتحقيق قد صار جلنا يطوف على الدرهم في كل ساعةِ
ويسعون عند الخلق رفعة قدرهم ويطمع في درك العلوم النفيسةِ
هيهات ما كان هكذا من تقدم وقد كانوا أصحاب الهمم العاليةِ
نظرهم للمحبوب نحو جماله تيقنوا أن ما سواه لغفلةِ
فليس شيء سوى الجمال حقيقة ظهر منه ما كان مخبى بحكمةِ
وما زاد شيء سوى بروزه على حسب ترتيب حكم الإرادةِ
وما نقص وإن أخفى الأمر سره وصور فهمك وجود الخليقةِ
فلِقِلة التحقيق منك بحقه ولفقد العلم غابت عنك الحقيقةِ
ولو جاءك علم المعاني التي بدت لكنت من أعظم هناء وراحةِ
وقد كان كل سر منها لِسِرنا ولكن أخفاه الوهم لأجل علةِ
على مرآة القلوب بدت سحابة آثار رياح الوصف أتت بظلمةِ
إذا شئت أن تحيا فمتْ في حياتك ولا خير فيمن حيا حتى تأتي المنيةِ
فمَنْ حيا قبل الموت ماتت حياته ومن حيا بعد الموت حيا حقيقةِ
وأصعب شيء فقر ثم مذلة فلذ بهما تكن كبير الولايةِ
فمن لم يكن بالفقر والذل راضيا فأسرار أهل الله عنه بعيدةِ
فتسليط الجنس فرض في السير فاذْره ويبلى ذلك البلاء عند النهايةِ
فما من صِدّيق إلا قاموا بحجة عليه ولكن أذنه قد تصممتِ
له همة عليا بالله تعلقت وروح منه اشتاقت إلى حضرةِ
وأكبر عقل منه للعلم مقبل وقلب إلى محل نزول حكمةِ
وسرْ لعَيْن بحر ذات جماله لها نظرة بنور عين الحقيقةِ
ونفسه في المثال صارت كأرضنا سوت تحت أقدام جميع البريةِ
فلا زال يدنوها وينسى حظوظها حتى زال وصفها وصارت عاليةِ

تغوص في بحر السر بسر فكرها ... وتأتي بأشراف العلوم النفيسةِ
فلم تروِهِ هناك إلا عن نفسها ... في عالم سرها تصح الروايةِ
فواسطة الإلهام أمين وحيها ... يأتي لها بالتبليغ في كل ساعةِ
فإنها نقطة الجمال حقيقة ... من النقطة الكبرى برزت لحكمةِ
تقدمْ ولا تخفْ فنارها ساعة ... ونورها دائمٌ بين شمس الحقيقةِ
فَطهِّرْهَا تطهيرا ظاهرا وباطنا ... وخذها ولا تخف من هول وفتنةِ
فإنها سر الله قطب جماله ... فمنها نال الوجود عزًّا ورفعةِ
عليه تدور أفلاكه جميعها ... وأنواره منها تلوح بقوةِ
فلولا الهوى لضاء نور بهائها ... على سائر الأقطار في كل ساعةِ
فشمس عالمها من نورها أبرزتْ ... وأنجمه منها كلا مستنيرةِ
وأنوار أفلاك الأفق بأسرها ... ومنها مدد الكل في كل لمحةِ
وبها عَلا أهلُ الإله جميعهم ... وصاروا ملوك الكل في أعلى رتبةِ
يَجُرُّوا ذيول العز حيث توجهوا ... وحالهم الغنا برب البريةِ
عظم اكتفاؤهم وكفاهم كلما ... يهمّهم بفضْل وجود ومنةِ
وإن أصيبوا فالحفظ حال قلوبهم ... ومَنْ أولى منهم بالأمور العظيمةِ
فهم معه معيَّة الحال دائما ... وذاك فوق طور العقول الراشحةِ
فلا يدري حالهم في القرب سواهم ... وكل جميع الخلق عنهم في غفلةِ
فلو نادتهم كل الأشياء بصوتها ... لما التفتوا إليها بأدنى لَمْحَةِ
يُباشرها والقلب عنها بمعزل ... مُلِيءَ حقيقة بنور الحقيقةِ
منْ أجلهم أكرم الله كل الورى ... وصار عصاة الخلق في ظل رحمةِ
تطيب الأماكن بذكر سماعهم ... وتعلو فوق الأماكن وقتا بجلسةِ
وإن داموا صار في المعالي مقامهم ... كأنه كوكب منير في رفعةِ
فبسِرّهِمْ دار الفلك بحكمة ... وحَرَّكَ أقطار الوجود في لمحةِ

فمفتــاحُ أبــواب العلــوم بأيــديهم وســرُّ العطـا موهـوب بلمـح نظـرةِ
وكــل مــدد الخلــق مــنهم جميعــه بــأنعم فــضله أو بعَــذْل نقمــةِ
فمــن نــار قبــضهم صــار حرهــا عــذابا لأقــوام مجانــا مــع ذلــةِ
ومــن نــور بــسطهم جِنــان تزخرفــت بهــاء وأنــوارا ســرورا مــع بهجــةِ
وأنهارهــا بــسِرهم فــاض خمرهــا وأغــصانها نــادت بألطــاف نغمــةِ
وبنــورهم حــور العيــون تنــورت وولــدانها المــسخرة لخدمــةِ
وزينــة عــرش الله بعــض جمــالهم ولــو بــدا ســرهم للأشــياء لــدكتِ
وســرّهم نقطــة مــن بحــر حبيبنــا ومولانــا أحمــد العظــيم العطيــةِ
فمــن بحــر ســره عليــه صــلاته سقاهم صفاء الشرب من طيب لـذةِ
ومــن نــور بــرّه عليــه ســلامه كــساهم حلــل العــز أشــرف لبــسةِ
ومــن عقلــه عقــولهم تنــورت ومــن روحــه أرواحهــم مــستمدةِ
ومــن علمــه الأعظــم لهــم مواهــب تفــوق لجــج البحــر فــي أقــوى شــدةِ
وبــه نجــوا مــن الهمــوم جميعهــا وبــه كانــت حيــاتهم أبديــةِ
وخــصوا بــسره الخفــيّ بــين الــورى وأعطــاهم منــه قربــا فــوق الخليقــةِ
ولا زالــوا فــي ارتقــاء نحْــو كمالــه حتــى بــدت صــورة الحبيــب البهيــةِ
كــأن ســواها فــي المظــاهر لــم يكــن وهــذه رتبــة مــن أقــصى الولايــةِ
فلهــم عينــان للجمــاليْن نــاظرا فهــذي لحالــة وهــذي لحالــةِ
فواحــدة تطــوي الوجــود بأســره وأخــرى لــه بالنــشر فــي كــل ســاعةِ
فيــا لــه مــن مقــام مــا أعلــى أمــره لــبعض رجالنــا مــن أهــل طريقــةِ
وهــذا علمــي وفــوق علمــي علــومهم فلــم أدر ســوى الــبعض منهــا لغفلــةِ
فإنــهم أعظــم الحجــب لأحمــد وأحمــد أعظــم حجــب الحقيقــةِ
فكن مثلهم في السير إن شئت سرهم ولا تكــن كــالعوام مــن أهــل غفلــةِ
ظــاهرك بــأمر الــشرائع قــائم وبــاطن منــك بالأســرار العاليــةِ

فَصَلِّ صلاةَ الجَمْع في الفرْق أينما ... توجهت لتلك الآية العظيمةِ
وإليه بالتحقيق وجهك دائما ... وهذي إشارة ونعم الإشارةِ
فأهل النهى يدري إشارة سره ... ويسجد بالأرواح لكل وجهةِ
ومن كان فهمه قصيرا فيسجد ... لِمَكَّة تابعا لظاهر الآيةِ
وله مدد البعض منها لسِره ... تمده مدد الهمم الضعيفةِ
فكن ساجدا لله سِرًّا بكُلِّكَ ... ولا تنقص عند البعض أقل ذرةِ
وكن داعيا عند السجود تأدبا ... وسَبِّحْهُ بالإجلال في كل ركعةِ
وفرض عين جاءت على من تكلف ... وأما صلاة السر عيْن الفريضةِ
وفي الوقت صلاتيْن صَلِّهما معا ... فذاك قرة العين فادر إشارتِي
وإن كنت من إحدى الصلاتين فارغا ... فكن ساجدا في الأخرى بإحدى سجدةِ
ولا ترفع يوما من سجودك طرفة ... فليس هنا وقت تكون الإعادةِ
فهذه للأبدان لأجل ضعفها ... وهذه من أجل القلوب المريضةِ
بمحض الكرم يا إله تَولَّنا ... وكن لنا وارعنا بعين العنايةِ
ولا تترك حولنا عدوًّا وظالما ... وإن حام له آته بكل ذلةِ
وخذه قبل اهتمامه بهلاكنا ... لأنك عالم بكل الخفيةِ
وكل جبار اقطع عروقه ... وأوراقه وأغصانه الممدةِ
وأين ما ولى الوجه خذه بسطوة ... وولِّه مدبرا عظيم المذلةِ
مشتت القلب والجوارح دائما ... يخوفه الشيطان كل المخافةِ
ولا تترك منهم في الوجود بأسره ... عظمت منهم إلهي كل الإذايةِ
أقمنا سيوفا من سيوفك ظاهرا ... وباطنا تمحق الأعادي الظلمةِ
أعادي جنود النفس والجنس دائما ... سريعا إلهي يا سريعُ في لمحةِ
فَأمْرُكَ أقرب من البرق إذا بدا ... وأعجب من هذا في حكم وسرعةِ
فكن لنا والإخوان حيث توجهنا ... وأيِّدْنا وانصرنا بأعظم نصرةِ

وكـن لـدين الحبيـب أحمـد حافظـا وَطهِّـرْهُ يـا إلـه مـن أهـل ظلمـةِ

بحكمك كيف شئت تحكم في الورى ونـسألك اللهـم نـشر الهدايـةِ

علـى يـد أهـل العلـم بـك حقيقـة بفـضلك يـا مجيـب أجـب لـي دعـوةِ

بجاهـك يـا مـن لا جـاه فوقـه وهـو الـذي رحمـت بـه البريـةِ

وبجـاه كـل مـن كـان لـه تابعـا سـالكا ومجـذوبا علـى كـل حالـةِ

فـصَلِّ وسَـلمْ ثـم بـاركْ علـى الهـادي رحـيم بنـا فـي كـل هـول وشـدةِ

رؤوف رحـيم يطلـب العفـو دائمـا لأهـل نـور الإيمـان فـي كـل سـاعةِ

وحـاش حبيبنـا أن تـرده خائبـا فيـا سَـعْدَنا بـه علـى كـل حالـةِ

ونسألك الرضا عن الأهل والصحب وتـابعهم إلـى انتـشار القيامـةِ

شرح سيدي أحمد بن عجيبة لتائية
شيخه سيدي محمد البوزيدي

الحمد لله رب العالَمين، والصلاة والسلام على رسول الله خاتم النبيين وإمام المرسلين، ورضي الله تعالَى عن أصحابه أجمعين.

وبعد، فهذا شرح لطيف متوسط على **قصيدة شيخنا** العارف الربانِي، الفرد الصمدانِي، سيدي محمد البوزيدي الحسنِي، مضمنها شرح الخمرة الأزلية وما يوصل إليها من آداب العبودية وهي **من بحر الطويل، غير أنّها مكسورة ملحونة لأن ناظمها أمي في صناعة العربية والميزان، لم يعرف مبتدأ ولا خبراً ولا فاعلاً ولا مفعولاً قال: (ما جلست قط مجلس علم)، فما عنده إلا علم لدنّي**، والمقصود من الكلام اقتطاف المعانِي لا زخرف الأوانِي، إلا أنه إذا حسنت الأوانِي والمعانِي قبله العام والخاص، وإذا حسنت المعانِي دون الأوانِي قبله الخاص دون العام، وإذا لم يحسن الأوانِي ولا المعانِي لم يقبلها خاص ولا عام.

ولنقدم بين يدي الكلام التعريف بالناظم فنقول والله المستعان: هو شيخنا الإمام العارف الربانِي قدوة السالكين ومنار الواصلين سيدي محمد بن أحمد البوزيدي السلمانِي الشريف الحسنِي. أخذ أولا في تجويد القرآن، ثم تجرد للسياحة والعبادة سنين، فلقي بعض الصالحين فقال له: حاجتك بفاس عند مولاي العربِي الدرقاوي، فقصده وأخذ عنه وبقي في خدمته وتحت تربيته نحو ستّ عشرة سنة ثم أطلقه من الحجر وأمره بالتربية وشهد له بالخلافة، وقد سَمعت منه مراراً يقول: هو خليفتِي حيًّا وميتاً، وكتب رسالة في شأنه ينوه بقدره ويحض على تعظيمه ومعرفة قدره ونصها[1]:...... وكتب أيضا رسالة أخرى في شأنه ونصها[1]:........ وله أيضا رسالة أخرى[1] قال في أولِها بعد الحمد لله والتصلية: اعلم يا أخي أن الله قد أعطاك عطاء

(1) انظر نص الرسائل الثلاث في الصفحات 24/23/22.

كبيرا، فقهك في طريق أوليائه، وجعلك من ورثة أنبيائه صلوات الله عليهم أجمعين فاشكره - إلَى أن قال في آخرها- وقد أحببنا بحب الله سيدي محمد بوزيدي أن يتهيأ لزيارة والدته وأهله وأن يكون على بصيرة في القدوم على أهله ليقيم بِها يذكر عباد الله، والله يا سيدي محمد بن أحمد ما علمت حاجة بقيت لك عندي ولا عند غيري ولنا عندك حوائج، بارك الله فيك وفي حوائجك إلَى يوم القيامة، وقال في وسطها: واعلم يا سيدي أن الله علمك علماً لدنيًا إلَى يوم القيامة وعلَّم أولادك وأحبابك وأهل وقتك على يدك وعلى يد أولادك وأولادهم وأولاد أولادهم إلى يوم القيامة. انتهى المقصود منها.

ولقد شهد له بالفردانية فقال: مقام سيدي محمد بوزيد مقام الأفراد، والفرد أكمل من القطب في العلم بالله كما لابن عربِي الحاتِمي، هكذا سَمعته من شيخه فِي بنِي زروال. وله كرامات تركنا ذكرها خشية الإطالة، مع أن طريق المحققين لا يلتفتون إلَى الكرامات الحسية إنّما المعتبر عندهم الكرامات المعنوية كتحقيق المشاهدة وتَمام الاستقامة كما قال الشاذلِي رضي الله عنهم أجمعين، ولقد كنت قلت في مدحه أبياتاً حين قدم من بر النصارى في تشييع ولد السلطان سلامة، ومرَّ عليه هول كبير في البحر ثُم سلمه الله، فلما قدم ذهبنا للقائه فأنشدت في الطريق هذه الأبيات:

بشرى لنا والْهنا بضوء نجم دنا ... من بعد ليل دجا في ظلمة الليالِي
فهذا فجر طلعْ والنور منه سطعْ ... والسر منه نبعْ يا منية الأمل
من شيخنا البوزيدي من نسل طه الْهادي ... يسقي ذوي الرُّشْد من خَمرة الأزل
يا فوز من قد وفا من بحر عذب صفا ... فكم عليلاً شفا من خمرة الزلل
فلذ به إن سَما بك المقام إلَى ... صفو الشراب بلا مزج ولا دخل

وهذا أول القصيدة:

أَيا مَنْ تَجَلَّى فِي بَهاء جَماله ... وسِرِّ كماله وعِزٍّ ورفْعَةِ

قلتُ: فِي بعض الأثر (كنتُ كنْزاً لَم أُعْرَف فأحببتُ أن أُعْرَف فخلقتُ الخلق لنُعرفَ بِهم) أو كما قال تعالَى. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ

وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ أي ليعرفون. فكان الحق جل جلاله في أزله ذاتاً خفية لطيفة كلف الْهواء بل أرق من الْهوى، لا نِهاية لأوليتها ولا لآخريتها ولا لِجهة علوها ولا لسُفلها بل جازت نِهاية كل علو وكل سفل وكل جهة من الجهات الأربع، لأنّها منَزهة عن الحصر، مقدسة عن الحدود، وهي في تلك الحال متصفة بأوصاف الكمال، متحلية بالجلال والجمال، مسمّاة بالأسماء الحسنَى، ولَما أراد الله أن يُعرف بتلك الذات المقدسة وأن يُظهر شيئاً من بَهاء حُسنها وجمالِها أو كمال جلالِها وكبريائها، أظهر قبضة من نوره اللطيف بِحيث كثُفَ ما كان لطيفاً منها وسَمَّى تلك القبضة محمدية وأضافها إلَى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فأول نور ظهرَ نورُه عليه السلام، فمنه انشقت أسرار الذات وانفلقت أنوار الصفات، فهو عليه الصلاة والسلام بذرة الوجود، منه امتدَّ الوجود بأسره، ثُم فَرَّعَ من تلك القبضة سائر التجليات الجمالية والجلالية من العرش إلَى الفرْش وما دخَل فيه وما خرَج عنه، وهذا معنَى قول الشيخ رضي الله عنه (أيا من تجلَّى فِي بَهاء جماله) أي متلبساً في بَهاء جماله، فالبهاء نِهاية الجمال وكماله، فكل جمال ظهر في هذه التجليات الحسية إنّما هو رشحة من رشحات جماله تعالَى، وكل كمال وعِز وارتفاع ظهر في هذا الوجود فإنّما هو أنْموذج من سِرّ كماله وعزته ورفعته وعُلوّ شأنه، كما قيل في الشطر الثانِي من البيت حيث قال (وسرّ كماله وعزّ ورفعة).

تنبيه: كما تَجلّى تعالَى بأوصاف الكمال والجمال تَجلّى بأضدادها في مظاهر التجليات الحسية، لأنه تعالَى تجلَّى بين الضدين في كل ما وقع به التجلي ليتحقق اسْمه الظاهر واسْمه الباطن واسْمه القادر واسْمه الحكيم، فَما مِنْ شيء وقَع به التجلي إلا وفيه حسٌّ ومعنى عبودية وربوبية، فالحس ظاهر وهو محل العبودية، والمعنَى باطن وهو محل الربوبية، فما مِنْ جلال ظاهر إلا وفيه جمال باطن، وما من جمال ظاهر إلا وفيه جلال باطن، فما مِنْ عزّ ظَهَر إلا ومعه ذل، وما مِنْ ذل ظهر إلا ومعه عز، وما من غنًى ظهَر إلا ومعه فقر، وما من فقر ظهر إلا ومعه غنًى، وهكذا الأشياء كامنة في أضدادها، وقد أشار إلَى هذا المعنَى شيخ شيوخنا رئيس البحرية وإمام أهل الخمرة الأزلية سيدي علي العمرانِي المكنّى بالْجَمَل رضي الله عنه حيث قال فِي كتابه: (انظر يا

أخي وتأملْ هذه الخمرة، كيف كَمُلتْ فيها الأوصاف، وتوفَّرتْ فيها الشروط، وكيف كمل نقصانُها كما كمل كمالُها. سبحان من أظهرها بالكمال في النقص والكمال، حتّى صار الكل كمالاً، ولا نقص، فانظر يا أخي ما أقربَها في بُعْدها، وما أبعدها في قربِها، وما أرفعها في سفلها، وما أوضعها في عُلوها، وما أكبرها في صغرها، وما أصغرها في كبرها، وما أقواها في ضعفها، وما أضعفها في قوتِها، وما أغناها في فقرها، وما أفقرها في غناها، وما أعزها في ذلّها، وما أذلّها في عزها، وما أعظم قدرتها على نفسها، وما أعجزها عن نفسها في قدرتِها) إلَى آخر كلامه رضي الله عنه، انظر بقيته فيه.

ولَما تَجلى تعالَى باسْمه الظاهر فأظهر الأشياء ليُعرَف بِها، تَجلى فيها باسْمه الباطن فأخفاها بعد ظهورها كما أبان ذلك الشيخ رضي الله عنه بقوله:

تجَليْتَ بأسرار سرك ظاهراً   وأخفيتَها بعد الظهور لِحكمةِ

أي تَجليتَ ظاهراً بأسرار ذاتك وهو السِّر الذي كان كنْزاً مَخْفيّاً وسرّاً لطيفاً حتّى صار ظاهراً، ثُم أخفيته بعد ذلك الظهور لِحكمة بديعة وهي صَوْن السر الإلَهي ليبقى السر مَصوناً والكنْز مدفوناً، ولو وقع به التجلي ظاهراً دون بطون لامتهن السر وابتذل وخرج إلَى حَيز الإظهار، ونودي عليه بلسان الاشتهار، ولَم تبق مزية للعارفين، ولبطلتْ مزية الإيمان بالغيب، وأيضاً يتعطل كثير من أسْمائه تعالَى كاسْمه الحكيم والقاهر والْمنتقم واسْمه الرحيم والكريم وغير ذلك من الأسْماء الجلالية والجمالية، إذ لا يظهر أثر هذه الأسْماء إلا في قوالب العبودية الحسية التِي هي مَحل تصرفات الأقدار الجلالية والجمالية.

والحاصل أن أسرار الذات وهي المعبَّر عنها عند القوم بالخمرة الأزلية، ويعبرون عنها بالْمعانِي تَجلتْ في قوالب الأوانِي الحسية، فإذا حصلت المعرفة وصَفَتِ الفكرة والنظرة تلطَّفتْ تلك الأوانِي وصارتْ عَيْنَ المعانِي، وفي ذلك يقول الششتري رضي الله عنه في بعض أزْجاله:

إن نطقي مِنْ خَلْفِ ذاك الأوانِي   وأنا دائماً كل الأوانِي أوانِي

وقال أيضاً:

لا تنْظُرْ إلَى الأوانِي

وخُضْ بَحْرَ الْمعانِي

لعلك ترانِي

فالقوالب الحسية رداء للمعانِي الأزلية، فالحس من حيث هُوَ رداءٌ للمعنَى، فإذا أراد الحق تعالَى أن يتجلى لعباده في الدنيا أو في الآخرة رفع عنهم رداء الحس، فأشرقتْ عليهم أسرار الْمعانِي من خلْف الأوانِي، وهذا معنَى قوله عليه السلام في الحديث الصحيح في أهل الجنة (وما بيْنَ الناس وبين أن ينظروا إلَى ربّهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فِي جنة عدْن)، فتتلطَّفُ الأوانِي وتبقى أسرار الْمعانِي، فيشاهدون الذات الْمقدسة في كل شيء ومع كل شيء وقبْلَ كل شيء وبعْد كل شيء، ولا يشهدون سواها، هذا في حق الخاصة من العارفين. وأما العامة فيتجلّى لَهم بنور جَماله ويُلهمهم الْمعرفة فيه، والله تعالَى أعلم، وإلَى هذا الْمعنَى أشار الشيخ رضي الله عنه:

وأبْهمتَ أمرها على الخلق جملة سوى عارفٍ صفيٍّ من كل علةِ

له بالمعانِي عِلْمٌ يدريها كيف ما تَجلَّى بَهاؤها على كل هيئةِ

مَحَوْتَ سواك عنه مَحْواً مؤبداً وعاينَ حضرة المعانِي القديمةِ

بأنوار علمها بدتْ لفؤاده وبضوء حالِها رأتْها السريرةِ

لَها إدراك الكمال خُصَّتْ بسره من بين أسرار الخلق فازت بعزةِ

يقول رضي الله عنه: وأبْهمْتَ تلك الأسرار التِي تَجليت بِها على الخلق كافة، وذلك بِما ألْقَى عليها من أوصاف البشرية وأحكام العبودية، فبَطنَتْ تلك الأسرار بعد ظهورها، واحتجَبتْ بعد سُطوع شُموسها، وإلَى هذا الْمعنَى أشار الشاعر بقوله:

لقد ظهرتْ فما تَخفى على أحدٍ إلا على أكمهٍ لا يُبْصِرُ القَمرَ

لكنْ بطنَتْ بِما ظهرتْ مُحْتجِباً وكيف يُبْصَرُ مَنْ بالعزة اسْتترَ

ونُسْخَةُ (يبْصَرُ) أحْسن من نسخة (يعرف)، لأن المعرفة حصلت للعارفين بعد إظهار هذه الأشياء الحاجبة للمعانِي، كما قال الشيخ رضي الله عنه (سوى عارفٍ صفيٍّ

من كل علة)، فمَنْ صفا قلبه من العِلل شاهد أسرار الكبير الْمتعال.

يحصل له علم بالْمعانِي القائمة بالأوانِي فيَدْريها كيفما تَجلّى بَهاؤها، ويَدُورُ معها كيف دار جمالُها وجلالُها، على كل هيئة من جلال وجمال وقبض وبسط وعز وذل وفقر وغنًى، ومع كل صورة جلالية وجمالية، جامدة وحيوانية، فيتأدب مع الله في كل شيء، ويحصل له التعظيم لكل شيء، لأنه امتحى عن سره رؤية السوى مَحواً مؤبداً، فلو كُلفَ أن يرى غيره لَم يستطع، وعايَنَ حضرة الْمعانِي الأزلية، وغابت عنه الأكوان الحديثة، قد بدَتْ لفؤاده بأنوار علمها أولاً، ولَما جاهد نفسه خرق عوائدها، وصار ذلك العلم ذوقاً وحالاً، أشرق ضياؤُها على روحه وسره، فَرَأتْها السريرة وتنَزّهت فِي نَهار تَجليها البصيرة، فحصل لَها حينئذ كمال الإدراك، وتصرَّفت بِهمتها في سائر الأملاك، وخُصَّتْ بسرّ كبير من بين أسرار الخلق، ففازتْ بعز مؤبد وغنًى مُسرمَد، فيقال لَها حينئذ:

لك الدهرُ طَوْعٌ والأنامُ عبيدُ فَعِشْ كُل يوم من أيامك عيدُ

ثُم ذكر الأمر الذي حجب الناس عن شهود تلك الأسرار فقال:

فلولا دَنِيُّ الوصف ألبستْ نفسها لما احتجبتْ عنها أسرار العليةِ
فحُسْنُكَ ظاهر ولكن لِجهلها خفَا سره وهو في أقوى شدةِ
فصَوَّرَ وهْمُها الوجودَ ولَم يكن وما كان هذا قبْلُ إلا لعِلةِ
فلوْ دَرتْ حُسْنَه في كل آنية لَما الْتفتتْ للبعض منه بنظرةِ

يقول رضي الله عنه: فلولا أن الروح ألْبسَتْ نفسَها الأوصاف الدنية كحب الدنيا والرياسة والجاه وسائر الأوصاف الدنية المذكورة في كتب القوم لَما احتجبتْ عنها تلك الأسرار العلية والعلوم اللدنية، فما حَجَبَ الناس عن شهود الحق إلا وقوفهم مع الأوصاف البشرية وتَخلقهم بالأوصاف البهيمية أو الشيطانية، فلو تطهَّروا منها وتَخلقوا بأخلاق الروحانيين كالزهد والورع والتواضع والعفة والسماحة والسخاء والجود والحلم والرزانة والطمأنينة وغير ذلك من الكمالات التِي هي أخلاق الروحانيين لأشرقتْ عليهم الأسرار الربانية وفاضت عليهم العلوم اللدنية، وإلَى ذلك أشار في الحِكَم بقوله[1]: (أخرجْ من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض

(1) أي أشار سيدي ابن عطاء الله فِي حِكَمه.

لعبوديتك، لتكون لنداء الحق مُجيباً، ومِنْ حضرته قريباً) ثُم قال متصلاً بِها: (الحق ليس بِمحجوب عنك، إنّما المحجوب أنت عن النظر إليه) الخ، فكأنه يقول: إذا خرجتَ من أوصاف بشريتك حصل لك شهود الحق، لأنه ليس بِمحجوب عنك، إنّما المحجوب أنت بشهود أوصاف بشريتك، فلو خرجْتَ عنها لرأيتَ الحق عياناً، فحُسْنُ الحق وبَهاؤه ظاهر، وأسرار ذاته وأنوار صفاته واضحة، ولكن لِجهل الناس واحتجابِها بعُكوفها على هواها وتلطخها بأوصافها الدنية، احتجب عنها السر وهو في أقوى شدة الظهور، بل ما ظهَرَ غيره ولا وُجِدَ سواه، وقد أشرتُ إلَى هذا في تائيتِي الخمرية فقلت:

تَجَلَّتْ عروساً فِي مرائي جَمالِها ... وأَرْخَتْ سُتورَ الكبرياء لِعزَّةِ

ثُم إن النفس لَما احتجبت عن شهود الْحق صَوَّرَ وهمُها وجهلها وجودَ السوى ولَم يكن شيئاً، بل كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان، وما كان لَها هذا الأمر قبل دخولِها في عالَم الأشباح، بل كانت عالِمة عارفة بالله درَّاكة للأشياء على ما هي عليه، لكن لِعلةٍ دخَلتْها بعد التركيب فنَسِيَتْ تلك العلوم وجهلت تلك الأسرار التِي كانت لَها قَبْل، فمَن سقط على الطبيب وجاهدها حق جهادها رجعتْ لأصلها وحصل لَها الإدراك الذي كان لَها قبل التركيب، فلو دَرَتْ أي علمَت حسنه تعالَى في كل آنية من الأوانِي الحاملة للمعانِي لَما التفتتْ لبعض الأوانِي الحسية بالعشق والْمحبة والْميل، حتّى غابت عن شهود أسرار الْمعانِي الأزلية.

والْمعنَى: لو عرفتِ الله تعالَى في كل شيء لَما التفتتْ لشيء سواه بنظرة ولا مَحبة ولا ميل ولا ركون، بل تغيب عن حس الأشياء جملة. قال بعض المفسرين في قصة داوود عليه السلام في المرأة التِي أعجبته فأمَر زوجَها فنَزَل عنها فتزوجها: إنّما عاتبه الله تعالَى لأنه التفت إلَى الجمال الحسي في مظاهر الفرق عن الجمال المعنوي في مقام الجمع، وهو مقام تفرقة لا مقام جمْع، فاستغفر ورجع إلَى شهود الجمال المعنوي جمعاً فخلع عليه خلعة الخلافة.

ثُم ظهر كيفية ظهور تَجلياته تعالَى، فقال:

فكل جمال من جمالك أُبْرِزَ ... على ترتيب المراد في كل ساعةِ

ولما أردْتَ للعِيان بُرُوزَهُ ... تجليْتَ بالكمال في كل وجهةِ

تجَلَيْتَ حكمة وهذا عالَمُها ... وسِرُّك قد بَدا بألطف حكمةِ

فقلتَ لنفسِك لأعظم سِرّكَ ... لِمَا شئتَ كنْ يبدو في أسرع لَمْحةِ

فهي طوْعُ المراد منك حقيقةً ... وكل مراد يُقْضَى بعد الإرادةِ

يقول رضي الله عنه: فكل جَمالٍ من جَمال ذاتك أُبْرِزَ للعيان حِسّياً كان أو معنوياً، ذاتياً أو فِعْلِيّاً، إنّما ظهر على ترتيب مرادك وسابق مشيئتك في كل ساعة ولَحظة، فما شاء اللهُ كان، وما لَم يشأ لَم يكن. ما مِنْ نَفَسٍ تُبْديه إلا وله قدَرٌ فيك يمضِيه، فلا يظهر شيء في الوجود ذاتاً أو صفة أو فعلاً جمالاً أو جلالاً إلا وقد سبقتْ به الإرادة وخصَّصته الْمشيئة في أي وقت يكون وعلى أي شكل يقع وما يكون منه حالاً ومآلاً، وفِي الحِكَم: (إلَى المشيئة يَسْتنِد كل شيء، وليست تستند إلَى شيء)، وقال أيضاً: (جَلَّ حُكْمُ الأزل أن يُضاف إلَى العلل). ولَما أراد تعالَى بروزه للعيان، تَجلى بالكمال في كل شيء، فالأشياء حين تَبرز من عالَم الغيب إلَى عالَم الشهادة في غاية الإتقان والكمال، فلا نقْص فيها ولا خَلَل ولا بشاعة ولا دَخَل، وإلَى ذلك أشار الجيلانِي رضي الله عنه في عينيته حيث قال:

وكُلُّ قبيحٍ إنْ نَسَبْتَ لِحُسْنِه ... أتَتْكَ معانِي الْحُسْنِ فيه تُسارعُ

يُكَمِّلُ نُقْصانَ القبيحِ جَمالُه ... فما ثَمَّ نقصان ولا ثَم باشِعُ

ثُم إن الحق جل جلاله تَجلى بين قدرة وحكمة، القدرة باطنة، والحكمة ظاهرة بِها وقع الاحتجاب والتستر لأسرار الذات، لأن هذا العالَم الدنيوي عالَم الحكمة وليس هو عالَم القدرة، لتظهر مزية الإيمان بالغيب، وليتحقق سَيْر السائرين إلَى شهود عالَم القدرة، بِخرق عوائد نفوسهم لتخرق لَهم عوائد التجليات، بِخلاف عالَم الآخرة فإنّها عالَم القدرة فتظهر فيها القدرة وتبطن فيها الحكمة، ولذلك تظهر فيها الخوارق للخاص والعام، لأنّها عالَم التصريف لا عالَم التكليف.

وسِرُّ الحق قد بدَى في كل مظهر من مظاهر الحس، إلا أنه اختفى بألطف حكمة، وهي بتشكيل ذلك السر وتطويره بأشكال مختلفة وأطوار متلونة، فتعددتْ أسْماؤه بتعدد أشكاله وألوانه، وفي ذلك يقول الجيلانِي رضي الله عنه:

تَجلَّى حبيبِي فِي مرائِي جَمالِه ... ففِي كل مرْأىً للحبيب طَلائعُ

فلما تَجلى حسنُه مُتنوِّعاً ... تَسمَّى بأسْماء فهي مَطالِعُ

فما ظَهَرَ في عالَم الشهادة إلا بَهاؤه وحُسن جماله، وقد أشرتُ إلَى هذا في تائيتِي الخمرية فقلت:

فما ظَهَرَ فِي الكونِ غيْرُ بَهائها ... وما احتجبتْ إلا لِحجب سريرة

وقال ابن الفارض في خمريته:

وقامتْ بِها الأشياء ثَمَّ لِحكمةٍ ... بِها احتجَبتْ عنْ كُلِّ مَنْ لا لهُ فَهْمُ

وبالجملة، فقد ظهر الحق تعالَى في غاية الظهور لأهل العلم به، واختفى وبطن في غاية البطون لأهل الجهل به، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾. ولَما أراد الحق تعالَى أن يتجلى بنفسه لنفسه قال لسرِّه الأعظم كُنْ، فكان أسرع من لَمحة العين، فلو أراد الحق تعالَى أن يخلق ألْفَ عالَم لظهرتْ أسرع من لَمحة، ولو أراد أن يُفنِيَ ألْف عالَم لذابتْ أقرب من لَمحة العيْن، فلا يتوقف أمره على لفظ كُنْ، بل ينفذ مراده من غير احتياج للفظ كُنْ، وإنّما وقع التعبير بِ كُنْ فيكُون، كناية عن سرعة النفوذ على ما يفهم الخلق، فالأشياء كلها طوْع يده وتابعة لِمراده حقيقة، فلا يقع في مُلْكه إلا ما يريد، فكل مُرادٍ يُقضى بعد الإرادة، لأن القدرة تابعة للإرادة، فالإرادة تخصّص، والقدرة تُبرز على ما سبَقَ في علمه وقدَره، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾، والله تعالَى أعلم.

ثُم قال رضي الله عنه تَتميماً لكيفية تَجليه فقال:

تَنَزلتِ الأسرارُ من بَحْر سرك ... فأجْرى عليها منك حُكْمُ الكثافةِ

وبدا ظلال السر في الحس جهرة ... وهي التِي كانت عليه أدلةِ

يقول رضي الله عنه: تَنَزّلت الأسرار أي أسرار الذات مِنْ بَحْر سرّك اللطيف الجبروتِي، فتكثَّفتْ وتَحسَّستْ ثُم جرى عليها حكم الكثافة وهو التكليف وأنواع التصريف، لأن التكليف وتصاريف الأقدار إنّما تَجري على حس الأوانِي، وأما الْمعانِي فمُنَزّهة عن ذلك، فأسرار الْمعانِي بادية جهراً خلْفَ حس الأوانِي، كظلال الأشخاص

فِي المرآة الصافية، والأوانِي هي التِي كانت أدلة على أسرار الْمعانِي، فعامة الناس يستدلون بالأوانِي على الْمعانِي، فيستدلون بالكون على الْمُكوِّن، وخاصة الناس يستدلون بالْمعانِي على الأوانِي، فلا يرون إلا الْمعانِي، ويستدلون بالحق على الخلق، فلا يرون إلا الحق. شتّان بين من يستدل به أو يستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله فأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمَتَى غاب حتّى يُستدل عليه، ومتَى بَعُدَ حتّى تكون الآثار هي التِي توصل إليه، كما قال فِي الحِكَم[1].

تنبيه: شبَّه الناظم رضي الله عنه الأسرار بالظلال، والحسَّ بالْمرآة أو بالْماء الصافِي، وعكس غيره فشبَّه الكائنات بالظلال والْمعانِي بالأشخاص الثابتة، لأن الظلال وجودها خيالِي وهمِي لا حقيقة له، كذلك الكائنات وجودها وهمي لا حقيقي عند الْمحققين. قال في لطائف الْمنن[2]: وأشبه شيء بالكائنات وجود الظلال، فإنّها لا موجودة ولا معدومة، ثُم قال: وظلال الأشجار في البحار لا تَمنع السفن من التِّسيار. انتهى بالْمعنَى. أي فكذلك ثبوت الكائنات لا تَمنع سفن الأفكار من الجولان في بِحار الأسرار والأنوار من الجبروت والملكوت، فتأمَّل.

ثُم أخبرنِي الناظم أنه أراد بظلال السر الكائنات، ليكون موافقاً لِما ذكر ابن عطاء الله، والله تعالَى أعلم.

ثُم ذكر تَخصيص الصورة الآدمية بأسرار لَم تكن لغيرها فقال:

وصورةٌ في الظهور طوَتْ جميعَه	كما طوى سِرُّها معانِي الحقيقةِ
وللروح أكبرُ العقول تنَزُّلُ	وبأكبر العقول صارتْ كبيرةِ
ومِنْ أرباب الأذواق نالتْ علومَها	وهاجتْ فهومُها وصارت عاليةِ
ودَرتْ ما لَم تدره قبل فنائها	ومنها بدت لَها الأسرار الغريبةِ

(1) أي قال سيدي ابن عطاء الله فِي حكَمه.

(2) أي قال سيدي ابن عطاء الله فِي كتابه "لطائف الْمِنَن، فِي مناقب الشيخ أبِي العباس المرسي وشيخه الشاذلِي أبِي الحسن".

طُوِيَتْ فِي شكلها الأشكالُ جميعها وإن كانت في التجلي ما له نِهايةِ

فسِرُّها قد أحاط بالأشياء جملةً وإن كانت بالجسم الأشياءُ محيطةِ

يقول رضي الله عنه: وبدَتْ في عالَم الظهور صورة، وهي الصورة الآدمية طوَتْ مِن جهة حسِّها جميع الكائنات مِنْ عرْشها إلَى فرشها، ومن جهة معناها جميع الْمعانِي والحقائق الوجودية، فهي جامعة لأسرار الكائنات حسّاً ومعنًى، وفِي ذلك يقول الجيلانِي رضي الله عنه فِي عينيته:

ونفْسُك تَحْوِي بالْحقيقة كلِّها أشَرْتُ بِجِدِّ القولِ ما أنا خادعُ

وقد قال الشيخ أبو العباس الْمرسي رضي الله عنه:

يا تائهاً فِي مَهْمَهٍ عنْ سِرِّه انْظُرْ تَجِدْ فيك الوجودَ بأسْره

أنت الكمالُ طريقةً وحقيقةً يا جامعاً سِرَّ الإله بأسْره

وقال فِي المباحث[1]:

اعْقِلْ فأنت نُسخةُ الوجودِ لله ما أعلاكَ مِنْ موجودِ

ألَيسَ فيك العرشُ والكرسيُّ والعالَم العُلْويُّ والسُّفْلِيُّ

ومثال ذلك في الشاهد: الناموسة مع الفيل، فكلُّ ما فِي الفيل في الناموسة، وزادتْ عليه بالجناح، وكذلك كل ما فِي الوجود فِي الآدمي، وزاد عليه بالعقل والمعرفة، وما شرفت الصورة الآدمية إلا بالروح لأنّها قطعة من الروح الأعظم الذي انفصل أن تَجلَّى من السر الأكبر وهو بَحر الألوهية، ولَها عقْل كبير مقتبس من العقل الأكبر، وبذلك صارت كبيرة المقدار عظيمة الشأن، هذا إنْ وجدتْ من يصفيها ويردّها لأصلها وهم أرباب الأذواق من العارفين بالله، فما نالت علومها وأسرارها الأصلية إلا بصحبتهم، وما هاجت فهومُها وصارت عالية القدر إلا بِخدمتهم، وما دَرَتْ ما لَم تدره قبل فنائها إلا بتعليمهم ومذاكرتِهم، فمِنْ ذلك بَدَتْ لَها الأسرار الغريبة والعلوم اللدنية، وإلا بَقِيَتْ جاهلة تائهة، كياقوتة رُمِيَتْ فِي الْمزابل، فقد طوى الْحق تعالَى فِي هذه

(1) أي قال سيدي ابن البَنا السرقسطي في كتابه "المباحث الأصلية"، وقد شرحها سيدي أحمد بن عجيبة واسْمُ شرْحه "الفيوضات الإلَهية فِي شرح المباحث الأصلية".

الصورة الآدمية جَميع الأشكال، هذا من جهة حسّها الناسوتِي، وأما من جهة معناها اللاهوتِي فلا نِهاية له، لأنّها متصلة ببحر الجبروت الذي لا نِهاية له، لأن الْمتجلي بِها لا نِهاية له، والبعض هو الكل، بِسِرّها الباطِنِي قد أحاط بالأشياء كلها، وهو خارج عن دائرة الأكوان، لَم يَسَعْهُ عرش ولا كرسي ولا أرض ولا سَماء، وإن كانت من جهة الجسم الأشياءُ مُحيطة بِها، فمِنْ جهة الروح المتصلة بِبحر الْمحيط الْجبروتِي لَم يسعْها. قال فِي الْحِكَم: (وَسِعَكَ الكونُ من حيث جثمانيتك، ولَم يسعْك من حيث ثبوت روحانيتك)، وبالنظر لِهذا الْمعنَى قال بعضهم: (العرش والكرسي مُنْدَقّان فِي ترسي)، وقال آخر: (العرش والكرسي فِي زاوية من زوايا قلب العارف)، وقيل فِي قلب العارف هو عرش الرحْمن لأنه مَحل أسرار الذات والصفات، والله تعالَى أعلم.

ثُم ذكر الْموانع التِي تَمنع الروح من مشاهدة هذا السر العظيم، فقال:

فلو زال وصْفُها لزالت حُجوبُها ... ولبَدَتْ شَمسُها بنُورٍ مضيئةِ

ولانْكشفَ لسِرِّ صاحبِ سرِّها ... حقائقُ أسرار الوجود الخفيةِ

ولكانَ كل الكون عند مراده ... يُقَلبه حقّاً في أسرع لحظةِ

ولدَرَى سر المعنَى في كل مظهر ... ولبدى وجه السر في كل وجهةِ

ولأيقن منه الفؤاد بذاتِها ... وأنّها وحدة من غير ثَنِيَّةِ

فمِنْ سرِّ السر سرُّه بدا جهرة ... بذلك كانت كل الأشْيَا خَديمةِ

يقول رضي الله عنه: فلو زال عن النفس وصفها الدّنِي كالكبر والحسد وحب الدنيا والرضا عن النفس لزالتْ حُجبها الوهمية، ولأشرَقتْ عليها شُموس العرفان بنور معرفة العيان، فتضيء له سائر الأكوان. قال فِي التنوي[1]: (فلو ارتفع حجاب الوهم لَوَقَعَ العيان على فقد الأعيان، ولأشرَق نور الإيقان فغَطى وجود الأكوان)، ولانكشف أيضاً لسر صاحبها حقائق أسرار الوجود الخفية، فيعرف أصله وفرعه، وما السر في إظهاره، ويشاهد الله في جميع جزئياته، ويكون الكون كله عند مراده يتصرف فيه بِهمته، ينبسط ببسطه، وينقبض بقبضه، ويقلبه كيف شاء في أدنَى لَحظة، يعنِي يُدَوِّرُه بفكرته من

(1) أي قال سيدي ابن عطاء الله فِي كتابه "التنوير فِي إسقاط التدبير".

عرشه إلَى فرْشه فِي لَمحة، ويُذيبه حتّى يصير كالسراب في لَحظة، وفي الحِكَم[1]: (أنت مع الأكوان ما لَم تَشْهد الْمُكَوِّن، فإذا شهدته كانت الأكوان معك) أي تشتاق إليك وتعشقك وأنت غنِي عنها، وفِي الخَبر (اشتاقت الجنة إلَى علي وصُهَيب وبلال وعَمار) الحديث.

لَما ارتفعت همتهم إلَى الله، اشتاقت الأشياء إليهم وكانت معهم بالمحبة والخدمة، وقد تطاوعهم الأشياء وتتذلل إليهم كتذلل السباع وسائر الحيوانات وتسخير الطيور ونَبْع الْماء وإتيان الطعام، وغير ذلك من الكرامات، إلا أن هذا الأمر لا يختص بالعارف، فقد يكون لغيره من أهل الرياضات ولا يطرد لصاحبه، وقد لا يرى العارف شيئاً من ذلك لغناه عن طلبه والتشوق إليه. ربّما ظهرت الكرامة على من لَم تكمل له الاستقامة، وليس كل من ثبت تخصيصه كَمُلَ تخليصه، وسيأتِي الكلام على الكرامات في مَحله إن شاء الله.

ولو انكشف الحجاب أيضاً عن القلب لدَرى أي علِم سر الْمعنَى في كل مظهر من مظاهر الوجود، ولبدَى له وجْه السر في كل وجهة من وجوه التجليات، فيرى الله في كل شيء ومع كل شيء وقبل كل شيء وبعد كل شيء، قال بعضهم: (ما رأيت شيئاً إلا رأيتُ الله فيه) وذكر بعضهم حديثاً وهو ضعيف.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: في بعض كتب الله الْمنَزَّلة على أنبيائه: مَن أطاعنِي في كل شيء بِهجرانه لكل شيء أطعتُه في كل شيء بأن أتجلى له دون كل شيء حتّى يرانِي أقرب من كل شيء. هذا طريق أولَى وهي طريق السالكين، وطريق أخرى كبيرة: من أطاعنِي في كل شيء بإقباله عليَّ في كل شيء لِحُسْن إرادة مولاه في كل شيء أطعتُه في كل شيء بأن أتجلى له في كل شيء حتّى يرانِي كأننِي كل شيء. فالأول مقام الفناء، والثانِي مقام البقاء.

ولو انكشف الحجاب أيضاً عن العبد لأيقن فؤاده بذات الحقيقة لشهودها عياناً ذوقاً وأنّها واحدة لا اثنينية معها ولا غيرية، بل الوجود كله ذات واحدة وبَحر متصل،

(1) أي حِكَم سيدي ابن عطاء الله.

ولله در القائل:

هــذا الوجــود وإنْ تعــدَّد ظــاهراً وحيـــاتِكمْ مـــا فيـــه إلا أنْـــتمُ

فمن عرف هذا كان عارفاً بالله قد بدى سرُّه جهرة، مقتبساً من سر السر وهو بحر الجبروت الأعظم، فيكون خليفة الله في أرضه، فتكون الأشياء عند أمره ونَهيه، كما في الحديث (من أطاع الله أطاعه كل شيء)، ومن خاف الله خاف منه كل شيء الخ، وقد أشرتُ إلَى هذا المعنَى في تائيتِي الخمرية فقلت:

فيـا فـوْزَ مَـنْ أضْـحى لَهـا مُتَـضلِّعاً علـى عـدد الأنفـاس فِي كـل وجهـةِ

هنيئـــاً لـــه فـــالأمرُ عنـــد مـــراده وعَبْـد يـصير الـدهرُ فِـي كـل خدمـة

والله تعالَى أعلم.

ثُم ضرب مثلاً للسر الكنْزي الذي تَجلت الأنوار منه، فقال:

فنقطـة الـسر بَحْـرٌ والحـرْفُ بَرُّهـا ومِـنْ حرْفِها الحـروف بـدتْ لِحكمـةِ

وبـــالنُّقْط والأشـــكال زادتْ تبيُّنـــاً لِمـــن لـــه علـــمٌ بالْمعـــانِي القديمـــةِ

وقـد بـدتْ جهـرةً مـن بعـد اسـتتارها وراءَ لامَـــيْنِ للظهـــور مُـــشيرةِ

وبـالنُّطْق بِهـا تـدري إنْ كنـت فاهمـا وفيهـا انتهـتْ رُيَّـاسُ بحْـر الحقيقـةِ

قلت: شبَّه رضي الله عنه بَحر الجبروت الكنْزي المطلْسَم قبل التجلي بالنقطة، لأنّها مطلسَمة مُبْهمَة، وشبَّه الفروع المتجلية منها بِحروف الْمُعْجَم إلا أنّها ظهرتْ أولاً خطّاً مَمدوداً كالألِف الْمبسوط ثُم تفتَّقتْ منه سائر الحروف، كذلك السر الكنْزي كان بَحراً طامثاً خفِيّاً مطلسَماً ثُم تفرعت منه الكائنات، هذا معنَى قوله: فنقطة السر بَحرٌ الخ. ثُم زادت تلك الحروف بالنقط والأشكال بياناً وظهوراً، ليفهم منها المعنَى، كذلك نور القبضة زاد بتفرّعه ظهوراً وتعريفاً لأسرر المعانِي اللطيفة، فكلُّ ما برز من الغيب إلَى الشهادة فهو تعريف وإيضاح للحضرة الأزلية، فالتجليات العظام كالعرش والكرسي والسماوات والأرض حروفٌ ورسوم، والتجليات الصغار كالملائكة وسائر الحيوانات كالأشكال والنقوط لتلك الحروف، فهذا معنَى قوله (والنقط والأشكال زادتْ تبيناً) أي بياناً ووضوحاً لِمن له علم بالمعانِي القديمة، ومن لا علم له

يستدل بِها على وجود صانعها.

وقوله (وقد بدت جهرة) أي وقد ظهرت الأسرار جهرة بعد استتارها في بَحر الكنْزية، وقوله (وراء لاميْن) الخ، يشير إلَى الْهاء من الله، فإذا فصلتَها من اللاميْن صارتْ هُو، فتشير إلَى الْهوية الحقيقية، لأن الأشياء التِي كانت مستترةً صارت ظاهرة، يشار إليها بِـ "هُوَ"، فما ثَم إلا هُوَ، فَهُو عند أهل الفناء اسمٌ لا ضمير، مِنَ الْهوية فهو علَمٌ على حقيقة الذات. قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي في شرح الحزب الكبير بعد نقْل كلام صاحب النوادر: (والحاصل أن الإشارة بِهُوَ مختصة بأهل الاستغراق والتحقق في الْهوية الحقيقية، فلِانطباقِ بَحر الأحدية عليهم وانكشاف الوجود الحقيقي لديهم، فقدوا من يشار إليه بِهُوَ إلا هُوَ، لأن المشار إليه لَما كان واحداً، كانت الإشارة إليه مطلقاً، لا تكون إلا إليه، لفقد ما سواه في شعورهم، لفنائهم عن الرسوم البشرية بالكلية، وغيْبتهم عن وجودهم وإحساسهم وأوصافهم الكلية، وذلك غاية في التوحيد والإعظام، منَحنا الله ذلك على الدوام).

قال القشيري في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾: (يقال: كاشَفَ تعالَى الأسرار بقوله هُوَ، والأرواح بقوله الله، وكاشَف القلوب بقوله أحَدٌ، وكاشف نفوس المؤمنين بباقي السورة. ويقال: كاشَفَ الوالِهين بقوله هُوَ، والموحدين بقوله الله، والعارفين بقوله أحدٌ، والعلماء بالباقي) ثم قال: (خاطب الذين هم خاص الخاص بقوله هُوَ فاستقلّوا، ثُم خاطب الخواص بقوله الله فاستقلوا، ثُم زاد في البيان لِمن نزَل عنهم فقال أحدٌ، ثُم لِمن نزَل عنهم بالصمد، وهكذا).

وقوله (وبالنطق بِها) أي بِهُوَ تدري حقيقة الأمر، وأنه لا موجود إلا هو، فتقول هو فلا تَرى إلا هو إن كنت عارفاً فاهماً. (وفيها) أي في وحدة الذات الحقيقية، (انتهت رُيَّاس بحر الحقيقة) وهم العارفون بالله السابحون بسُفُن أفكارهم في بِحار الأحدية، جعلنا الله من خواصهم بِمنه وكرمه.

ثُم ذكر مقام أهل الفناء والبقاء فقال:

فواصِلٌ في بحْر الأولَى غاصَ فِكْرُهُ وكامِلٌ زاد فِي المعانِي الجليةِ

ظَهَرْتَ له ظهوراً في كل مَظهَر ... وليس على التحقيق سوى الحقيقةِ
أزالَتْ كلَّ الأكوان عند ظهورها ... ولَمْ تكنْ قبْلَ المَحْو إلا لِحكمةِ
بِها ثبت الإبعادُ للورى عامة ... توَهَّمَتْها غيرًا لِجَهْل الطريقةِ
فلو سَلَكُوا حَقّاً بَدَا لَهُمْ سرُّها ... وغاب جَميع الفَرْق فِي كل وجْهَةِ

يقول رضي الله عنه: فواصِلٌ إلَى الفناء في الذات قبل التمكن في بَحر الأولَى، أي النقطة الكنْزية الأصلية، غاصَ فكرُه فهامَ فِي بِحار الأحدية الأولية، وغاب عن الفروع الكونية، فهو غريق الأنوار مطموس الآثار، غَلَبَ سكرُه على صحوه وجمعُه على فرْقه وفناؤه على بقائه. وكاملٌ زاد لشهود المعانِي الجلية في عالَم حس الأوانِي، فهو يشاهد الذات والصفات والجمع والفرق والقدرة والحكمة في نظرة واحدة، فهو أكمل من الأول، غَيْرَ أن طريق الأول شرطٌ في تحقيق المقام الثانِي، فلا بد أن يحجب أولاً بالجمع عن الفرق وبالذات عن الصفات وبالمعنَى عن الحس، ليتحقق له مقام الفناء، ثُم يخرج منه إلَى البقاء، فمَنْ لا فناء له لا بقاء له، ومن لا سُكْر له لا صحْو له حقيقه، وقد غلط كثير من الناس ترامَوْا على المقام الثانِي دون تحقيق المقام الأول، إما لِجهل أو تقصير.

ثُم ذكر حال أهل الفناء والبقاء بقوله (ظَهَرْتَ له ظُهوراً) كاملاً (في كل مظهر) من مظاهر الذات، قال القطب ابن مشيش لأبِي الحسن الشاذلِي رضي الله عنهما: (يا أبا الحسن حَدِّدْ بصرَ الإيمان، تَجِدِ الله في كل شيء وعند كل شيء ومع كل شيء وقبل كل شيء وبعد كل شيء وفوق كل شيء وتحت كل شيء وقريباً من كل شيء ومحيطاً بكل شيء، بقُرْبٍ هو وصْفُه وبِحيطَةٍ هي نعتُه، وعُدّ عن الظرفية والحدود وعن الأماكن والجهات وعن الصحبة والقرب في المسافات وعن الدَّوْر بالمخلوقات، وامْحَقِ الكلَّ بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن، وهُوَ هُوَ هُوَ، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان). وليس على التحقيق سوى الحقيقة الذاتية، فإذا تجلت للقلوب والأرواح أزالتْ حسَّ الكائنات بأسرها، ولَم يكن للكائنات وجود قبل هذا التجلي، ولكن لِحكمة استتار السر ظَهَرَ حِسُّها ليتحقق اسْمه الباطن بعد تَحقق اسْمه الظاهر، وبظهور حسِّها الوهْمي ثبت البُعْد لعامة الناس ووقفوا مع حسها الظاهر

فتوهَّموا وجود السوى لِجهلهم بالطريقة المُوَصِّلة إلَى عين الحقيقة، ولو عرفوا طريق الوصول لسَلكوها حتّى تُمْتَحى من نظرهم الغيرية والاثنينية، وهذا معنَى قوله (فلو سلكوا حقّاً بدى لَهم سرّها) أي لو سلكوا طريق الوصول على أيدي أهل الوصول لبدى لَهم سرّها في كل شيء وغابت الفروقات كلها في وحدة الجمع، وبالله التوفيق.

ثُم قال رضي الله عنه:

ولو خَرَجَتْ عَمَّا به قد تَعَوَّدَتْ لَنالَتْ شفاءَ الروحِ مِنْ كُلِّ عِلَّةِ

ولَصَحَّ جِسْمُها السقيم من كل ما أصابَهُ من عشق الأمور العاديةِ

ولبَدَتْ شَمْسُ سرها في عالَمِها ولأوضحتْ معناهُ كل الإضاحةِ

يقول رضي الله عنه: فلو خرجت النفس عن كل ما تعودت به من الحظوظ النفسانية والشهوات الجسمانية والعوائق الشيطانية لنالَتْ شفاء الروح من كل علة، فتصفى الروح من جميع الأمراض وترجع لأصلها كما وقع بِها التجلي أولاً عارفة بِمولاها عاشقة له فانية فيه مقدسة مطهرة، فتصلح حينئذ لدخول الحضرة المقدسة، إذ لا يدخل حضرة القدس إلا المقدسون، وكما أن جنة المعارف لا يدخلها إلا المقدسون، كذلك جنة الزخارف لا يدخلها إلا المقدسون، فمَنْ تَقَدَّسَ هنا في دار الدنيا دخَلها بلا هوْل ولا حساب، ومن لَم يتقدس هنا ومات مريضاً روحه منجسة فلا بد أن يتقدس في المحشر لشدة الحَر فينصبّ عرقه حتّى تذهب علته ويزول نحاسه، فكل واحد يَمكث في المحشر على قدْر ما بقي فيه من المرض، فمنهم من يطول مكثه فيه، ومنهم من يقصر، على قدر علته وتَنَحُّس روحه، ومن عظمت علته وتوغل داؤه فلا يكفي فيه هَوْل الْمحشر وعَرقه فلا بد أن يدخل النار حتّى يذوب نُحاسه وتذهب علته، فيتطهر كما يتطهر الذهب أو الفضة بالنار، فحينئذ يصلح لدخول الجنة المطهرة الحسية، فإذا اتصل العبد بالطبيب الماهر وتطهَّر هنا من جميع العلل، كان من السبعين ألْفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب. وأما الكفار فأرواحهم برزت في التجلي الأول ظلمانية نارية، فلا يناسبها إلا النار أبداً، والله تعالَى أعلم.

ولوْ خَرَجَتْ أيضاً النفس عن عوائدها لَصَحَّ جسمُها من مرض عشق الأغيار

والفروقات الكونية، فإنه لَما ملكته العوائد صار أسيراً في يدها مَملوكاً تحت قهرها، قلبه مريض بالشكوك والأوهام، وجسمه مريض بالتعب والحرص وضروب الآلام، إذ جُل الأمراض إنّما هي من القلب، فإذا صحَّ القلب صَحَّتِ الجوارح كلها، وفي الحديث: (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب).

ولو خرجت النفس أيضاً عن عوائدها لبَدتْ شَمسُ سرها في عالَمها الحسي، فتشرق عليها شَمس العرفان، ويغيب عنها شهود الأكوان، ولظهرتِ المعانِي من خلف الأوانِي ظهوراً كاملاً تامّاً، فما حَجَبَ الناس عن شهود الأسرار إلا الوقوف مع العوائد والأغيار، كحُب الدنيا وحب الجاه والرياسة والعز والغنَى وغير ذلك مِما تعوّدت به النفس، فإذا خرق عوائدها خرقتْ له عوائد الكون، فيرى فيه الْمكوِّن أو قبله أو معه أو بعده، وفي الحِكَم: (كيف تُخرَق لك العوائد وأنت لَم تخرق من نفسك العوائد)، فمَنْ خرق عوائد نفسه الظاهرة كالرياضة في ترك الأكل والشرب والنوم، خرقتْ له عوائد الظاهر بالكرامات الحسية كالطيران في الهواء والمشي على الماء وغير ذلك من أنواع الكرامات، ومن خرق عوائد نفسه الباطنة كتصفية الباطن من حب الدنيا والجاه والرياسة والعز والكبْر والحسد وغيرها من الرذائل بتبديل ذلك بالفقر والذل والخمول والتواضع وغير ذلك من أوصاف الكمال، خرقتْ له عوائد الباطن بكشف الحجاب وشهود أسرار الذات وأنوار الصفات، وهذا هو المطلوب من العباد، وهو مَحَط نظر الصديقين ومطلب العارفين، وأما الأول فقد يحصل مِمن لا استقامة له ومِمن لا نصيب له في طريق الخصوص بل قد يحصل من الرهبان ومن لا دين له أصلاً، وبالله التوفيق.

ثُم قال رضي الله عنه:

فلولا الْهوى لَما احتجب بَهاؤه ... وما النفسُ إلا للهَواء مطيعةِ

فلِجُيوش الهواء كنْ مُتَشَتِّتاً ... نصحتُك فاقبلْ يا لبيب نصيحتِي

فإنْ مِلْتَ فَرَّتْ معْناك وتباعدتْ ... وأقبل ليلك برَعْد وظلمةِ

فإنْ شئتَ المعانِي جَمْعَكَ دائما ... فلا تَمِلْ نحوه ففي الميل ذلةِ

ويكفيك سجنك في قفص عالمك ورؤية كونك بعَيْن العَمِيَّةِ
فحَقُّ البصير يفنِي ما سوى وجهه وإلا فلستَ من أرباب البصيرةِ

يقول رضي الله عنه: فلولا الْهوى أي عشق الكائنات الظلمانية، لَما احتجب بَهاءُ الحق وحسنُ جماله وأسرارُ ذاته وصفاته عن أحدٍ من العباد، لكن اشتغال النفس بالْهوى والحظوظ الفانية حجَبها عن شهود الأنوار القدسية والأسرار الربانية بعد ظهورها ووُضوحها، فلو زهدت في حظوظها وهواها لتَنَزَّهتْ في أسرار ذات مولاها، لكن لا تجد النفس في الغالب إلا مطيعة لِهواها أسيرة في يد مُناها، لا يفكها عنه إلا خوف مزعج أو شوق مقلق أو صحبة ذي نور مُحْرِق، فكُنْ أيها الفقير لِجيوش الْهوى مُشَتِّتاً ولعسكر النفس والشيطان مفرقاً، إنْ شئتَ أن تكون لسرك محققاً وبشهود ربك متحققاً، فقد نصحتك أيها الحاذق اللبيب، فاقبلْ نصيحتنا إن كان لك في الخصوصية نصيب، فإنْ مِلْتَ إلَى هواك وتبعته فَرَّتْ عنك معناه وتباعَدت، وعَظُمت دائرة حسّك واتسعتْ، وأقبل ليل وجودك بظلمة حسّه ورَعْدِ هَوْلِه في تدبيره واختياره. فإنْ شئتَ أن يدوم جَمْعُك بأسرار الْمعانِي فلا تَمِلْ إلَى عشق الأوانِي ولا تلتفت إليها طرفة عيْن.

قال الشاعر:

نُونُ الْهوَى مِن الْهوانِ مَسْرُوقَةٌ وأَسِيرُ كل هوًى أسير هوان

وقال آخر:

إن الْهوى لَهُوَ الْهوان بعينه فإذا هويتَ فقد لقيتَ هوانَ
وإذا هويْتَ فقد تَعَبَّدك الْهوى فاخْضَعْ لِحبِّكَ كائناً مَنْ كانَ

ولابن دُرَيْد:

إذا طالبتك النفس يوماً بشهوةٍ وكان إليها للْخِلافِ طريقُ
فدَعْها وخالِفْ ما هَوَيْتَ فإنّما هواك عدُوٌّ والْخِلافُ صديقُ

وقال أبو عبيد الطوسي:

والنفس إن أعطيتَها مُناها فاغرة نَحو هواها فَاهَا

ويكفيك في اتباع الْهوى بقاؤك مسجوناً في عالَمك، محصوراً بِمحيطاتك،

مسجوناً في هيْكل ذاتك ورؤية وجودك الوهْمي بعيْن عميتك، فلو خالفْت هواها لَخرجتَ من سجن الكائنات إلَى فضاء شهود المكوِّن، وتنفتح حينئذ عين بصيرتك فتشهِدك عدمَك لوجوده، فيفنَى وجود الكائنات، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، وإنْ دُمْت مع هواك طمست عين بصيرتك فلا تطمع أن تكون من أهل البصيرة، ومن انطمست بصيرته كان أعمى، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وَأضل سبيلاً، وبالله التوفيق.

ثُم قال رضي الله عنه:

فمَنْ له عيْنُ الجَمْع أعْلى حقيقةً ... ومَنْ لا فلا يدري كمال الولايةِ
وإن أُبْرِزتْ على يديه خوارقُ ... وظاهره على منهاج الشريعةِ
فأحوالُها تبدو على من تَوَجَّهَ ... إليها بخدمة من أهل الإرادةِ
وهذا لبعض القوم في حال سيرهم ... وتبدو لأقوام في حال النهايةِ
فأكثرهم على اليقين بناؤهم ... فلا التفات لَهم من أول وهلةِ
عَلَتْ هِمَمُ الأرواح للعالَم الأسنَى ... بِمحض تفضل وجود ومنةِ
وعاينت أسرارَ المعانِي بعينها ... ولولاها ما رأتْها عين السريرةِ
بنورها قد بدَتْ عن طلعة وجهها ... إلَى عين مرآة القلوب الصافيةِ

يقول رضي الله عنه: فَمَنْ له عين الجمع، وهي عين البصيرة التِي لا ترى إلا الأسرار القديمة الأزلية، عَلاَ قدرُه حقيقة لأنه دخل في زمرة المقربين ونال مقام الولاية، ومن ليس له عين الجمع، وإنّما له عين الفرق الحسية التِي لا ترى إلا الفروقات الحادثة، فلا تدري كمال الولاية، بل لا يعرفها أصْلاً فضلاً عن كمالِها، فمقامه أدنَى من الأول، وبينهما فرْق كبير، لأن الأول من السابقين المقربين، وهذا من عامة أهل اليمين، ولو ظهرتْ على يديه خوارق وكرامات، ولو كان ظاهره على منهاج الشريعة والسنة فلا يَبْرح عن مقام العامة، حتّى تنفتح بصيرته على يد شيخ كامل فيلجُ مقام الفناء ويخرج إلَى مقام البقاء، وحينئذ يكون من المقربين السابقين.

وأما الكرامات فلا تظهر على من توجَّه إليها وطلبها بالرياضة والخدمة

من المريدين في أوّل سيرهم، وقد تبدو لقوم في حال نِهايتهم، وقد تظهر للطالبين قبل اتصالِهم بالشيخ، بل قد تكون للرهبان استدراجاً، والقولُ الفصل في ذلك ما قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: (إنّما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بِمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على السنة والمتابعة ومجانبة الدعاوي والمخادعة، فمَنْ أُعطيهما ثُم جعل يشتاق إلَى غيرهما فهو عبد مُغتر كذاب أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب، كمَنْ أُكْرِم بشهود الْمَلِك على نعت الرضا ثُم جعل يشتاق إلَى سياسة الدواب وخلع الرضا، وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن الله ومن الله فصاحبُها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك مثبور)، فأكثر أهل الإرادة بنوْا أمرهم على تحقيق الإيقان وصريح العرفان، فلا التفات لَهم إلَى الكرامة ولا غيرها، حصل لَهم هذا القصد من أول وهلة، فلذلك قَلَّ ظهورها عليهم لعدم تشوفهم إليها، بل قد يفرّون منها خوف الوقوف معها، كما قال الششتري رضي الله عنه في نونيته:

ومَهما تَرى كلَّ الْمراتب تُجْتَلى ... عليك فَحُلْ عنها فعَنْ مثْلها حُلْنا

وقُلْ ليس لِي في غير ذاتك مَطْلَبٌ ... فلا صورةٌ تُجْلَى ولا طرْفَةٌ تُجْنَى

فقد عَلَتْ هِممهم إلَى العالَم الأسنَى، وهو شهود الذات الأقدس، فلم يلتفتوا في سيْرهم إلَى شيء سواه، فسبحان مَنْ تفضَّل عليهم بِمنه وجُوده حتّى عرفوه حق معرفته، فعايَنتْ أرواحهم أسرار المعانِي، وغاب عن نظرهم حس الأوانِي، فرأت الأسرار بعين الأسرار، ولولا أنّها رأت نفسها بنفسها ما حصلت الرؤية لأمرٍ قط، فعين الجمع ترى الجمع، وعين الفرق ترى الفرق، فما عرف الحق إلا الحق، ولا رأى الحق إلا الحق، وما ثَم إلا الحق، ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾، فقد أسفرت المعانِي بنورها عن طَلْعة وجهها، وأشرقت شَمسها الضاحية على القلوب الصافية، فلا مَغيب لَها ولا أفول، ولا تحول عن القلوب ولا تزول.

طَلَعَتْ شَمسُ مَنْ أُحبُّ بليْلٍ ... واستنارَتْ فما تَلاها غُروبُ

إن شَمس النهار تَغْرُبُ بليْلٍ ... وشَمسَ القلوب ليس لَها مَغِيبُ

ثُم قال رضي الله عنه:

فمَـــنْ كنـــتَ لـــه بـــالْمِنَن مُقـــابِلاً رَفعْـتَ عنـه تلـك الحجـبَ الـساترةِ

وعَلَّمْتَـــهُ مـــن العلـــوم لطيفَهـــا وحَقَّقْـــتَ ســـرَّه بـــسِر الحقيقـــةِ

وأشْـــهَدْتَهُ الـــسرَّ المَـــصُونَ بـــسرك وأيْقَـــنَ أنَّ مـــا سِـــواك لغفلـــةِ

يقول رضي الله عنه: فمَنْ قابلته منك بالعطايا والْمنن، رفعتَ عنه الحجب الساترة عن العيان، وعلَّمتَه من ألطاف العلوم، وحققت سره بالسر المكنون، وأشهدته بسبب السر الذي أطلعته عليه السر المصون والكنْز المدفون، وأيقنَ أن ما سواك عدمٌ مَحْض وإنّما أثبته من أثبته لغفلته وجهله، ولو ذكر الله الذكر الحقيقي ما رأى سواه قط.

ثُم قال رضي الله عنه:

وبـــالقهر والقـــضا الْمُقَـــدّر عنـــدك سَـتَرْتَ منـك الأسـرار وهْـيَ جَلِـيَّةِ

ظهورُهـا قـد تغَطـى بالكـشْف للغطَـا وبانـــسدال الغطـــا اســـتدلَّ البريـــةِ

فـــأقوامٌ بالآيـــات كـــان اســـتدلالهم وأنـــت لبعـــضهم غايـــةُ الأدلـــةِ

هنيئـــاً لِمـــن كنـــت عليـــه دليلَـــه مُـــلازم للأفـــراح فـــي كـــل ســـاعةِ

ومبـــسوطٌ بِـــسِوَاك حَـــدُّهُ نفْـــسُه وروحُـه بـالتحقيق فِـي أقـوى نَكْـدَةِ

فمبْـسُوطا كُـنْ بـه ولا تكـنْ بـالْهوى ولا بَـــسْط إلا بعْـــد مَحْـــو البقيـــةِ

قلت: تقدَّم أن القصيدة غير مراعي فيها الوزن ولا الإعراب، فخُذِ الْمعانِي ودَعِ الأوانِي.

يقول رضي الله عنه: بالقَهْر والقضاء السابق سترت الأسرار البارزة من ذاتك وهي جلية ظاهرة، وفي الحِكَم: (مِما يدلك على وجوه قهره سبحانه أن حجبك عنه بِما ليس بِموجود معه)، قد تغطَّى ظهورها من شدة كشف غطائها، فمِنْ شدة الظهور الخفاءُ، وبسبب انسدال ذلك الغطاء على وجه الأسرار استدلَّت البرية عليه، فلو ارتفع ذلك الغطاء لوقَع الاستدلال به على غيره، فالصواب أن يقول: وبانسدال الغطا الخ.
فأقوامٌ استدلوا بالآيات التكوينية على المكوِّن، وقوم استدلوا بالمكوِّن على الكون وبالمؤثر على الأثَر، وفي مناجاة الحِكَم: (إلَهي كيف يُسْتَدَلُّ عليك بِما هو في وجوده

مفتقرٌ إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، متَى غِبْتَ حتّى تحتاج إلَى دليل يَدُلُّ عليك، ومتَى بعُدتَ حتّى تكون الآثار هي التِي تُوَصّل إليك)، وقال الشاعر:

عَجِبْتُ لِمنْ يبغِي عليك شهادةً وأنت الذي أشهدتَه كلَّ شاهِدِ

فهنيئاً لِمن كنت دليلَه عليك، قد دامتْ أفراحه، وغابت أتراحه، لأن الحقيقة يَبْقَى معها هم ولا حزن، ما تَجِدُه القلوب من الأحزان فلِمَا ما مُنِعت من الشهود والعيان.

وأما من كان بسْطُه بشيء سواك، فحَدُّ بسْطِه نفسه الظلمانية، وأما روحه فهي فِي أقوى نكدة وأشد ظلمة لِحصرها في حجاب الكائنات وهيكل الذات، فكُنْ أيها الفقير مبسوطاً بشهود مولاك، ولا تكن مبسوطاً بتوفر حظوظك وهواك فينقلب بسطُك قبضاً وفرحُك حزناً، ولا يكون البسط بالله وشهوده إلا بعد مَحْو البقية، أو تقول لا يكون البسط بالله والقبض بالله إلا بعد انقطاع بقايا النفس حتّى يكون بالله في كل ما يَذَرُ ويفعل، وبالله التوفيق.

ثُم قال رضي الله عنه:

فكنْ سالكاً حقيقاً في الجذب تَنتهي ولا تقْنَعْ ظاهراً بأمر الشريعةِ

قليلاً يليق بالطريق لِصَعْبِهَا وجُلُّ عباد الله أهلُ شريعةِ

فإنْ سَاوَى حالُ الشيء فيك وضدُّه تيَقَّنْ بأكمل صفاء السريرةِ

يقول رضي الله عنه: فكُنْ أيها المريد سالكاً للطريق سلوكاً حقيقياً تابعاً للشريعة المطهرة متمسكاً بالسنة المحمدية، فإنك تنتهي إلَى الجذب والفناء إن كان سلوكك على يد شيخ كامل عارف بالله، ولا تقنع بأمر الشريعة الظاهرة من كثرة الصلاة والصيام، فإن الصلاة والصيام من عبادة العوام، وعبادة الخواص نِسيان النفوس، هكذا كان يقول الشيخ رضي الله عنه، فقليلٌ من العمل الظاهر يكفي المريد مع الإخلاص ومراقبة القلب، ولا يليق بطريق الخصوص إلا التقلل من عمل الظاهر لصعوبة سلوكها، إذ القوة لا تكون في الجهتيْن، فمَنْ قوي ظاهرُه ضَعُفَ باطنُه، ومن ضعف ظاهره قوي باطنه، فلا يأخذ المريد من عمل الظاهر إلا المهم كخمْس صلوات وما تيسَّر من السنن المؤكدات، ويستغرق أوقاته في الذكر ويجاهد نفسه في حضور قلبه

حتّى يغيب بذكره عن سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز، فسُلوك طريق الخصوص صعبٌ لا يقدر عليها إلا الأقوياء من الرجال، وجُل الناس قنعوا بظاهر الشريعة وظنوا أنّهم حازوا مقامات الرجال وهم في مقام الأطفال، أوْقَفَهُم في هذا الجهل المركب عدمُ صحبتهم للرجال، ولو صَحِبوا الرجال لعرَفوا مقامهم. فإنْ أردتَ أن تعرف مقامك هل هو كامل أو ناقص، فانظرْ فإنْ تساوَى عندك الضدان كالذل والعز والفقر والغنَى والمدح والذم، فاعلمْ وتيقَّنْ أنك كاملٌ قد صفتْ سريرتك، وإلا فجاهِدْ نفسك والزمْ خدمة الرجال حتّى تستوي عندك الأحوال، وبالله التوفيق.

ثُم قال رضي الله عنه:

وكنْ برزخاً واحْذَرْ من الْميل دائما ... ولازِمْ مقام الْحَدّ في كل عثرةِ

وقِفْ على حَدّ الشرْع والزَمْ كماله ... وجَنِّبْ من البَسْطِ الْمؤدي لرخصةِ

فمَن أطلق العنان في حال سيره ... فلا بد أن يعود في حال شهوةِ

وما التذتْ به النفس حتماً يَمُدّها ... سُموماً من أعظم السموم القاتلةِ

وإنْ لَم يكن في الشيء لذة طبْعِها ... فلا بأس إنْ كان بأمْرِ الشريعةِ

يقول رضي الله عنه: وكنْ أيها الفقير برزخاً بين بحر الشريعة وبحر الحقيقة، واحذرْ من الميل إلَى إحداهما، فخَيْرُ الأمور أوسطها، فالميل إلَى الشريعة الظاهرة يُضعف نور الحقيقة، والميل إلَى الحقيقة بالكلية يخل بالأدب وربّما يؤدي إلَى الزندقة إن استَخَفَّ بالشرائع، وأما الميل إلَى الحقيقة مع الْمُهم من الشريعة فكَمالٌ، والحاصل أن السائر ينبغي له الميل إلَى الحقيقة أكثر، والواصل المتمكن ينبغي له الاعتدال، وأما من لا شعور له بالحقيقة فلا كلام معه إذ ليس في يده إلا الشريعة فإنْ مال عنها خرج من الدين بالكلية. ولازِمْ أيضاً مقام الْحَدّ في كل عثرة، فتبادر بالتوبة وتجعل تلك العثرة هي الْحَدّ لا عثرة بعدها، وقِفْ على حدود الشريعة في كل أمر ونَهي، فما آتاكم الرسول فخُذوه وما نَهاكم عنه فانتهوا، والزمْ منهاج الشرع وكماله، ولله در القائل في مدْحها حيث قال:

فكلُّ بابٍ دونَها مسْدُودُ ... ومَنْ أَتَى بغيرها مَرْدُودُ

قـدِ اصطفاها ربُّنا عـزَّ وجَلْ   بفضله وجُوده علـى الْمِلَلْ

وجَنِّبِ البسط المؤدي للرخصة، فإن البسط مزلة أقدام الرجال إلا من حافظ فيه على أدب الشرع، فمن أطلق عِنانه في حال سيره، فلا يأتِي منه شيء، وإنْ قدَّرنا أنه يصل إلَى الحضرة فلا بد أن ينْزِع إلَى شهوته فيسقط عن رتبته، وما رأينا أحداً أخلَّ في سيره برسوم الشريعة نال شيئاً من أسرار الحضرة حتّى ظهرت عليه أنوار الولاية بل ربّما تنعكس أو تظلم.

قال في القوت[1]: (مَنْ عرف الله من طريق المحبة من غير خوف هُلِك بالبسط والإدلال، ومن عرفه من طريق الخوف من غير محبة انقطع بالبُعد والاستيحاش، ومن عرف الله من طريق المحبة والخوف أحبَّه الله عز وجل فقرَّبَه ومَكَّنَه وعلَّمَه).

وليحذر المريدُ السائر جهده من تتبع الشهوات، فإنّها تظلم القلب وتقيّده عن السير، كيف يرحل إلَى الله وهو مكبَّلٌ بشهواته، وكل ما تلتذ به النفس في عالَم الأشباح يَجدها حتماً سُموماً قاتلة إنْ سكنَتْ في قلبه، وأما إذا كان الشيء مباحاً ولا لذة لطبع النفس فيه فلا بأس بتناول قدْر الحاجة منه، والله تعالَى أعلم.

ثُم دلَّ على الورع فقال:

تـوَرَّعْ إن الـورعَ أعظـم بابِهـا   وأوْلَـى بِهـا حقيقـاً أهـلُ الحقيقـةِ

ولا تلتفـتْ لِمـا جـرى بـه حُكمُـه   فلـيس ذاك مـن شـأن أهـل الْمحبـةِ

فكـلُّ محبـوب بـالْمحبوب اشـتغالُه   ناسـياً لِمـا سـواه فـي كـل حالـةِ

وإن جـاءك مـن الْمحبـوب تَعَـرُّفٌ   فَتَلَقَّـهْ بـالإجلال فِـي كـل دفْعَـةِ

فلـولا شـيء يُكَـدِّرُهَا فِـي سـيْرها   لَمـا صـارتْ مـن بعـد الكـدَر صـافيةِ

يقول رضي الله عنه: تَوَرَّعْ فِي أمورك كلها، فلا تأخذ إلا ما انْحلت عنه التبعات وسَلِمَ من الشبهات، فإن الورع أعظم الأبواب الداخلة على الحقيقة، وأولَى الناس به أهل الحقيقة، لأنّهم لا يأخذون إلا ما يزيدون به إلَى ربّهم ويتقربون به إلَى محبوبِهم،

---

(1) أي قال سيدي أبو طالب المكي فِي كتابه "قوت القلوب فِي معاملة المحبوب، ووَصف طريق المريد إلَى مقام التوحيد".

والورع ترك النفس عما تكره عاقبته، فورعُ العامة ترك الحرام والمتشابه، وورع الخاصة ترك ما يُكَدِّر القلب ويظلمه ويجمع ذلك قوله عليه السلام: (دَعْ ما يريبك إِلَى ما لا يريبك)، وورع خاصة الخاصة رفْضُ التعلق بغير الله وسَدُّ باب الطمع في غير الله وعكوف الْهم على الله، وهذا هو الورع الذي هو مَلاك الدين كما قال الحسن البصري حين سُئِل: ما مَلاك الورع؟ فقال: الورع، وقيل له: ما فساد الدين؟ قال: الطمع، فالورع الذي يقابل الطمع هو هذا، وسَمعتُ شيخ شيخنا مولانا العربِي الدرقاوي رضي الله عنه يقول: (سُدُّوا باب الطمع وافتحوا باب الورع واللهِ حتّى يستولِي باطنكم على ظاهركم ومعناكُم على حسكم)، وقال فِي التنوير: (وليس يَدُلُّ على فهم العبد كثرة علمه ولا مداومته على ورده، وإنّما يدل على نوره وفهمه غناه بربه وانحياشُه إليه بقلبه والتحررُ من رق الطمع والتحلي بحلية الورع)، وقال فِي لطائف الْمنن: قال الشيخ أبو الحسن (الورع نِعْمَ الطريق لِمن عجل ميراثه وأجل ثوابه، فقد انتهى بِهم الورع إِلَى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله، وعلى السنة الواضحة والبصيرة الفائقة، فهم في عموم أوقاتِهم وسائر أحوالِهم لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا ينبسطون ولا يَمشون ولا يتحركون إلا بالله ولله من حيث يعلمون، هجم بِهم العلم على حقيقة الأمر فهم مَجموعون في عين الجمع، لا يتفرقون فيما هو أعلى ولا فيما هو أدنَى، وأما أدنَى الأدنَى فالله يورعهم عنه ثواباً لورعهم مع الحفظ لِمنازلات الشرع عليهم، ومن لَم يكن لعلمه وعمله ميراث فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى، وميراثه التعزز لِخلقه والاستكبار على مثله والدالة على الله بعمله، فهذا هو الخسران المبين، والعياذ بالله العظيم من ذلك، والأكياس يتورعون عن هذا الورع ويستعيذون بالله منه، ومن لَم يزدد بعلمه وعمله افتقاراً لربه وتواضعاً لِخلقه فهو هالك، فسبحان من قطع كثيراً من الصالِحين بصلاحهم عن مصلحهم، كما قطع كثيراً من المفسدين بفسادهم عن موجدهم، فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) انتهى كلامه رضي الله عنه.

ولا تلتفتْ أيها المريد لِما جرى به حكمه السابق من القضاء القهري إذا جرى بِما لا يُرْضي شرْعاً فتَحتج به لنفسك وتترك التوبة والرجوع إِلَى ربك، فهذا هو عين

الرضا عن النفس الذي هو أصل كل غفلة ومعصية. بل ما جرى به حكمه السابق، إذا كان طاعة فالواجب الشكر وشهود الْمنة من الله، وإن كان معصية فالواجب من جهة الأدب الندمُ والتوبة ونسبة ذلك للنفس والشيطان قولاً لا اعتقاداً، فالنفس والشيطان مناديل الحضرة تُمسح فيها أوساخ الأقدار، فالكل من الله خلْقاً وإيجاداً، لكن طريق الأدب تنسب الكمالات إلَى الله، والنقائص إلَى النفس، قال تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ بعد أن قال: ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، فليس من شأن أهل المحبة احتجاجهم لأنفسهم ورضاهم عنها، بل من شأنِهم إسقاط منْزلتها والغيبة عنها، فكل مُحب مشغول بِمحبوبه ناسياً لِما سواه في جميع الأحوال.

وإنْ جاءك أيها الفقير تَعرّف من المحبوب، جلالياً أو جمالياً، فتَلَقَّه بالإجلال والتعظيم، فإنْ كان نعمة فبالشكر، وإنْ كان نقمة فبالصبر والرضا، وإن كان طاعة فبشهود الْمنة من الله، وإن كان معصية فبالتوبة والرجوع إلَى الله، فلوْلا ما يُصيب النفس في حال السيْر من الكدرات ما ظهَرَتْ فضيلة الصفاء، فلولا الجهل ما عُرف فضل العلم، ولولا المعصية ما ظَهَر شرف الطاعة، ولولا الحجاب ما ظهر شرف أهل العرفان، وهكذا ما عُرِفت الأشياء إلا بأضدادها، والله تعالَى أعلم.

ثُم قال رضي الله عنه:

فلا تُنْكِرْ حُكْمَه إذا بَدا قهرُه ... فعَنْ قريبٍ يُحْلى من بعد الْمرارةِ

فمن لم يكن بِحال مَنْ مات جهرة ... فَمَيِّتٌ عن حياته الأبديةِ

فليس له علم وإن كان لفظه ... يشير إلى التحقيق كل الإشارةِ

فأكثرهم فيها يطول كلامهم ... وليس لَهم سوى الألفاظ العارية

فمَنْ كان في كل الْهوى متمكناً ... فكيف يدري حقيقا عِلْمَ الحقيقةِ

يقول رضي الله عنه: فلا تُنْكِرْ أيها العبد حُكمَه تعالَى إذا ظهرَ قهرُه فيه، كما إذا حكَمَ عليك بالأوجاع والْمصائب أو الذل والفقر وإذاية الخلق، فعَنْ قريب تنقلب مرارته حلاوةً، لِما يَبْقَى بعد ذهابِها من تَهذيب النفوس وتقريب حضرة القدوس، وفِي الحِكَم: (إذا فَتَح لك وِجْهَةً من التعرف فلا تبالِي بعدها إنْ قلَّ عملك، فإنه ما فتحها

عليك إلا ويريد أن يتعرف إليك منها. أَلَم تعلم أن التعرف هو مُورده عليك، والأعمال أنت مُهديها إليه، وأين ما تُهديه إليه مِما هو مُورده عليك)، فمَن لَم يكن حاله كحال الْميت بين يدي الغاسل، يقلبه الحق كيف شاء وهو مُطاوع، فهو ميت محروم من حياته الأبدية، فمَنْ ماتت نفسه عن مراداتِها حييتْ روحه حياة لا موت بعدها، ومن لَم تَمت نفسه عن هواها فهو ميت حقيقة وإن كان حيّاً حسّاً، فالغافلون أموات وهم أحياء، والعارفون أحياء وإن ماتوا حسّاً، ولله در القائل:

موتُ الفتَى حياة لا فناء لَها قد مات قومٌ وهُم فِي الناس أحياءُ

فمن كانت نفسه حية متنعمة بِحظوظها وهواها، فليس له علم، وإنّما له الجهل والويل، وإن كان لفظُه يشير إلَى علم التحقيق كل الإشارة فليس له إلا الدعوى الفارغة، فأكثر هذا النوع يطول كلامهم في علم الحقيقة ويتعرضون للتأليف فيه، وليس لَهم إلا الألفاظ الخاوية، عارية عن معنَى التحقيق، فيفتضحون عند العارفين ويظهر جهلهم، فلو سكتوا لكان خيراً لَهم ولستروا جهلَهم، ولقد رأيت كثيراً من الناس تعرّضوا لشرح الْحِكَم العطائية وهم لَم يشموا رائحة التصوف ولا صحبوا مَنْ شَمَّ رائحته، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فمن كان متمكناً فِي كل الْهوى لَم يعرف من نفسه شعْرة ولا خَرقَ لَها عادة، فكيف يدري علم الحقيقة حتّى يتصدى للتأليف في علمها أو لتدريسها، لولا الدعاوي العريضة من القلوب المريضة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ثُم بيَّن سر الحقيقة وعلمها فقال:

فعِلمُها نورٌ يُبْدي عن سر وجهها وتشهده منك الأرواح الصافيةِ
وقولُها يعجب النفوس سَماعه وأولَى به مرّاً شديد الْمرارةِ
تَفِرُّ منه النفوس كلاًّ بأسرها سوى نفس كانت بالْمِنَن مُمدةِ
على عهدها الأول لَم تنقض أمره سبقت لَهَا عند الإله السعادةِ
لَها عزم دائما وحزم بين الورى خادم لأهل الفن أشد خدمةِ
على سبيل الإجلال والحب دائما وليس لَها اعتراض فِي كل حالةِ
فنِعْمَ التِي كان مَحلها هكذا تنال من الحكيم أعظم حكمةِ

يقول رضي الله عنه: فعِلْمُ الحقيقة الذوقية نورٌ في القلب يُظهر ويُسفر عن سر وجهها، فيظهر آثارها على وجْه صاحبها وعلى جوارحه من بَهجة الْمحبة وأسرار الْمعرفة والسّمْت الحسن والرزانة والطمأنينة والسكون، فغالبُ أحواله البسط والفرح، أخلاقه طيبة وأنفاسه زكية، من رآه بديهة هابَه، ومن خالطه معرفة أحبّه، ولا تشبع مجالسته ولا تمل محادثته، مذاكرته تحيي القلوب، وروايته تكشف الكروب وتلقّح علم الغيوب، وصحبته تكشف عن سر الغيوب، لكن لا يشهدها إلا الأرواح الصافية من كدَر الْهوى، وأما من غلب عليه الْهوى فلا يعرفه ولو كان ملتصقاً، فالكلام في الحقيقة حلوٌ يعجب النفوس سَماعه، والعارف بِها المتحقق بأسرارها الذي هو أولَى بِها مرّ شديد الْمرارة، يعنِي صحبته أول مَرّة تكون مُرَّة على النفس أشد المرارة ثقيلة عليها، لأنه ميت والميت تفر منهم النفوس الحية، كذلك أهل الفناء في الذات ظاهرهم نارٌ محرقة تفر منهم النفوس بأسرها سوى نفسٍ أمدها الله بالْمنن الإلَهية بقيت على عهدها الأول الذي أُخِذَ عليها في عالَم الذَّر لَم تنقض ذلك العهد بالْميل إلَى ما سواه، سبقت لَها من الله السعادة ومنحها سر الولاية، ولَها عزْم على الوصول وحزْم على السير من بين سائر الورى، خادمة لأهل الفن أشد الخدمة على سبيل الحب والإجلال، لأن خدمة الرجال سببُ الوصال، وليس لَها اعتراض على الْمشايخ، لا ظاهراً ولا باطناً في كل حالة، رأتْ ما يوافق أو يُخالف، لأن لتربية الْمشايخ خاصية تَسْري فِي المريد على قدر التعظيم، ولا عِبْرة بِما يظهر على الجوارح من المخالفة، فقد تكون اختباراً، وقد تكون جرياً للقضاء وكان أمر الله قدَراً مقدوراً، فنِعْم الرجل صاحب هذا النفس التِي كان مَحلها هكذا، قد سبقَت لَها العناية، وحُفَّت بِها الرعاية، وظهرت عليها أسرار الولاية، تنال من الحكيم العليم أعظم حكمة وأرفع منّة. جعلنا الله من هذا القبيل، في الرعيل الأول، آمين.

ثُم رغب فِي صحبة مَنْ هذا شأنه، فقال:

فيا سَعْدَ من كان إليه مُجاوراً ... على بساط التعظيم في كل ساعةِ

ببعضه قد كُنَّا إليه ولم نكُنْ ... بكله ونِلْنا اقتراباً ووصلةِ

وأين هم فِي الوجود قلَّ وجودهم ... فأكثرُ أهل الوقت أرباب دعْوةِ

وقد ضاع آداب المريد فِي وقتنا ... وواصلون لَها بِمحض الكرامةِ

فلولا رجالها يمد بوصفها ... حقيقاً ما نلنا منها كقدر حبةِ

يقول رضي الله عنه: فيا سعْدَ ويا بشراهُ مَنْ كان مُجاوراً لصاحب هذه الروح الصافية التِي سبقتْ لَها العناية، ولاحتْ عليها أنوار الولاية، لأنّه يدرك بصحبته في ساعة واحدة على سبيل التعظيم والْمحبة من العلوم والأسرار والْمعارف والتمكين ما لا يدركه في سنين متطاولة بالرياضة والْمجاهدة، فما بالك إذا طالت الصحبة، فمبْنَى طريق القوم كلا على الصحبة والخدمة، فمَنْ قنَع بالأخذ عنهم من غير طول الصحبة لا يطمع فِي الولاية الكبرى، إذ لا يخرجه من طبعه ولا يسلخه من علمه وعمله إلا طول الصحبة، وما دام الْمريد لَم يخرج عن طبعه ولَم ينسلخ عن علمه وعمله لا يطمع فِي مقام الأذواق والوجدان، وما طال الفتح على بعض الْمريدين إلا مِنْ قلة صحبتهم لأشياخهم، وما تَخَلَّفَ الفتح عن بعض العلماء مع أخذهم عن مشايخ التربية إلا لعدم خروجهم عن طبعهم وعدم انسلاخهم عن علمهم وعملهم، فكانوا يصحبون الْمشايخ على رأي أنفسهم لا على رأي أشياخهم، فبَقوا فِي دائرة الأكوان مسجونين، وفِي يد أنفسهم مأسورين.

ثُم قال الشيخ رضي الله عنه: قد كُنّا نقوم بالبعض من الخدمة ولَم نقم بالكل فنِلْنا والحمد لله اقتراباً ووصلةً، قال ذلك هضماً لنفسه، وإلا فقد كان قائماً بأمْر شيخه أشد القيام، يقوم بشأن داره فِي كل ما يحتاج إليه ما دام فِي صحبته، وحين فارقَه كان متردداً إليه قائماً بِجُل مُهماته، فعَلى يديه بُنيتْ مسجده وقبة ضريح جده سيدي أحمد بن يوسف الدرقاوي رضي الله عنهم جميعاً، وجُلُّ مصالِح الزاوية كانت على يديه رضي الله عنه وأرضاه.

ثُم استقْلل وجود العارفين الذين يستحقون الخدمة فقال (وأين هم فِي الوجود قَلَّ وجودهم)، فهم أغرب من عنقاء مغرب لِمَنْ أبْعدَتْه السابقة، وأقرب من كل قريب لِمن قَرَّبتْه العناية. كُنْ طالباً تَجِدْ مُرْشِداً، فقد كثرت الدعاوي فأكثرُ أهل الوقت أرباب الدعاوي، وأما التحقق بالعرفان على طريق العيان فقليلٌ إلا ما ظَهَرَ من هذه الطائفة الْميمونة الدَّرْقَاوية ففيها كثير مِمن تَحقق بِمعرفة العيان، فالله يَحفظها ويرعاها وينصرها

على من ناوأها، آمين.

وقد ضاع آداب الْمريد فِي وقتنا هذا، فقَلَّ من يقوم به على الوفاء، ومَنْ وَصَلَ لسر الحقيقة فإنّما وصل بِمحض الكرم والفضل مع كَرَم أربابِها، وقد أَلَّفَ الشيخ رضي الله عنه فِي آداب الْمريد كتاباً جليلاً لَم يُؤَلَّف مثله فِي الإسلام، تتبَّع الآداب من أولِها إلَى آخرها، فجزاه الله عن الْمسلمين خيراً، فلولا أن رجال الحقيقة فِي زماننا هذا كرامٌ يمدون بوصفها مَن طلَبها، ما نال أحدٌ منها شيئاً لعدم القيام بِتمام الآداب، والله تعالَى أعلم.

ثُم قال رضي الله عنه:

وقد مُلِئَتْ كل النفوس بوصفها وفَنَتْ عن جُملة الأوصاف العاليةِ
بفضله قد جاد الإله بِجوده وليس للفضل منه وجود علةِ
فمن لَم يزل عنه الحجاب بفضله يعوم في سره وعنه في غفلةِ
ولا شيء غير سرك بدا جهرة لذاك صارت معانيه مستترةِ
ظهرت بأنواع الجمال حقيقة وسَميته كلا باسم الخليقةِ
فكان نِهاية استتار ظهوره وهذا من أعظم الحكم البالغةِ

يقول رضي الله عنه: وقد مُلئت كل النفوس بعلم الحقيقة ووصفها، وفَنَتْ أي خَلَتْ عن الأوصاف العالية والأخلاق السنية لعدم خرقهم لعوائد أنفسهم، فالدعاوي عريضة، والقلوب مريضة، فقد جاد الإله بفضله على مَنْ تَوَجَّه إليه فأعانه على مُجاهدة نفسه وخرق عوائدها، حتّى خرقت له العوائد، فذاق من أنوارها وأسرارها ما سبقتْ له به عنايته، وليس لفضله تعالَى علة ولا سبب، جَلَّ حُكْمُ الأزل أن يُضاف إلَى العلل. عنايتُه فيك، لا لشيء منك، وأين كنت حين واجهتك عنايته، وقابلتك رعايته، بل لَم يكن هناك إلا مَحض الإفضال، وعظيم النوال، وأنشدوا:

وكنتُ قديماً أطلب الوصل منهمُ فلما أتانِي العلمُ وارتفع الْجهلُ
علمت بأن العبد لا طَلَبَ له فإنْ قَرَّبُوا فضْلٌ وإن بَعدوا عَدْلُ
وإن ظهروا لَم يُظْهِروا غيرَ وصفهم وإنْ ستَروا فالسترُ مِنْ أجْلهم يَحْلُ

وقال آخر:

قد كنتُ أحْسِبُ أن وصْلَك يُشْتَرى بنفائس الأموال والأرباح

وظننتُ جهلاً أن حبك هينٌ تَفْنَى عليه كرائم الأرواح

حتّى رأيتك تَجتبِي وتَخص مَنْ تَختاره بلطائف الأمناح

فعلمتُ أنك لا تنال بِحيلة فلويتُ رأسي تَحت طيِّ جناحي

وجعلتُ فِي عُش الغرام إقامتِي فيه غُدُوِّي دائماً ورَواحي

فَمنْ لَم يَزُلْ عنه الحجاب بفضله، بِمحض فضله تعالَى، بقي مَحجوباً، يعتقد البعد وهو فِي غاية القرب، يَعوم فِي بحر السر وهو عنه غافل، الكنْز عنده وهو فقير، فلوْ حَفَر عليه لصار غنيّاً من أهل الإكسير، فما ظهر فِي الوجود إلا سره القديم، فالخلق كلهم سابِحون فِي بَحر الأسرار وهم لا يشعرون، فلشدة ظهور سرّه صار خفيّاً، وصارت معانيه مستترة بِما انسدل عليها من حجاب الحس الذي هو رداء الكبرياء.

لقد ظهرت بأنواع الجمال والجلال فِي مظاهر الكائنات وسَميت كلا باسم الخليقة، فسميت بعض أنواع الجمال جنةً وعرشاً وكرسياً وسَماء، إلَى غير ذلك من تجليات الجمال، وسَميت بعض أنواع الجلال نيراناً وسلاسلَ وأغلالاً وحية وعقارب، وغير ذلك من تجليات الجلال، فجُلُّ تجليات العالَم العُلوي جمالية، وجل تجليات العالَم السفلي جلالية. فكان نِهاية استتاره هو كمال ظهوره، وكمال ظهوره نِهاية استتاره، فهذا من أعظم الْحِكَم البالغة التِي تَحار فيها العقول، فقد اجتمعت الأضداد فِي مَحل واحد، ظاهر وباطن، حس ومعنَى، عبدٌ وربٌّ، فسبحان الحكيم العليم الذي صنَعَ كل شيء فأتقنه.

ثُم ذكر شرف الآدمي وخصوصاً نبينا عليه السلام، فقال:

وخَصَّصْتَ آدمَ بسر علومها وأعْجَزْتَ سكانَ السماء العاليةِ

وحَقَّقْتَ أحْمدَ بكل حقيقة جَرتْ عليها منك الأسْماء البديعةِ

لأنه نورك وسر جَمالك وبَحر كمالك وأعظم نعمةِ

هو الْمظهر الأعلى وسر المظاهر بأنواره كل الأشياء منيرةِ

بعَيْن البَقَا يراه من كان فانياً ... وهذا لبعض القوم بعد النهايةِ

وليس من الأحوال ما صَحَّ عندنا ... ولكن شريعة المعانِي القديمةِ

يقول رضي الله عنه: وخصَّصْتَ آدمَ عليه السلام بسرّ علوم الحكمة، لينتفع بِها أولاده فِي عالَم الحكمة النازل إليه، ولتظهر مزيته على الْملائكة ردّاً لقولِهم (لَم يَخْلُقِ الله أعلم منا)، فعَلَّمه تعالَى أسْماء الأشياء كلها، وعلَّمه اللغات التِي سيتكلم بِها أولاده من عربية وعجمية وسريانية وغيرها، وعلَّمه الصنائع كلها والْحِرَف أي أُلْهِمَ ذلك إلْهاماً وأُلْقِيَ علمها فِي فطرته، ولَما علَّمه تعالَى مسميات الأسْماء عَرَضهم على الْملائكة فقال أنبئونِي بأسْماء هؤلاء إن كنتم صادقين فِي أنكم أعلم منه، فظهر عجزهم فقالوا: لا علم لنا إلا ما علَّمتَنا، الآية.

وحقَّقْتَ نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بكل حقيقة وبعلوم كل حكمة، فعَلِمَ صلى الله عليه وسلم ما علِمَه آدم عليه السلام وزاد عليه بعلم خواص الأشياء وأسرارها ومنافعها، فكان عليه الصلاة والسلام يعرف جميع اللغات يُخاطب كل قوم بلسانِهم، ويعرف خواص الأشياء وأسرارها، فأعجَزَ الخلائقَ كلهم كما عجزت الْملائكة عن علوم آدم، وإليه أشار القطب ابن مشيش بقوله فِي تصليته المشهورة (وتنَزَّلتْ علومُ آدم فأعجز الخلائقَ)، وقال البوصيري فِي همزيته:

لك ذاتُ العلومِ مِن عالم الغيب ... ومنها لآدمَ الأسْماءُ

فقد حققتَ أحمدَ بكل حقيقة وحكمة جرتْ عليها الأسْماء البديعة أي الغريبة، بِحيث لَم يعرفها أحد إلا هو عليه السلام، لأنه نورك الأصلي منه انفلقت الأنوار، وسِرُّ جَمالك مِنْ سره انشقت الأسرار، وبَحرُ كمالك من كماله ظهرت أنواع الكمال، فكلُّ كمال ناله أحدٌ إنّما ناله باتباعه ومَحبته عليه السلام وإظهار كمال الشريعة، ولأنه أيضاً نعمتك الْمهداة، ومنحتك الْمعطاة، ورحمتك الْمسْداة، ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾، وقال عليه السلام (أنا النعمة الْمهداة). قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: جميع الأنبياء خُلِقوا من الرحمة، ونبينا صلى الله عليه وسلم وشرَّف ومَجَّد وعظَّم هو عين الرحمة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً

لِّلْعَلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾، ومظْهَرُه عليه السلام هو الْمظهر الأعظم والتجلي الأكبر، وهو سرُّ الْمظاهر كلها لأنه أصْلها والواسطة فِي ظهورها، فلولا الواسطة لذَهبَ كما قيل الْموسوط، فالأشياء كلها منيرة بنوره، فرياض الْملكوت بزهر جماله مونقة أي محسنة معجبة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة، فكل نور تدفَّق من بَحر الجبروت فبواسطة نوره عليه السلام، فهو بذرة الوجود، والسبب فِي كل موجود، صلى الله عليه وسلم وشرَّف وكرَّم ومَجَّد وعظَّم، فمن تَحقق بِمقام الفناء والبقاء يراه عليه السلام فِي كل شيء، لأن نوره هو عينُ كل شيء، وهذا إنّما يكون لقوم بعد النهاية حين يتحققوا بسر البقاء، لأن الفناء سُكْر لا يشهد إلا الْمعانِي، والبقاء صحو يشهد الْمعانِي والأوانِي فيشهد الواسطة والْموسوط، فالأوانِي مُحمدية، والْمعانِي لاهوتية، وليس هذا الذي صَحَّ عندنا أي رؤيته عليه السلام فِي كل مظهر من طريق الأحوال، إنّما هو من طريق الأذواق وتحقيق مقام البقاء، ولكنه شريعة ووسيلة لرؤية الْمعانِي القديمة إن اتصل بِمن يسيره إليها، فلا ترى الْمعانِي اللطيفة الأزلية إلا فِي حس الأوانِي الكثيفة الْمحمدية، فالْمظهر واحد، فإن شئتَ أن ترى مُحمداً صلى الله عليه وسلم فانظرْ لِحُسن الأوانِي، وإن شئت أن ترى الحق جل جلاله فغُصْ إلَى بَحر الْمعانِي، وهذا طريق أهل الأذواق والوجدان، وليس هو من طريق الأحوال، والذي هو من طريق الأحوال هو رؤيته عليه السلام مشخصاً بصورته الشريفة فِي اليقظة أو فِي الْمنام، وهذا يكون لعامة الصالِحين وهو فِي مقام الحجاب، إذا فنَوْا فيه عليه السلام رأوْه يقظة، وإذا أكثروا من الصلاة عليه رأوه مناماً. وأما أهل الفناء فِي الذات من العارفين فقد لا تحصل لَهم هذه الرؤية الجزئية ولا يشتاقون إليها لغناهم بالله، ولأنّهم قد حصلت لَهم الرؤية الْمعنوية الكلية بل لا تفارقهم ساعة، ولذلك قال الشيخ أبو العباس الْمرسي رضي الله عنه (لو غاب عنّي رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ما أعددت نفسي من الْمسلمين)، ولَم يرد الرؤية الجزئية الشخصية، وإنّما أراد الرؤية الكلية، وقول بعض الصوفية (مات كثير من الأولياء على شوق منه عليه السلام) إنّما أراد بالشوق عدم حصول الرؤية الشخصية، ولَم يرد الشوق الحقيقي لأن الولِي الحقيقي لَم يبق له شوق إلَى شيء لغناه بربه. ماذا فَقَدَ مَنْ وجدَك؟ ففي كلام هذا القائل مَجاز واستعارة، وكأنه قال: مات كثير من الأولياء

ولَم يروا شخصه عليه السلام الجزئي يقظة ولا مناماً، وليس ذلك نقصاً فِي حقهم بل كمال، لأن من فَنِيَ فِي الشيء رآه لا مَحالة، فمن فنِي فِي الحق رآه ولَم يغِبْ عنه، ومن فنِيَ فِي رسوله رآه كذلك، ومن رأى الحق تعالَى فقد رأى كل شيء فِي مظاهر تَجلياته، فلم يبق له شوق إلَى شيء، وبالله التوفيق.

ثُم قال رضي الله عنه:

وللقبْـضَة عِلْــمٌ مَــنْ أدرك علمَهــا	عالِمــاً يــصير بالأســـرار الغريبـــةِ
أفاضــتْ مــن نــوره الأنــوار جميعهــا	ومــن ســره الأســـرار كــلا مُمــدةِ
ومــن بَحــره العلــوم فاضــتْ بأسـرها	علـى بـاطن العرفـان بـأعلى حكمـةِ
ومـــن نـــور عقلــه عقـــول تنــورتْ	لــذاك صــارت أهــلا لنيــل الطريقــةِ
وهـــام كـــل الأرواح مـــنهم بفكـــرة	وعاينـــت أســـرار الأســـرار الخفيـــةِ

يقول رضي الله عنه: وللقبضة المحمدية علمٌ مَنْ أدرك ذلك العلم يصير عالِماً بالأسرار الغريبة، لأن القبضة المحمدية قطعة نور من سر الذات، فمن عرفها حقيقة فقد عرف أسرار الذات والصفات فيصير عالِماً بالأسرار الغريبة التِي لَم يطلع عليها إلا مَنْ عرفها، وفِي بعض الأثر (إن الله أخذ قبضةً من نوره فقال لَها كونِي مُحمداً)، فمن تلك القبضة تفرعت الكائنات بأسرها، فقد فاضت من نوره عليه السلام جميع الأنوار، وانشقت من سره جميع الأسرار، فالأنوار والأسرار كلها مستمدة منه عليه السلام، وكأنه يشير إلَى قول الشيخ ابن مشيش فِي أول تصليته: (اللهم صل على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار)، أي من نوره انشقت أسرار الذات وانفلقت أنوار الصفات، ومن بَحره عليه السلام فاضتْ جميع العلوم على باطن أهل العرفان بألطف حكمة وأشرف رتبة، ومِنْ نور عقله عليه السلام تنوَّرت العقول، لأنه عليه السلام واسطة، فمنه تستمد الأرواح والقلوب والعقول، كل واحد على قدر استمداده وتَخليته. ولَما تنوّرت العقول صارتْ أهلاً لنيل الطريقة وقدرت على سلوكها، ولو بقيتْ مظلمة باتباع الْهوى ما اهتدتْ لطريق السير ولا سلكتْ طريق الوصول، وكذلك الأرواح والقلوب، ولو بقيتْ خالية من النور ما عرفت الحق ولا اهتدتْ إلَى معرفته. ولَما تنوَّرت الأرواح

هامتْ بفكرتِها فِي أنوار الْملكوت وأسرار الجبروت، وعاينت الأسرار الخفية التِي غابت عن عالَم الشهادة فترى أسراراً وأنواراً لا يراها الناظرون ولا يعرفها الجاهلون، وفِي ذلك يقول الشاعر:

قلوبُ العارفين لَها عيونٌ ... تَرى ما لا يُرى للناظرين

وألسِنةٌ بأسرار تُناجي ... تغيب عن الكرام الكاتبين

وأجنحة تطير بغير ريش ... إلَى ملكوت رب العالَمين

وقد ذيَّلتُها ببيتيْن فقلت:

وأفئدة تَهيم بعشقٍ وجدٍ ... إلَى جبروت ذي حقٍّ يَقينا

فإنْ تُرِدَنْ تَدارُكَ ذي الْمعانِي ... فبَذْلُ الروح منك يقِلُّ فينا

ثُم تكلم على شأن الروح، فقال:

وللروح قوة على حَمل سره ... من بين نفوس الخلق فازتْ بقوةِ

على الحالة الأولَى جاءت لنا أولا ... ومَدَّها علم الفرق فِي حال فطرةِ

وقبل اجتماعها بعالَم جسمها ... كانت من علوم روحها مستمدةِ

لَها علم بالأسرار تدريها دائما ... بعقل وروح جوهرة نفيسةِ

وجِسْمٌ لِحكمةٍ وبه تَكمَّلَتْ ... وبسره صارت في الأرض خليفةِ

وهنا بَدَتْ معانِي الذات لنفسها ... ولكن بعد انفصال عن كل عادةِ

يقول رضي الله عنه: وللروح أي روح الآدمي من حيث هي قوة على حَمل سره تعالَى وهو التجلي الذاتِي، مِن بين نفوس سائر الخلائق، وذلك للطافة بشرية الآدمي دون سائر الحيوانات، وأما الْملائكة فلا بشرية لَهم فلو تجلى لَهم تَجلي الآدمي لذابتْ أجسامهم، أو لأن روح الآدمي أمدّها الله بالعقل الذي كان لَها قبل التركيب بِخلاف سائر الحيوانات، فإن الأرواح قبل التركيب كان لَها عقل مقتبس من العقل الأكبر وهو الروح الأعظم، فكانت علاَّمة درّاكة عارفة بأسرار الربوبية، فلما أراد الحق أن يُركّبها فِي هذه الأشباح سَلَب منها ذلك العقل لئلا يفشي سرّ الْملك فأنشأ لَها فِي الآدمي عقلاً آخر يقال له العقل الأصغر أنبته فيها بالتدريج، على حسب تدريج جسمه،

فما زال يَنمو مع نُمو الجسم إلَى الاحتلام وقيل إلَى الأربعين، ولا زال يَنمو مع سلوك الطريقة بصحبة أربابِها إلَى أن يصير عقلاً أكبر، فبهذا العقل حصل لَها الشرف على سائر الحيوانات واختصت بِحمل السر، وهذا السر هو الأمانة التِي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبيْن أن يَحملنها وأشفقن منها كما فِي الآية، وهي الْمعرفة فِي الباطن وآداب العبودية فِي الظاهر، ففازت بقوة حمل الأمانة، وحصل لَها الشرف التام إن حملته حقيقة، وإلا التحقت بالبهائم، وقال بعض المحققين: الأرواح ثلاثة وجوداتٍ أي تَجليات الوجود الأول علمي والثانِي مثالِي تطويري والثالث عيْنِي حسّي، فكانت فِي الوجود الأول علاَّمة درّاكة على أصلها من العلم القديم لأنّها لَم تنفصل عن الذات إلا بالعلم والتمييز، وكانت فِي الوجود الثانِي دَهِشة حيرى هائمة، كحال الْملائكة، لأنّها لَما انفصلت عن الأصل دخَلتْها العبودية وأحاطتْ بِها القهرية، إلا أنّها عالِمة بالربوبية من طريق الإيمان لأنّها على الفطرة الأصلية وفِي هذه الحالة وقع لَها الخطاب بقوله ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾، وقيل خاطبَها مرتيْن فِي الأول والثانِي، فأقَرَّتْ فِي الأول بلسان الحال، وفِي الثانِي بالْمقال. انظر الحاشية الفاسية عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىَ ءَادَمَ ﴾. وكانت فِي الوجود الثالث جاهلة، قد نَسيتْ ذلك العلم أو سلب منها كما تقدَّم، لكنها على الفطرة تقبل العلم والجهل، والخير والشر، فبعث الله الرسل والدعاة إليه تعالَى يُذكرونَها العهد الأول، فمن أقَر به نَجى، ومن جحد هلك، وإلَى الإقرار فِي الوجودات الثلاث أشار ابن الفارض بقوله فِي تائيته:

وسابِقُ عهْدٍ لَم يَحُلْ مُذْ عَهِدْتُه ... ولاحِقِ عَقْدٍ جَلَّ عن حَلِّ فَتْرَةِ

قلت: والقبضة الْمحمدية لَها أيضاً وجودان علمي وعيْنِي، فكأنَّ الحق تعالَى عَيَّنَ جزءاً من نوره في سابق علمه، تَكَوَّن منه الأشياء، ثُم أظهره ثانياً. وأما الأرواح فاختصت بثلاث وجودات كما تقدم تنبيهاً على شرفها.

وقوله (على الحالة الأولَى جاءت لنا أولاً) أي على حالِها فِي عالَم الذّر فِي الوجود الثانِي جاءت إلَى الأشباح، فكانت مُقِرَّة بالربوبية، عالِمة بشؤونِها، عاشقة لأسرارها، ثُم مَدَّها عالَم الفرْق فِي حال فطرتِها فنسيت ذلك العلم وأبدلت عشق

الحضرة بعشق الفروقات الكونية والشهوات الجسمانية، فتاهَتْ فِي الفروقات، واحتاجتْ إلَى العلاج الكُلي على يد الطبيب الْماهر حتّى يردّها لأصلها الأول، فقبْل اجتماعها بعالَم الأجسام كان لَها علوم مستمدة من الروح الأعظم. أما فِي التجلي الأول فكان لَها العلم القديم، وأما فِي التجلي الثانِي فكان لَها علم بأسرار الربوبية كالْملائكة تَدْريها دائماً بعقل وروح، فكانت جوهرة نفيسة. فلما ركبت فِي هذا الجسم اسْوَدَّتْ فمَن اعتنَى بِها وصَقَلها عادت لأصلها، ومن أهملها بقيت سوداء مظلمة مَرْمية فِي الْمزابل غريبة عن وطنها، فكانت قبل التركيب وبعد التشكيل عالِمة بعالَم القدرة جاهلة بعالَم الحكمة، وأما بعد التركيب فقد صارت عالِمة بالقدرة والحكمة فبذلك تكمَّلتْ وصارت خليفة الله فِي أرضه. فقولُه: وجسمٌ الخ، وتنَزلت بِجسْمٍ لعالَم الحكمة وبه تكمَّلت واستحلت الخلافة.

والحاصل أن الأرواح فِي حال التجلي الأول كانت عالِمة بعالَم القدرة والحكمة بالعلم القديم، وأما فِي التجلي الثانِي فكانت عالِمة بعالَم القدرة دون عالَم الحكمة كالْملائكة، وأما فِي التجلي الثالث الجسمانِي فإنْ حصلت لَها المعرفة وترقت من عالَم الأشباح إلَى عالَم الأرواح وكانت عالِمة بعالَم القدرة وعالَم الحكمة وقامت بالأمانة استحقت الخلافة، وإنْ لَم تحصل لَها معرفة كانت عالِمة بعالَم الحكمة دون عالَم القدرة فلم تستحق الخلافة الحقيقية.

هذا ما يتعلق بالكلام فِي الروح من طريق الذوق والنقل، وقد نَهى العلماء عن الكلام فيها، لأن الله تعالَى أبْهم أمرها على خلقه ولَم يُعْلِم بِها رسوله عليه السلام فقال له حين سُئِل عنها ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، وقال ابن السبكي: (والروح لَم يتكلم عليها محمد صلى الله عليه وسلم، فوجَب الإمساك عنها)، إلا أن أهل الباطن أطلعهم الله تعالَى على بعض أسراره التِي أخفاها عن جملة خلقه، كما أطلعهم على متشابه كتابه العزيز وهي من جملته، فخاضوا فيها بإلْهامٍ منه تعالَى، والله تعالَى أعلم.

وقوله (هنا بدَتْ) الخ أي فِي هذا العالَم الجسمانِي ظهرتْ أسرار الذات بنفسها لنفسها، لكن لا يظهر ذلك إلا بعد انفصال الروح عن كل عادة وشهوة، فحينئذ ينكشف

لَها هذا السر، فتشاهد الحق عياناً جهراً، وما ذلك على الله بعزيز.

ثُم قال رضي الله عنه:

فكـــل حقيقـــة بـــضدها أظهـــرت   ولـيس علـى التحقيـق سـوى الحقيقـةِ

تنَزلـــت الأســـرار جهـــراً لِحكمـــة   وبأسـرار النّـزول صـارت فِـي رفعـةِ

تنَـزَّلْ لَهـا إنْ شـئتَ تـدري نزولَهـا   وإن كنـت فِـي الْمعـالِي كانـت عاليـةِ

فمـن لَـم يكـن عبـداً لكـل عبيـدها   علـى مـذهب تحقيـق أهـل الحقيقـةِ

فـلا يـدري سـرها الـذي بـدا جهـرة   وإن كانـــت ألفـــاظ المقالـــة قويـــةِ

يقول رضي الله عنه: كل حقيقة إنّما تظهر بضدها، فالمعنَى لا يظهر إلا فِي الحس، والقدرة لا تظهر إلا فِي الحكمة، والعز لا يظهر إلا فِي الذل، وهكذا الأشياء كامنة فِي أضدادها، وفِي التحقيق ما ثَمَّ إلا أسرار الحقيقة تلوَّنتْ، فقد تنَزلت الأسرار من عالَم الغيب إلَى عالَم الشهادة جهراً لِحكمة، أي لعالَم الحكمة، أو لِحكمة التعريف بِها، وبذلك التنَزل مع الخفاء صارت رفيعة القدر عظيمة الشأن، فإن شئت أن تدري نزولَها وتعرفها فتنَزَّلْ لَها بالذل والافتقار، وأما إن كنت بقيت فِي عزك وعلوك كانت تلك الأسرار عالية عنك بعيدة منك لا تنالُها ولا تطمع فيها. قال الشاعر وهو ابن الفارض رضي الله عنه:

تَذَلَّلْ لِمن تَهوى فليس الْهوى سَهْلُ   إذا رضيَ الْمحبوب صَحَّ لك الوصْلُ

وقال أيضاً:

إذا كـان مـن تَهـوى عزيـزاً ولَـم تكـنْ   ذلـيلاً لـه فـاقْرَأ الـسلام علـى الوصـل

ولا بد فِي نيلها من صحبة الرجال وخدمتهم وتقبيل التراب تَحت أرجلهم، فمن لَم يكن عبداً لأهلها فلا يطمع فِي إدراك سرها الذي بدَى جهرة وإنْ كان له شقشقة اللسان فحَظُّه منها لسانُه، وفِي الحديث (شِرارُ أمتِي الثرثارون الْمتشدقون الْمتفيقهون، وخيارُ أمتِي أحاسنُهم أخلاقاً).

ثُم قال رضي الله عنه:

فكـل علـم لا يـصحب الفعـلُ جنبـه   فإنـه علـى التحقيـق خـالِي الحقيقـةِ

وكل صورة الفعل يبقى خيالُها تشاهدها الأسرار فارحلْ بسرعةِ

وقلدْ سيوف العزم واركب خيولَها وقاتلْ جيوش الوهم فِي كل ساعةِ

يقول رضي الله عنه: فكلُّ علم لا يصحبه عمل فهو خالِي من الحقيقة، ففِي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم (العلم خليل الْمؤمن، والعقل دليله، والعمل قيمه، والحلم وزيره، والصبر أمير جنده، والرفق والده، واللين أخوه) أخرجه ابن حبان.

وعلامة العقل العملُ بطاعة الله، فعِلْم الحقيقة إذا لَم يصحبه عملها وهو التجريد والتخريب والزهد والورع، فهو دعوى فارغة، وكل عمل وفعل لا بد أن تبقى صور خياله فِي القلب ويظهر ذلك على الجوارح من التواضع والسكينة والحلم والعفو وغير ذلك من مكارم الأخلاق، فما كمن فِي السرائر ظهر فِي شهادة الظواهر، وما خامر السريرة فعلَى الأسرة يلوح، فالتجريد الحقيقي هو الذي يظهر أثره على صاحبه من مكارم الأخلاق ونبع العلوم والْحِكَم على لسانه، فارحَلْ أيها المريد إلَى الله بسرعة، وتَقلَّدْ سيوف العزم، واركبْ خيول الجمْع، وقاتِلْ جيوش الوهم فِي كل ساعة، فحينئذ تشرق على قلبك أنوار الحقائق، وتنبع على لسانك أسرار العلوم والحكَم، وإلا بقيت جاهلاً خاوياً مدعياً باطلاً، والعياذ بالله.

ثُم حذر من الوقوف مع علم الفرقيات، فقال:

ولا تقنعْ بعلم الفروق قناعة فأكثر أهله جُهَّال الطريقةِ

وفِي علوم المعانِي كن متبحراً ولا تزد فِي سواها فوق الكفايةِ

فكم عارف نال المعانِي ببعضها ونال مراده فِي أقرب ساعةِ

وكم تالف له الكثير من أمرها وقلبه معلول بأعظم علةِ

يقول رضي الله عنه: ولا تقنع أيها الْمريد بعلم الفروق وهو علم الظاهر فإنه يقسي القلب ويشتت الفكر، فأكثر أهله جُهّال بعلم الطريقة، فلا تأخذ منه إلا ما تتقن به فرضك، وكُنْ فِي علوم الْمعانِي مُتبحراً وهو علم التصوف، فإنه طريق لإدراك أسرار الْمعانِي وهي أسرار الذات التِي قامت بالأشياء وسَرَتْ فِي كلياتِها وجزئياتِها، فقَلَّ من الْمتوجهين مَنْ أدركها، ولا تزدْ على علم التصوف فوق الكفاية من علوم الشريعة شيئاً،

فقد قام بِها أربابُها من علماء الظاهر. نَعَمْ إنْ كان حصَّلها قبل التوجه للتربية فهو خير على خير، ويكون له سَهْمان فِي غنيمة الحضرة، كالفارس مع الراجل، وأما الاشتغال بِها بعد التوجه وقبل التمكين فبِطالة ووقوف عن السير، فكم عارف كامل نال الْمعانِي العظيمة ولَم يأخذ من علم الشرائع إلا القليل ونال مراده فِي أقرب ساعة، وكم تالِفٍ نال الكثير من علم الفروقات وتَبحَّر فيها وقلبُه معلول بأعظم العلل كالكِبْر والحسد والبخل وهم الرزق وخوف الخلق وحب الدنيا، وقد رأيت بعضهم دَخَله الوسواس فِي علم التوحيد ولعِبتْ به الخواطر الرديَّة، وبعضهم دخله الاعتزال القبيح واستحسن مذهب المعتزلة وأخذ به، والعياذ بالله من درك الشقاء وسوء القضاء والسلب بعد العطاء، فالجهل أحْسن من هذا وأحمد عاقبة.

والحاصل مَنْ لَم يَمُنَّ الله عليه بصحبة العارفين مات مغبوناً، وفِي سجن الكائنات مسجوناً، وبالله التوفيق، وهو الْهادي إلَى سواء الطريق.

ثُم قال رضي الله عنه:

فعلمٌ فِي القلب نور يهديك نوره ... ويُرشدك إلَى الطريق الناجيةِ

وجهل له ظلام في النفس دائما ... يسير بِها إلَى البلاد الخاليةِ

فمن له عين العلم يرى بنورها ... ومن له عين الجهل أعمى البصيرةِ

ستر رداء الوهم مرآة قلبه ... وأغشاها ليله بأقبح ظلمةِ

وأبصر ظاهر الأكوان بعينها ... وصارت كلا فِي لبِّه مستقرةِ

يقول رضي الله عنه: فعِلْمٌ فِي القلب، وهو العلم بالله وبصفاته، نورٌ يهديك ذلك النور ويرشدك إلَى الطريق الناجية من الْهلاك والموصلة إلَى غاية الفلاح، وهذا هو العلم النافع، وفِي الحِكَم: العلم النافع هو الذي ينبسط فِي الصدر شعاعُه ويكشف عن القلب قناعه. وهذا هو علم التصوف، فإنه يطهر القلوب من العلل، ويورثها الخشية والْهيبة والإجلال، ويوصل إلَى نِهاية الْمعرفة، ويُزهد فِي الدنيا ويرغب فِي اللقاء.

وأما العلم الظاهر فلا يزيد صاحبه إلا رغبة فِي الدنيا ورئاسة وحرصاً، إلا القليل، ومع ذلك يزعمون أنّهم حازوا الْمراتب العالية وأنّهم قاموا بالسنة المحمدية،

وهم أبْعد شيء منها، وقال يحيَى بن معاذ الرازي رضي الله عنه لعلماء وقته: (يا معشر العلماء، دياركم هامانية، وأطعمتكم فرعونية، ومراكبكم قارونية، وولائمكم جالوتية، ومآثِمكم جاهلية، وقد صيّرتُم مذاهبكم شيطانية، فأين السنة المحمدية؟).

وقوله: (وجهل) أي وجهل بالله (له ظلام فِي النفس) وهو غم الحجاب وتوارد الخواطر الرديئة والوساوس الشيطانية، يسير بِها إلَى بلاد الغفلة الخالية من نور الذكر واليقظة، أو إلَى بلاد الحس الخالية من الْمعنَى، فمَنْ له عيْنُ العلم بالله وهي البصيرة المفتوحة يرى بنورها حقائق الأشياء ويُميّز ما يضرّه وما ينفعه، ومن لديه عيْن الجهل فهو أعمى البصيرة لا يدرك إلا الكائنات الحسية فيحجب بِها عن أسرار الْمعانِي الأزلية، وفِي ذلك يقول سيدي عبد الرحمن المجذوب رضي الله عنه:

من نظر الكون بالكون عَزِّه فِي عمَى البصيرَا
ومن نظر الكون بالْمُكَوِّن صادف علاج السريرا

قد ستر رداء الوهم، أي توهم الغير، مرآة قلبه وسوَّدَها، وأغشاها ليلُ وجوده وظلمها، فلم ير إلا ظلمة الكون خالياً من نور الْمكوِّن، وفِي الحكَم: (الكون كله ظلمة، وإنّما أناره ظهور الحق فيه، فمَنْ رأى الكون ولَم يشهد الحق فيه أو قبله أو بعده أو معه، فقد أعوزه وجود الأنوار، وحُجبت عنه شُموس العرفان بسُحب الآثار).

وأبرز أيضاً خيال الأكوان، أي أظهر وجودها توهماً، إذ لا وجود لَها مع الله فِي الحقيقة، وأثبتها عقلُه القصير لغفلته، ولوْ كَمُلَ عقله وتيقظ من غفلته لَم يَر مع الله شيئاً. وأبصر أيضاً ظاهر الأكوان بعين ذاتِها، وغاب عن باطنها، فاغترَّ بِحسها عن معناها، وفِي الحِكَم: الأكوان ظاهرها غِرَّة وباطنها عِبْرة، فالنفس تنظر لظاهر غرتِها، والقلب ينظر إلَى باطن عبرتِها. وسئل صلى الله عليه وسلم: مَنْ أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ فقال: الذين نظروا إلَى باطن الدنيا حين نظَرَ الناس إلَى ظاهرها واهتموا بآجلها حين اهتم الناس بعاجلها، الحديث. ومَنْ وقف مع ظاهر الكائنات انطبعت كلها فِي مرآة قلبه فظَلَّمتْه وسوَّدَتْه، (كيف يُشْرِق قلبٌ صُوَرُ الأكوان منطبعةٌ فِي مرآته) كما فِي الحِكَم.

ثُم قال رضي الله عنه:

فنـاظِر للأشـياء بعـين ذاتِها ... جاهـل وإن قـام برسـم الـشريعةِ

ومُبـصرها بنـور عـين صـفاته ... لـه علـم بـبعض الأسـرار العاليـةِ

وناظرهـا بعـين ذات جَمالـه ... ولايتـه أعلـى مـن كـل ولايـةِ

فإنـه فِـي أقـصى الكمـال إذا صـحى ... وإلا فمَغْـرُوقٌ فِـي بَحـر الحقيقـةِ

وواقـف فِـي العـالَمَيْن ولـم يَمِـلْ ... كثيـرا هـو الإمـام عنـد الأئمـةِ

لـه رؤيـة فِـي الـشيء والـشيء لَـم يكـن ... سـوى لفظـه المـشير بـه لِحكمـةِ

يقول رضي الله عنه: قَسَّمَ رضي الله عنه الناس على ثلاثة أقسام:

قسم يرى الأشياء الحسية بعيْن الحس وهي عين الفرق، فالناظر مفْرُوق ويرى الأشياء مفروقة، فهذا جاهل بالله يصدق عليه قول المجذوب (من نظر الكون بالكون عَزّةْ فِي عمى البصيرَا)، وإنْ قام برسم الشريعة فِي الظاهر، فقد تشرَّع ولَم يتحقق، فهو فاسقٌ.

وقسمٌ يرى الأشياء الحسية بعين القدرة الأزلية، والأشياء كلها قائمة بالقدرة الأزلية، فهو يعتقد أنه يرى بقدرة الله، والأشياء قائمة بقدرة الله تعالَى، ويعبر عن هذا الْمقام بالفناء فِي الصفات وهو نِهاية الصالِحين، فهذا له علمٌ ببعض الأسرار وهي أسرار الصفات، وفاتَه أسرار الذات.

وقسمٌ يرى الأشياء بعين الله، والأشياء كلها عنده نور من أنوار جماله وجلاله، فهذا ولايته أعلى من كل ولاية، يصدق عليه قول المجذوب (ومَن نظر الكون بالْمكوِّن صادف علاج السريرَا)، فهو فِي أقصى الكمال إذا صحَى من سُكره وخرج من سُكر الفناء إلَى صحو البقاء، وإلا فمَغْرُوقٌ فِي بحر الحقيقة غَلَبَ سكرُه على صحوه وفناؤه على بقائه، فهو غريق الأنوار مطموس الآثار، وهذا أيضاً ولِي الله حقّاً، ومَن وصَلَ إلَى هذا الْمقام فالكمال لاحقٌ له، لأن الفناء ضامن للبقاء، والسكر الحقيقي ضامن للصحو إذا ثبت تَحت تربية الْمشايخ. ومَن وقَف بين العالَميْن عالَم القدرة وعالَم الحكمة أو عالَم الأشباح وعالَم الأرواح أو عالَم التشريع وعالَم التحقيق، ولَم يَمِلْ إلَى واحد منهما، بل يُعطي الحقيقة حقها والشريعة حقها، فهذا هو الإمام الكبير عند الأئمة الذي

يصلح للتربية بالاصطلاح والْهمة والحال، له رؤية فِي الشيء الحسي فيُعطي الحس حقّه من أحكام العبودية، وهو فِي الحقيقة لَم يكن سوى لفظه الْمشير به لعالَم الحكمة، ولا بد من إثبات الحس ليقوم عالَم الحكمة، والغيبة عنه بشهود عالَم القدرة وهو شهود الذات الأقدس، والله تعالَى أعلم.

ثُم قال رضي الله عنه:

فرؤيـــة الكـــون بالْمعـــانِي عزيـــزة	ومـــن عثـــر عليهـــا فـــاز بعـــزةِ
فكـن متمَّ السلوك إن شئت وصلة	وجنـبْ دسـائس النفـوس الْخفيـةِ
وإن غفلـت نفـس جالـت فِي عالَمها	وأهواهـا حسنه الْمجازي فِي لَمحةِ
وتعظـــم ظلمـــة النفـــوس بليلهـــا	وتـأتِي لـك الأوهـام مـن كـل جهـةِ
وتبـدو لـك صـورة ظـاهر نفـسك	وتنطبـــع فيهـــا الأشـــياء الفانيـــةِ

يقول رضي الله عنه: فرؤية الأشياء بالله عزيزة لأنّها مقام الفناء فِي الذات، ومَن عَثَر عليها فاز بعزّة ورفعة عند الله، لأنه من السابقين المقرَّبين، فكُنْ أيها الْمريد تام السلوك فِي أول سيْرك إن شئت وصلة لشهود الْحق، فالولِي الذي يتبدئ السلوك ثُم يتداركه الجذب أكمل، لأنه يعرف مِنْ أين سار ويقاسي شدائد الطريق وأهوالَها لأنه يحس بكل ما يصيبه من الجلال، بِخلاف من يبتدئه الجذب والسكر فإنه يكون ناقص التربية، إذ لا يدري كيف سار ولا يذوق حرارة المجاهدة ومكابدة الأحوال والأهوال، فمثاله كمَن طار إلَى مكة ورجع، بِخلاف الأول فإنه سلَك الطريق وعرف وعْرَها وسهلها، فقد عرف دسائس النفوس ومَخادعها فيُسير الناس من حيث سار.

وحقيقة السلوك الأول شهود خلق بلا حق، وحقيقة الجذب شهود حق بلا خلق، والسلوك الثانِي هو شهود حق بِخلق أو شهود خلق بِحق، فجَنِّبْ أيها المريد دسائس النفس الخفية والجلية واصحبْ من يعرفك بِها، وراقبْ نفسك في الحضور مع الله، فإنك إنْ غفلت عنها جالتْ فِي عالَمها الظلمانِي بالتدبير والاختيار والخوض فِي أمور الدنيا فيَهْوِيها حسنه الْمجازي أي يسقطها ويَحطها عن درجة الكمال فِي لَمحة

واحدة، لأن عالَم الحس جميل عند النفوس الحسية فتعشقه وتَهواه وتَميل إليه، فلا فكْرة لَها إلا فيه ولا مَيْلَ إلا له، فإنْ جاهَدها ورَدَّ عنها بالْمراقبة والغيبة ارتقتْ إلَى عالَم الْمعانِي فتستغرق فكرتُها فيه وتعشش فِي الحضرة، وإنّما تعظم ظلمة النفوس بظلمة ليل وجودها، فلو فنِيتْ عنها لأشرق عليها نَهار وجود الحق فيدوم نَهارها، كما قال الشاعر:

لَيْـــــلِي بوجهـــــك مـــــشرق وظلامـــــه فِـــي النهـــار ســـارِ
النـــاس فِـــي صـــدف الظـــلام ونَحـــن فِـــي ضـــوء النهـــار

أي ليل وجودي مشرق بشهود وجه ذاتك الخ، وتأتِي لك الأوهام من كل جهة إن بقيت فِي ظلمة ليل وجودك وسجن دائرة حسك، وتبدو لك صورة نفسك فتهتم بأمورها فيدخلك هم الرزق وخوف الخلق وغير ذلك من شؤونِها، وتنطبع فِي مرآة قلبك الأشياء الفانية، فلا تشهد إلا الفانِي، إذ لا يشرق القلب بأسرار الْمعانِي وصور الأكوان منطبعة فِي مرآته، كما هو معلوم.

ثُم قال رضي الله عنه:

فللمعنَـــى إن كانـــت صـــافية للمـــرا وإن كانـــت بالكـــدر للحـــس مـــرآةِ
فكـــــل شـــــيء تقابلـــــه بـــــسرها يُقابلهـــا والمعنَـــى أشـــرف حالـــةِ

يعنِي أن البصيرة إن كانت صافية، كانت مرآته للمعنَى لا يَتجلَّى فيها إلا هي، وإنْ كانت مظلمة بالكَدر كانت مرآة للحس لا يَتجلى فيها إلا الحس، فالبصيرة كالْمرآة، كل شيء تُقابله يُقابلها وينطبع فيها، فإن قابَلتها الْمعانِي انطبعت فيها وكانت فكرتُها كلها فيها، وإنْ قابَلها الحس انطبع فيها وكانت فكرتُها كلها فِي الحس، والْمعنَى أشرف حالة وأكمل عناية، فينبغي الاعتناء بشأنِها وإفراغ الجهد فِي تحصيلها، فيطهر قلبه من الأغيار حتَّى يَملأه بِمعانِي الأسرار، فَرّغْ قلبَك من الأغيار تَملأه بالْمعارف والأسرار.

ثُم قال رضي الله عنه:

وهمـة مـع أسـباب تقـضي جميـع مـا فِـي الوقـت تريـده فِـي أسـرع لَمحـةِ

بتلك السّرين قام سرّ وجوده بقدرته وحكمته العاليةِ
فكُنْ جامعاً لِشأن هِمة سرك على مَحبوب القلوب تعطى الولايةِ
وتأتِي علوم النفس كالسيل نازلاً فلم يُحصها سوى كبير العنايةِ
وتلك علامة تجلي معانيها بوجه جَمالِها لعين السريرةِ
وقد بدا فِي الأزل للروح كيف شَا كذلك يبدو فِي الأبد لِحكمةِ
فكُلُّها أوجه إذا صفى مرآها لذلك يبدو إليها فِي كل وجهةِ
فأنت بِها عظيم الجاه ولكنّي أراك عن سرها فِي أعظم غفلةِ

يقول رضي الله عنه: إذا كان للمريد همة قوية وعزم قوي على الوصول، مع تعاطي شيء من أسباب الوصول كالصحبة والتجريد وشيء من خرق عوائد النفس، فإنه يقضي جميع ما يريد ويدرك كل ما يؤمل فِي أسرع لَمحة، وكان الشيخ رضي الله عنه يقول لِمن يشتكي له بنفسه: (انْس نفسك بالله، واعتمدْ على فضل الله، وامتثلْ شوي وينوب الله)، فبالْهمة والحال وما تيسَّر من الأسباب قام الوجود بأسره بقدرته وحكمته، لكن عالَم القدرة لا يحتاج إلَى شيء، وإنّما عالَم الحكمة هو الذي يتوقف على الأسباب كالْهمة والحال، وأما عالَم القدرة فبَيْن الكاف والنون بل أسرع، لكن القدرة لا تنفكُّ عن الحكمة، ليبقى السر مصوناً، فالحق تعالَى كما حجب ذاته بِما أظهر من قوالب العبودية، حجب صفاته بسر الحكمة، فالقدرة تُبرِز، والحكمة تستر، فلا تبرز القدرة إلا برداء الحكمة، إلا على وجه خرق العادة كالْمعجزة للأنبياء والكرامة للأولياء والسحر والشعوذة للأغوياء، ويُسَمَّى عالَم القدرة عالَم الأمْر، وعالَم الحكمة عالَم الخلق، قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾.

فَكُنْ أيها الْمريد جامعاً لِهمتك على مَحبوب القلوب، تُعْطَ الولاية الكبرى من الْملك القدير، وتكاشف بأسرار الغيوب، وتأتِي لك علوم النفس التِي تطهَّرتْ وانقلبتْ روحاً كالسيل الغزير، فلا يُحصيها إلا العليُّ الكبير أو من سبقتْ له العناية الكبرى من الْملك القدير، فهذه علامة تَجلّي معانِي الحقيقة بأنوارها وجَمالِها لعيْن السريرة، فإن الحقيقة إذا تَجلت للروح لا بد أن يظهر آثارها عليها، فإن كانت من

أهل الباطن ظهر ذلك على الباطن من فيض العلوم وفتح مَخازن الفهوم ويرشح على الجوارح بِمكارم الأخلاق، وإن كانت من أهل الظاهر ظَهَرَ على الظاهر بالكرامات والخوارق، وإنْ كان جامعاً بين الظاهر والباطن ظَهَرا عليه معاً كالجيلانِي والشاذلِي وأضرابهما، فما هي إلا حقيقة واحدة ظَهَر آثارها، فأهل الباطن شعروا بِها، وأهل الظاهر لَم يشعروا بِها، وهذه العلوم أعنِي علوم الربوبية كانت للروح فِي الأزل فِي التجلي الأول كيف شاء سبحانه، فإذا تطهرت ورجعت لأصلها رجع لَها ذلك فِي الأبد على قدر التصفية والتطهير، فهذه كلها أوجه لآثار الحقيقة إذا صفَتْ مرآة الروح، فمِنْها ما تبرز له بالعلوم وتفتح له مَخازن الفهوم، ومنها ما تبرز له خوارق وكرامات، ومنها ما تجمع له بينهما، كمل ظاهره بالرياضات وباطنه بالتخلية والتحلية، فيبدو إليها ما قسم لَها من العلوم والخوارق فِي كل وجهة، فأنت أيها الإنسان بِسِرّ روحك عظيم الجاه رفيع القدر إن اعتنيت بشأنِها، لكنّي أراك عن سرها فِي أعظم الغفلة اشتغالاً بحظوظ النفس وشهواتِها، فتركتها فِي مزابل نَجاسة الدنيا مرمية، فحرمت أنوارها وأسرارها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثُم قال رضي الله عنه:

فإنْ كنت فِي الصورة خلقاً فيما يرى ... فأنت فِي غيرها أمور عظيمةِ

تَكِلُّ عنها الأفهام فِي شرح سرِّها ... تحَيّر فِي فهمها العقول الراشحةِ

فكُلُّ واصلٍ كَلَّ عنها لسانه ... وكامِلُنا يأتِي بلفظ الإشارةِ

فلو صَحَّ لك العلم بأمْر سرها ... لكنت بقدْرها عظيم الْمزيةِ

يقول رضي الله عنه: فإن كنت أيها الإنسان فِي الصورة البشرية خَلْقاً فيما يرى للناس، فأنت فِي غيرها بالنظر لِمطلق التجلي أَمْرٌ عظيم وسِرٌّ كبير لأنك قطعة نور جبروتِي، وفِي ذلك يقول الجيلانِي رضي الله عنه:

قطعتَ الورى من ذات نفسِك قطعةً ... فما هي ميطَت عنك فيها البَراقِعُ

وفِي الْمباحث:

فهذه حقيقة الإنسان ... حيث له أنْموذج ربّانِي

وَوَضْـعُه فِـي الكُتـب لا يَجـوزُ — بـل هـو كَنْـزٌ فِـي الـنُّهَى مكنـوزُ
إيـاك أن تطْمـع أن تَحـوزَه — مِـنْ دفتـرٍ أو شِـعْر أو أرجـوزه

وهذا معنَى قول الناظم (تَكِلُّ عنها الأفهام فِي شرح سرها)، لأنّها كنْز مدفون، وتَحار العقول الراشحة فِي إدراكها لأنّها سرّ ربانِي مصون، فكل واصل يكل عنها لسانه أي يقصر عن شرحها لا من جهة القالب البشري ولا من جهة السر الإلَهي، لأنَّ بدَنَ الإنسان حارتْ فِي عجائبه الحكماء فما بالك بروحه فما بالك بسِرّه، فالكامل من العارفين يأتِي بلفظ الإشارة، وأما العبارة فلا تَفِي بأسرار عجائبها، وقد قالوا (علْمنا كله إشارة، فإذا صار عبارة خفِيَ)، ومَنْ صرَّح بِهذا السر قُتِل كالحلاج وأضرابه، وفِي ذلك يقول الشاعر:

ومَـنْ فَهِـمَ الإشـارة فلْيَـصُنْها — وإلا سـوْفَ يُقْتَـلُ بالـسنانِ
كَحَـلاَّجِ الْمحبـة إذْ تَبَـدَّتْ — لـه شَـمسُ الحقيقـة بالـتَّدانِي

فلو صَحَّ لك العلم حقيقة بأمر سِرِّ هذه الصورة الآدمية وأنّها متصلة بالحضرة الأزلية القدسية، لكنتَ معتنياً بشأنِها معظماً لقدرها، فتكون عظيم الْمزية عند الله قريباً من حضرته، فتكون من الْمقربين فِي مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر، وبالله التوفيق.

ثُم قال رضي الله عنه:

فإنّهـا لـوح المعـانِي فـاذْر شـرفها — ولـوح العُـلا فيـه علـوم الخليقـةِ
مِـنْ سِـرِّها قـد تكـون جـسم لوحهـا — ومـن لوحهـا علومـه مـستمدَّةِ
فـذاك لـبعض القـوم يـشهد سِـرَّه — وهـذا علـى التحقيـق عـين الحقيقـةِ

يقول رضي الله عنه: فإنّها أي سر الصورة الآدمية لوح لأسرار الْمعانِي كلها، وهذا السر هو سر الخصوصية الكامنة فيها، فسبحان مَنْ سَتَرَ سرَّ الخصوصية بظهور وصف البشرية، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية، فهذا السر الذي وقع به التجلي فِي الصورة الآدمية هو السر الأكبر والْمظهر الأكمل، فالْمظاهر كلها تابعة له وخادمة له، بل هي فِي جزئياته، فهو لوحٌ لَها من جهة معناه كلها مجموعة فيه، كما أن اللوح الحسي مَجموع فيه علوم الخلائق، فهذا السر الآدمي مَجموع فيه الخلائق، فمِنْ

سِر هذه الحقيقة الإنسانية تَكَوَّنَ جسم اللوح ومِنْ علومها قد استمدَّ علومه، وهذا على طريق الفناء فإنه يذهب العبد ويبقى الرب، والرب تعالَى منه استمدت الأشياء حسها ومعناها، وهذا السر إنّما يكون لبعض القوم وهم أهل الفناء فِي الذات، أهل الحقيقة الذين يشهدون هذا السر من أنفسهم فيبصرون وجودهم هو عين الحقيقة الأزلية، والله تعالَى أعلم.

ثُم عَرَّفَ بالطريق الْموصل إلَى هذا السر، فقال:

فلازمْ خُمولَها بين الجنس دائماً ... ففيه صفاءُ السر من كل علةِ

فبقدْر دفْنها في عالم فرْقها ... يتجلى أمْرُها لعين البصيرةِ

فلازمْ وصف العبيد وكنْ عبيدهم ... ودعْ عنك جملة الأوصاف العاليةِ

بِها بعدت عن الإله حقيقة ... ولو دَنَتْ للأدنَى لصارت عاليةِ

فلولا قميص الذل ما صَحَّ عِزها ... ولولا رداء الفقر ما طابت لذةِ

فَخُذْها إلَى الثرى بألطف حكمة ... تَأْتِكَ من المعالِي بأعلى حكمةِ

يقول رضي الله عنه: فلازِمْ أيها الْمريد خمول نفسك وادفنها فِي أرض الخمول، فإن أردت أن تَجنِي ثِمارها، فما نبتَ من غيْرِ دفْنٍ لا يَتم نتاجُه، ويكون إظهار خُمولِها بين أبناء جنسها لتموت سريعاً، وخمولُها هو إظهار ما تسقط من أعين الناس كالتحمق وتخريب الظاهر، ويكون ذلك دائماً حتّى يتمكن من الحضرة، فبالخمول تصفى سريرتُها من كل علة. قال بعضهم (علْمُنا هذا لا يصلح إلا لأقوامٍ كُنِسَتْ بأرواحهم الْمزابل)، فبقدْر دفنها فِي عالَم الفرق يتجلى السر لعين بصيرتِها فِي عالَم الجمع، فتصير مَجموعة على الدوام، فلازِمْ أيها الْمريد وصف العبيد وهو الذل والفقر، وكنْ عبداً خادماً لعباد الله تكنْ سيدهم، كما فِي الخبر، ودعْ عنك جملة الأوصاف العالية كالعز والغنَى والتزيي بزي الْمترفين الأغنياء، فذلك بعيدٌ عن أوصاف أهل الإرادة والأولياء، فبِطلب العز والغنَى بعدتِ النفوس عن الله تعالَى حقيقة، ولو دَنَتْ للأسفل وتواضعت لله فِي عباده لصارتْ عالية الْمقدار وعظيمة الشأن، فلولا لبس قميص الذل ما تَرَدَّتْ برداء العز، ولولا تَرَدِّيها برداء الفقر ما طابت لذةُ عيشها، فما

طاب العيش إلا لأهل الخمول، وما طابت الأوقات إلا للفقراء فهمُ السلاطين والسادات والأمراء، ولله در الششتري حيث يقول فِي بعض أزجاله:

ودَعِ العذول من بَرًّا ... يَدور فِي عتاب

ونَحن جَميع الفقرا ... فِي عَيْشٍ خَصيب

والْمراد بالعذول هنا الشواغل والعلائق، وأصل العذول فِي اللغة اللَّوَّام جَمْعُ عاذل، ويجمع أيضاً على عذال، فَخُذْ نفسك وجرها إلَى بلد الخمول بسياسة وألطف حكمة، تأتك من حضرة الْمعالِي بأعلى حكمة وألطف سِر، كما قال أبو سليمان الدارانِي (إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام، جالتْ فِي الْملكوت وعادتْ إلَى صاحبها بلطائف الحكمة، مِنْ غير أن يؤدي إليها عالِمٌ عِلْماً)، والركون إلَى العُلو أو صحبة أهله لا يخلو من الإثم قطْعاً كما هو مُجرَّب.

ثُم قال رضي الله:

فلا عِلْمَ لِمَنْ كان بوصف نفسه ... فنور نَهاره مَحجوب بظلمةِ

ولا جهل لِمن زالت ظلمة ليله ... وبدت شُموسه بنور مضيئةِ

إذا شئت معنَى السر فَادْنُ إلَى الثرى ... ولا ترفعْ منك عضواً فوق البريةِ

فلو كنت تدري معنَى سر وجودهم ... لكنت لَهم مَجلى فِي كل حالةِ

فَعِلْمٌ على التحقيق يخرق كَوْنَهُمْ ... ويفنِي وجودهم فِي أسرع لَمحةِ

وتبدو لك حقيقة كل مظهر ... وتدري بعد التحقيق معنَى مقالةِ

يقول رضي الله عنه: لا عِلْمَ لِمن كان محجوباً بوصف نفسه ورؤية وجودها، ساعياً فِي هواها، راضياً عنها، مغطياً لِمساوئها، بل ما لَه إلا الجهل، فنورُ نَهاره محجوب بظلمة وجوده، ولا جهل لِمن زالتْ عنه ظلمة ليل وجوده، وبدتْ شُموس نَهاره، بظهور معبوده، بعد أن غاب عن أوصاف نفسه، ولَم يرض عنها طرْفة عين، فهذا هو العلم النافع، وإلَى هذا أشار فِي الحِكَم بقوله: (ولأَنْ تَصْحَبَ جاهلاً لا يرضى عن نفسه خيْرٌ لك من أن تصحب عالِماً يرضى عن نفسه، فأيُّ علْمٍ لِعالِمٍ يرضى عن نفسه، وأي جهْل لِجاهل لا يرضى عن نفسه)، فإذا شئت أن تذوق معنَى سر التوحيد الخاص،

فاتَّضِعْ واذْنُ إلَى أرض الخمول، ولا ترفعْ عضواً فوق عباد الله، لأنك تكون متكبراً ولا يدخل الجنة مَنْ فِي قلبه مثقال ذرةٍ من كِبْر، ولو كنت تعلم سِرَّ وجودهم ومِنْ أين جاءوا وظهروا لكنت معظماً لَهم فِي كل حالة، لأنّهم مظاهر سر الربوبية ومطالع حضرة الألوهية، ولله در القائل:

فَلَمْ يَبْقَ إلا اللهُ لَمْ يَبْقَ كائِنُ   فَما ثَمَّ مَوصول ولا ثَمَّ بائِنُ
بِذَا جاءَ بُرْهانُ العِيانِ فَما أرى   بعينِي إلا عيْنَه إذ أُعايِنُ

فعِلْمُ الفناء هو الذي يخرق كونَهم ويفنِي وجودهم على التحقيق فِي أسرع لَمحة، لكن لا بد مِنْ إثباتِهم لقيام عالَم الحكمة بقاءً، والغيبة عنهم فِي شهود الحق فناءً، فالحق إنّما تَجلَّى بين الضديْن، فالفناء بلا بقاء نقص، والبقاء بلا فناء حجاب وجهل، والجمع بينهما كمال، وتَبْدُو لك فِي مقام الفناء حقيقة كل مظهر، فتعرف الحق لأهله، وتثبت الفرع عن وجود أصْله، ولا تدري هذه الْمقالة إلا بعد دخول علم التحقيق وهو التوحيد الخاص، والله تعالَى أعلم.

ثُم قال رضي الله عنه:

فكُلُّ علمٍ لا يأتِي بك لذلة   فلا بد أن تأتيك منه الْمذلةِ
فكُنْ كالذين صارت نفوسهم كالفضا   وهامت كل الأرواح منهم بفكرةِ
وأظهرت لَهم منه أعظم آية   فِي باطنهم فاستجمعت كل آيةِ
ولنفسهم بدت حقيقة نفسِها   وطوتْ على التحقيق كل حقيقةِ

يقول رضي الله عنه: فكل علْم لا ينْزل بصاحبه إلَى أرض التواضع والذلة والانكسار فِي الظاهر، فلا بد أن يأتيك منه الذل والفقر فِي الباطن، فعُلُوُّ الظاهر يقضي بذل الباطن، وغنَى الظاهر يقضي بفقر الباطن من نور اليقين، فتَراهُ أسيراً فِي يدي نفسه عبداً لِهواه خادماً لدُنياه، باطنه خالٍ من نور اليقين مَحْشُوٌّ بوساوس الشيطان، فأيُّ ذُل وأي فقر أقبح من هذا، قال بعض الحكماء (طالبُ الدنيا أسير، وطالب الآخرة أجير، وطالب الحق أمير)، فكُنْ أيها الْمريد معتنياً بتصفية باطنك، غائباً عن نفسك فانياً عنها، فقد تلطفتْ عوالِم نفسك واتسعتْ دائرة معناك حتّى صارت نفسك كالفضاء، قد اتصلت بالفضاء الْمحيط بك، وهذا وصف العارفين قد صارت

نفوسهم كالفضاء، وهامتْ أرواحهم فِي بِحار الأحدية، وجالتْ أفكارهم فِي بحر الملكوت والجبروت، وظهرتْ لَهم أعظم الآيات وهي كشف الحجاب عن أسرار الربوبية وأنوار الألوهية، فاستجمعت لَهم فِي باطنهم كل آية، وحازوا من الله كل كرامة، وظهرتْ لَهم حقيقة نفوسهم فعَرَفوا الله بِمعرفتها، لقوله عليه السلام (مَنْ عرَف نفسه عرف ربه)، وقيل هو من كلام يحيَى بن معاذ الرازي وهو الصحيح عند أهل الحديث كما قال النووي رحمه الله، ومعنَى الحديث إنْ صَحَّ أن مَنْ عرف ربه فِي نفسه عرفَ ربَّه فِي غيره، وهذا معنَى قول الشيخ (وطوَتْ على التحقيق كل حقيقة)، أي عرفت نفسك الْمعرفة الحقيقية فقد انطوى فِي معرفتها جميع الحقائق، والله تعالَى أعلم.

ثُم قال رضي الله عنه:

بأعظم علمِكَ ظهرت لأهلك ... بأكمل سرك لعيْن السريرةِ

أزلت وجودهم بسر وجودكَ ... وليس لَهم وجود قبل الإزالةِ

فكنتَ ولَم يكن سواك حقيقة ... سوى تلوين الجمال زاد فِي عزةِ

تعاليْتَ عَمَّا لا يناسب حالك ... لأنك مفرد بالذات العاليةِ

فلِلّه ما أظهر سرّ جَمالها ... ولله ما أخفاه بألطف حكمةِ

يقول رضي الله عنه: قد ظهرت لأهل العلم بك بأعظم العلم وأعلى السر، وتَجليت بأكمل سرك لعيْن سريرتِهم، فاستدلوا بك على غيرك، فلَمْ يَجدوا سواك، وأزلت وجودهم أي غَيَّبْتَهم عن شهود وجودهم بشهود سِرِّ وجودك، وليس لَهم وجودٌ قبل تلك الإزالة، بل كانوا لا وجود لَهم مع الحق، لكن الوهم والجهل بك أثبت وجودهم، فلما حصل لَهم العلم بك وجَدُوا نفوسهم لَم تكن شيئاً، وكذلك سائر الْموجودات لا وجود لَها مع الحق، بل هي ثابتة بإثباته مَمْحُوّة بأحدية ذاته، فكنت وحْدَك ولَم يكن شيئاً سواك فِي الأزل وفيما لا يزال سوى تلوين الخمرة الأزلية. هو الذي ظهر بألوان مختلفة: هذا سَماء مرفوع، وهذا بساط موضوع، وهذا ماء مغرق، وهذا نار مُحرق، إلَى غير ذلك من ألوان الجمال والجلال، فزاد ذلك فِي عزته وقهريته،

فلا يعرفه إلا الأقوياء من الأبطال، تعالَيْتَ عمَّا لا يناسب حال عزتك وجلالتك من النقائص، وتنَزهْت عن الشركاء والأضداد والأنداد، لأنك مفرد بذاتك وصفاتك وأفعالك، ومن عزتك أنك أظهرت فيما أبطنت، وبطنت فيما أظهرت، فلله ما هذه الخمرة: ما أظهر سرّ جَمالِها، وما أخفاها فِي ظهورها، أظهرها بقدرته، وأخفاها بِحكمته، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾، فاسْمه تعالَى الظاهر يقتضي عدم ظهور شيء معه، لأن لفظه ﴿ هُوَ ﴾ يقتضي الحصْر، أي هو الظاهر لا غيره، فلا ظهور لشيء معه تعالَى، وهذا مَحَطُّ العارفين، لا يروْن معه شيئاً، واسْمه الباطن يقتضي وجود شيء يكون به البطون والاختفاء وهو صورة قوالب العبودية وأوصاف البشرية، وهذا مَحَطُّ نظر أهل الحجاب من الغافلين، لَم يعرفوا إلا اسْمَه الباطن، وفسَّروا قوله تعالَى "هو الظاهر" بإظهار دلائل وجوده، فاحتجبوا باسْمه الباطن عن اسْمه الظاهر، كما أن أهل الفناء فِي الذات احتجبوا باسْمه الظاهر عن اسْمه الباطن، وأهل البقاء فتَحوا العينيْن معاً: عيْن الجمع وعين الفرق، فلم يحجبهم جمعُهم عن فرقهم ولا فرقُهم عن جمعهم، جعلنا الله منهم بِمنه وكرمه.

ثُم زاد وضوحاً لِهذه الْمسألة، فقال:

حكمتَ على الأسرار بالستر والْخَفا	وهي كشمس الأفق حين تجلتِ
لشدة كشفها أخفيت ظهورها	سَترتَها عن أهل انطماس البصيرةِ
يرونَها والعقل القصير يظنها	سواها وهي عين كل آنيةِ
فبسر اسْمك القاهر سترتَها	لك الْحمد أنعمت بأعظم منةِ
رفعت رداء القهر عن عين سرنا	نظرنا بِها إليها أحسن نظرةِ
تَمتعنا فِي بَهاء حسن جَمالِها	رأيناها عياناً بعين العاليةِ
فرؤيتها شرْع لأهل كمالِها	بعين معانيها تفهم إشارتِي

يقول رضي الله عنه: حكمتَ على أسرار ذاتك بالستر والخفاء بعد إظهارها كشمس الأفق، لئلا تُرى للناس كافة، فلو تَجلى سبحانه بالصمدانية الأزلية مِنْ غير رداء الحس وأوصاف العبودية لكان ظاهراً بلا بطون، فتبطل مزية العارفين ويلزم بطلان كثير

من أسْمائه تعالَى كما تقدَّم، فلشدةِ ظهورها خفيتْ عن أهل البصيرة الْمطموسة فهم يرونَها ويشاهدونَها وعقلُهم القصير يظنها سواها، أي لأن العقل مقفول لا يدرك إلا وجود الصنعة، وهي تفتقر إلَى صانعها، والعارفون يروْن الكل عيْنَ العيْن، كل آنية حاملة لأسرار الْمعانِي القائمة بِها، بل هي عيْنها، وفِي الحِكَم (مِما يدلك على وجود قهره سبحانه أنْ حجبَك عنه بِما ليس بِموجود معه).

ثُم حمد الله على رفع الحجاب والتَّمتع فِي شهود الأحباب، رآهم بعينهم القديمة فِي مقام الفناء.

ثُم ذكر أن رؤية الحق جائزة شرعاً، إذ لولا جوازها ما طلبها سيدنا موسى عليه السلام، وواقعة لأهل الكمال يرونه بعَيْن القِدَم لا بعيْن الحدث، فيروْن الحق بالحق، وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي الأبصار الحادثة، وإنّما تدركه الأبصار القديمة بعد فناء رسوم الحديثة، أو لا تدركه الأبصار وإنّما تدركه البصائر، لكن إذا استولَى نور البصيرة على البصر أدرك البصر أي تدركه البصائر، أو لا تدركه أي لا تحيط به الأبصار، فإن إدراك كنه الربوبية مُحال، إذ لو كان ذلك لَمْ يَبْق شرف للعارفين، أو لا تدركه كل الأبصار بل بعضها وهي أبصار العارفين، والله تعالَى أعلم.

ثُم خَصَّ كمال الرؤية بسيد الوجود وينبوع العلم والجود، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، فقال:

وغايـة سـرها وأعظـم أمْرهـا	لقطـب جمالِهـا وخيـر البريـةِ
لأنـه شَمـسها ونـور بَهائهـا	وعـين كمالِهـا وبَحـر النهايـةِ
فـلا أحـد يَحـوم حـول مقامـه	لقـوة أنـوار التجلـي العظيمـةِ
وجبريـل فِـي الإسـراء لـو زاد خطـوة	لأحرقـت جـسمه الأنـوار القويـةِ
فـذاك مقامـه فِـي القـرب وحـده	وأحمـد زاد فـوق مـا لا نِهايـةِ
فلـو بـدا مـا بـدا إلَـى الـورى جملـة	لأفنَـى وجـودهم فِـي أسـرع لَمحـةِ

يقول رضي الله عنه: وغاية سر الرؤية ونِهاية أمرها، لِقطب الوجود، وبذرة كل موجود، ومنبع العلم والْمكارم والجود، سيد العارفين، وقدوة الواصلين، سيدنا ومولانا

محمد صلى الله عليه وسلم، فقد خصّ برؤية وشهود لَم يكنْ لأحدٍ قبله ولا بعده، لأن الله تعالَى قَوَّاه على حمْل ما لا يطيق غيره، فيتجلّى له بتجلٍ خاص لا يحمله غيره، وكيفَ لا وما وقعَ من التجلي الأول إلا لأجله، وما ظَهَرَ أولاً إلا نوره، فلولاه لَم تُخْرَجِ الدنيا من العدم بل ولا الآخرة، فما انشقت أسرار الذات ولا ظهرت أنوار الصفات إلا مِنْ نوره عليه السلام، فقد خص عليه السلام برؤية خاصة وشهود خاص.

كان عليه السلام لا يغيب عن شهود الحق لَمحة، مع ما كلفه الله من سياسة الخلق وتدبير الْملْك ومقاسات الحروب وتعليم الأمة وتَعميم الدعوة، ومع ذلك كان مستغرقاً فِي الشهود التام، قائماً بآداب العبودية ومشاهدة أسرار الربوبية، مع ما خُصَّ به عليه السلام ليلة الْمعراج من رؤية أنوار وأسرارٍ لَوْ ظَهَرَتْ لغيره لاَنْدَكَّ الوجود بأسره، وقد تَجلّى سبحانه ببعضها لِجبَل موسى فصار دَكّاً. وهذه الرتبة لَم تكن لأحد من الرسل، وهي التِي طلب سيدنا موسى عليه السلام فَمُنِعَ منها. قال بعض العارفين: رؤية الحق تعالَى فِي الدنيا فِي مظاهر تَجلياته ومعرفته فيها خاص بِخواص الأمة الْمحمدية دون سائر الأمَم، وِراثة من نبيّهم صلى الله عليه وسلم فإنه خُصَّ بالرؤية دون غيره من الأنبياء، وإلَى ذلك أشار ابن الفارض فِي تائيته مترجماً بلسان الحقيقة الْمحمدية فقال:

ودُونك بَحراً خضته وقف الأولَى ... بِساحِله صَوْناً لِموضع حرمة

ولا تقربوا مال اليتيم إشارة ... لكفِّ يد صدّت عنه إذ صدَّت

وما نال منه شيئاً غير سوى فتًى ... على قدم فِي القبض والبسط ما فتي

قال شارحه القاشانِي: أراد بِهذا البحر الرؤية التِي منعها موسى عليه السلام وخصّ بِها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأفراد من أتباعه، ثُم قال: ورد فِي الخَبَر أن موسى عليه السلام لَما أفاق من صعقته قيل له: "ليسَ ذاك لك ذاك لِيتيمٍ يأتِي بعدك". ثُم قال: سبحانك تُبتُ إليك عما تَصَدَّيت لِما ليس لِي، وأنا أول الْمؤمنين بتخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بِهذا المقام. انتهى.

قلت: والحاصل أن ما تَجلى به لنبينا صلى الله عليه وسلم فِي الإسراء من الأسرار اللطيفة والأنوار البهية لَم تكنْ لغيره، لا للأنبياء ولا للرُّسل ولا لأمته عليه السلام، وأما ما تَجلَّى له فِي الأرض من مظاهر الخلق حتّى شاهدَه فِي كل شيء وعرفه

فِيها، فهذا قد يشاركه غيره من الأنبياء وخواص أمته، لكن معرفته عليه السلام وشهوده لا يحمله غيره، فإن الله تعالَى يتجلى لكل عبد على قدر طاقته، ويتعرَّف له على قدْر هِمته واستعداده، وفِي الخبَر: "إن الله يتجلى لأبِي بكر خاصة وللناس عامة".

واختلف العلماء فِي رؤيته عليه السلام ربَّه ليلة المعراج، فأنكره بعضهم، وأثبته الأكثر وهو الصحيح، وفِي الحديث عن جابر (إن الله اختصَّ موسى بالكلام، وأعطانِي الرؤية وفَضَّلنِي بالْمقام الْمحمود والحوض الْمورود)، وقال كعب لابن عباس: إن الله قسَّمَ رؤيته وكلامه بين محمد وموسى فكلَّم موسى مرتيْن ورآه محمد مرتيْن، انتهى.

قلت: وقد شارك نبينا صلى الله عليه وسلم موسى عليه السلام فِي الكلام أيضاً، فكلَّمه الحق تعالَى ليلة المعراج بلا واسطة، قال (سَمِعْتُ النداءَ من العَلِي الأعلى: ادْنُ يا خير البرية، ادْن يا أحمد، ادْن يا محمد. فأدنانِي ربّي حتّى كنتُ كما قال تعالَى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ﴾)، أللهم إلا أن يقال: الكلام الذي اختص به موسى عليه السلام هو دوامه حتّى كان طوع يديه، متَى احتاج إلَى شيء كلَّمه الحق، ونبينا كلَّمه ليلة الإسراء فقط.

وقد قال الناظم رضي الله عنه: الذي اختصَّ به موسى عليه السلام، هو فناؤه فِي الكلام حتّى سَمعه من باطنه من عروقه وشعره ولَحْمه ودمِه يا موسى يا موسى، فقد اختص موسى بالفناء فِي الكلام، ونبينا صلى الله عليه وسلم بالفناء فِي الرؤية فكان لا يغيب عنه ساعة، على أن الفانِي فِي الذات لا يسمع إلا منها، غَيْرَ أنَّ فَرْقاً بين سَماع كلام القدرة وكلام الحكمة، فالشرف إنّما هو فِي سَماع كلام القدرة الذي هو بلا واسطة أو بلا اختيار فيها، وقال ابن عباس رضي الله عنه أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعينَي رأسه، فقيل له: أَلَمْ يقل الله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾، فقال: ذلك إذا تَجلَّى بنوره الذي هو نوره، يعنِي أن عدم الإدراك إنّما يكون لنوره الأصلي الأزلِي الذي أشار له ابن الفارض بقوله:

صــفاءٌ ولا مــاءٌ ولُطْــفٌ ولا هَــوَا ونــورٌ ولا نــارٌ ورُوحٌ ولا جِــسْمُ

فهذا النور الأصلي لا تمكن رؤيته على ما هو عليه، حتّى يتجلى منه بواسطة

تطاق رؤيتها فِي الجملة، ولذلك قال بعضهم:

وليس تنال الذات من غير مظهر ولو هلك الإنسان من شدة الحرص

وقد يجمع بِهذا بين القولين: فمَنْ قال عليه السلام لَم يَرَ ربه يُحمل على أنه لَم ير النور الأصلي لأنه لا يُطاق، ومَن قال أنه رآه، مرادُه بواسطة التجلي، إلا أن تَجليه تعالَى متفاوت، فالتجلي الذي وقع لِحبيبه عليه السلام أرَقُّ وألْطَفُ من غيره بِحيث لو ظَهَر لغيره لاحترق، فتجلِّي الرسل أرَق من تجلي الأنبياء، وتجلي الأنبياء أرق من تجلي الأولياء، وهكذا، هذا في غَيْر ما وقَعَ به التجلي بواسطة الأكوان الحسية، وأما التجلي بِها فهو على ما هو عليه من الكثافة، غَيْرَ أنه يتلطَّف لكل أحدٍ على قدر معرفته، ومعرفته على قدر تصفيته لِمرآة قلبه، والتصفية على قدر القريحة والاعتناء، والقريحة على قدر الْهمة، والْهمة تابعة للسَّابقة التِي اختص بِها علاَّم الغيوب، والله تعالَى أعلم، فلا أحد يَحوم حول مقامه عليه السلام لِقُوَّةِ أنوار التجلي العظيمة التِي تَجَلَّى له الحق بِها، وهذا جبريل الذي كان معه فِي الإسراء فقَطَع حجباً كثيرة ثُم وقَفَ وقال: "هذا مقامي لو زدتُ خطوة لاحترقتُ"، وخاض نبينا عليه السلام بُحوراً واخترق حجباً عظيمة لا يعلمها إلا الذي أطلعه عليها وقَوَّاه على حملها، ثُم أوحى إليه ما أوحى، قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ﴾، فاستوى أي ظَهَرَ وتجلّى وهو بالأفق الأعلى، ثُم دَنا أي الجبارُ جل جلاله، وأما جبريل فقد وقَفَ دون هذا فلا يَصِحُّ حمله عليه خلافاً لِمن قال ذلك، فالْمكان الذي وقَفَ فيه جبريل هو مقامُه فِي القرب من حضرة الأسرار وحَدُّه، وأحْمَدُ عليه السلام زاد فوق ما لا نِهاية لوصْفِه ولا حدّ، وأما من جهة الْمكان فلَهُ حَدٌّ ونِهاية كما هو معلوم من شأن العبودية مع الربوبية.

تنبيه: ليس القرْب من الله تعالَى قُرْب مكان كما قد يتوهم من وقوف جبريل وزيادته عليه السلام، بل زيادة ارتفاعه الحسي يدل على زيادة ارتفاعه الْمعنوي، وهو القرب الْمعنوي من الحق، وكذلك ترقيه عليه السلام على الأنبياء الذين وجَدَهُمْ فِي السماء ثُم زاد عليهم، لا يَدُلُّ ذلك على أن زيادته عليهم هو عَيْنُ القُرْب من الله فِي

ذلك الْمكان، لأن الله لا يختص بِمكان ولا زمان، ولَم يكن الإسراء لِمُلاقاة رب العزة، لأنه أقْرب من أن يُرْحَل إليه، وإنّما حكمة الإسراء لاقتباس أهل السماوات منه كما اقتبس منه أهل الأرض، ولاطِّلاعه على عجائب ملكوتية وأسرار جبروتية، ولذلك افتتح الحق تعالَى سورة الإسراء بالتنْزيه أي تنْزيهاً للذي أَسْرَى بعبْدِه ليْلاً على الجهة والْمكان، فلا تتوهَّموا أنه أسري به لِملاقاته فإنه قريب، أقرب إلَى كل شيء من كل شيء، وهو قريبٌ فِي بُعْدِه، بعيدٌ فِي قُرْبه، ولكن ترقيه عليه السلام الحسي إشارة إلَى ترقيه الْمعنوي، بِحيثُ ارتفع عنهم تلك الليلة فِي الحس دَلَّ على أنه ارتفع عنهم فِي الْمعنَى، وهو القرب الْمعنوي من الحق، والقرب الْمعنوي هو التمكُّن من شهوده دائماً مع زيادة مَحبة وحظوة، وكذلك زيادة الْملائكة بعضهم على بعض فِي العُلُوّ ليس هو عيْنُ القُرب، وإنّما فيه دلالة على عُلُو الْمقام على غيره، ومثله الأنبياء والرسل فِي ترتيبهم فِي السماوات فيه دلالة على تفاوت مقامهم فِي القرب الْمعنوي، والله تعالَى أعلم.

ثُم قال: فلَوْ بدَى للناس ما بدى له عليه السلام لأَفْناهُمْ جُمْلة فِي أسرع لَمحة، لأن الأنوار التِي تَجلّى بِها لِحبيبه لا يطيقها غيره، وبعضها قد تَجلّى لِجبل موسى فصار دكّاً، كما أبان ذلك بقوله:

ويكفيك فِي الجبل حكم سلطانه ولو بدى للأشياء كُلاً لدكَّت
ولَما رأى الكليم أعظم أمره صار داهشاً وغاب أعظم غَيْبَةِ

أي يكفيك فِي سلطان ذلك النور وسطوته دَكّ الجبل وتزلزله عند تَجلي قدْر الأنملة منه، ولو بدَى ذلك القدر من نوره تعالَى الأزلِي للأشياء كلها لدُكَّتْ ولتَلاشتْ ولَم يَبْقَ منها شيء. رُوِيَ أن الجبل ما زال يَتَجلْجَلُ فِي الأرض من هيبة ذلك النور إلَى اليوم. ولَما رأى موسى عليه السلام ذلك الأمر العظيم دَهش وسكر وغاب، رُوِيَ أنه بقي ثلاثة أيام غائباً والْملائكة تَمُرُّ به وتركزه برجلها وتقول هذا جزاء الفضولِي. وفِي عبارة البيت الأول قلْبٌ، فلوْ قال:

ويكفيك فِي سلطانه دُكَّ جَبله ولوْ بدى للأشياء كُلاً لدكَّت

لكان أحسن، وقد أصلحه الشيخ فقال:

ويكفيك فِي الجبل مَحو وجوده مِمَّا بدا له من تَجلي الحقيقة

ثُم تكلم على مطلق الرؤية التِي لغير الأنبياء، ويسمّيها الصوفية الْمشاهدة، فقال:

حرام على مَخلوقٍ أن يرى وجهها ولكن بِها ترى الأسرار العجيبةِ

فعَيْنُها عِلْمُها وبه البصائرُ تشاهده عياناً فِي كل لحظةِ

وإنْ بدا في الأشياء أفنَى وجودها ولَمْ يبق غير اللفظ منها لِحكمةِ

وبقدر قوَّة الأرواح شهودُه ولو زاد لَها فِي التجلي لدكَّتِ

وذلك شيء فِي الأزل مقدَّرٌ وإنْ شاء زاد ربنا فِي العطيةِ

ولأقوام تجلٍّ لو بَدَا سره لِمن دونَهم لامتحت كل آنيةِ

وذاك لَهم بقدْر سر اقترابِهم وقربهم بقدر صفاء المرايةِ

ومرآتُهم تجلى بحسب زهدهم وزهدهم بقدر الْهِمَم العاليةِ

وأجنحة الأرواح سر هممها وإن علت الْهمة صارت عاليةِ

يقول رضي الله عنه: حرام على مَخلوق أن يَرى وجْهَ الْمعانِي ونفسه موجودة، ولكن إذا فنِي عن وجوده وبقي بربه يرى مِنْ أسرار الذات بالذات. قال بعضهم فِي قوله عليه السلام (فإنْ لَم تكن تراه فإنه يراك) معناه مِنْ جهة الإشارة فإنْ لَم تكنْ شيئاً تراهُ، فيوقف على تَكُنْ، وتَراهُ جواب، وهو تفسير إشارة لا عبارة.

فعَيْنُ الأسرار التِي ترى بِها هو علمها، وبذلك العلم تشاهد البصائر الصافية عياناً فِي كل حالة. وإنْ بَدى ذلك العلم وهو علم الحقيقة، أي ظهر فِي الأشياء، أفْنَى وجودَها، لأنَّ معنَى الحقيقة: لا موجود إلا الله، فإذا تَمكَّن هذا العلمُ مِنَ الرُّوح غابتِ الأشياء ولَم يَبْقَ إلا الأسامِي والألفاظ دون حقائق مُسمياتِها، لكن الحكمة تقتضي وجود الحس لتقبض الْمعنَى، والحسُّ له أحكام تَخصُّه، فلا بد من إثباته حكمة وبقاءً، والغيبة عنه فناءً، وقد أشار الشيخ رضي الله عنه فِي قصيدة أخرى إلَى هذا الْمعنَى بقوله:

ولا بُدَّ مِنْ إثباتِ كَوْنِ حِكمةٍ وبِحكمة بَدَتْ عجائبُ قدرةِ

وشهود الحق يكون بقدْر قوة الأرواح وضعفها، وقوتُها على قدر استعدادها، واستعدادها على قدْر التفرغ من العلائق، فكلُّ واحد يتجلَّى له الحق على قدْر قوته، لا يكلف الله نفساً إلا وُسْعَها، ولو زادَها فِي التجلي على قدر طاقتها لدكَّت ولتلاشت، وقوة كل واحد على قدر ما سبَقَ له فِي الأزل، ولو شاء ربنا لزاد فِي العطية على ما سبق فِي ملكه، لكن اقتضت حكمته ألا تناقض مشيئته، فما شاءَ ربُّنا كان، وما لَم يشأ لَم يكن، والناس متفاوتون فِي الشهود، والشهودُ على قدر التجلي، فلِقوْمٍ تَجَلٍّ لوْ بدَى لغيرهم لذابوا وامتحت آنيتهم، وذلك التفاوت بقدْر اقترابِهم من الحق، فيتجلى لكل واحدٍ على قدر اقترابه، واقترابُهم على قدْر صفاء مرآة قلوبِهم، وصفاء مرآتِهم وجلاؤها على حسب زهدهم، فكلما قوي زهدهم وغيبتهم عن الأشياء قوي صفاء قلوبِهم، وزهدهم على قدْر هِممهم، وهممهُم على قدر القسمة الأزلية التِي هي سِرُّ القدر الْمغيب، فأجنحة الأرواح التِي تطير بِها إلَى الحضرة هي هِمَمُها، فكلُّ واحدٍ يطير بفكرته على قدر عُلُوّ هِمته، فإنْ علتِ الْهِمّة صارت الروح عالية وصارت فكرتُها إلَى الْمقام الأعلى، وإنْ صغرت الْهمة صغُرتِ الروح، وفِي الحديث (إن الله يَرْزُق العبدَ على قدْر هِمته)، فالْهمة العُلْيا هي التِي تتعلق بالله بلا حَرْف، والْهمة الوسطى هي التِي تتعلق بالآخرة، والْهمة الصغرى هي التِي تتعلق بالدنيا، ولا بد من العمل فِي الْهمة العالية وإلا كانت غروراً وأمنية.

ثُم ذَكَرَ علامة الْهمة العالية فقال:

فمَنْ كان رافعاً لِمقدار نفسه فلا شيْءَ له في الرُّتَبِ العاليةِ
وإن كان علْمه كثيرا وصومه فهذا الطريق لا يُنال برفعةِ
ولكن بِخَلْع النفس عن كل لذة وتغييبه عنها وعن كل غيبةِ
وأنفع علم يدنو بك إلَى الثرى وغيره يرفعك أقبح رفعةِ

يقول رضي الله عنه: فمَنْ كان رافعاً لِمقدار نفسه على أبناء جنسه، فلا شيء له فِي الرتبة العالية، لقوله عليه السلام (مَنْ تواضعَ رفَعَهُ الله، ومَنْ تَكَبَّرَ وضَعَه الله) أو كما قال عليه السلام، وقال (مَنْ تواضع دونَ قدْره رفعَه الله فوْقَ قدْره)، وقيل لعائشة رضي الله عنها: متَى يكون الرجل أفضل الناس؟ قالت: إذا ظَنَّ أنه أقبح الناس، قيل لَها:

ومتَى يكون أقبح الناس؟ قالت: إذا ظَنَّ أنه أفضل الناس. وقال بعضهم (كلما دفنتَ نفسك أرضاً أرْضاً، سَمَى قلبُك سَماءً سَمَاءً)، فمَن تكبَّر على عباد الله فلا قدْر له عند الله وإنْ كثر علمه كالسحاب وعمله كالجبال. فهذا، أي طريق الخصوص، لا يُنال برفعة وتعزز، وإنّما ينال بذلة وانكسار (أنا عند الْمنكسرة قلوبهم من أجلي)، وإنّما تنال طريق الخصوص بِخلع النفس عن كل لذة وشهوة لا سيما شهوة الرياسة، فلا شهوة أقبح منها ولا أصعب علاجاً، وهي التِي حجبت العلماء والصالِحين وكثيراً من عامة الْمؤمنين، فلَم يَرْضَوْا بِحَطِّ رؤوسهم للرجال، فبقوا فِي مقام الأطفال.

ولا بد من الغيبة عن النفس بذِكر مولاها، وأما إذا التفَتَّ إليها واشتغلت بِمحاربتها فاتَتْك مَحبة الحبيب، فالنفس كالكلب إن اشتغلتَ به قَوِيَ عليك، فإما أن يُمزق الثياب أو يقطع الإهاب، وإنْ أهملته وغبت عنه انقطع عنك، كذلك النفس ما دمت تلتفت إليها بِمجاهدتِها ورياضتها قطعتك عن ربك، والدواء أن تنْزل بِها للخمول وتغيب عنها، وكان بعضهم يقول (عداوةُ العدوِّ حقّاً، هو اشتغالك بِمحبة الحبيب حقّاً، وأما إن اشتغلتَ بعداوة العدو فاتتك مَحبة الحبيب ونال مراده منك)، والشيطان أخو النفس، فالنجاة منه الغيبةُ عنه. قال بعضهم: نحن لا نعرف الشيطان، فقيل له: كيف وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾، فقال: نحن اشتغلنا بِمحبة الحبيب فكفانا عداوة العدو. انتهى.

فأنفعُ العلوم هو العلم الذي يدْنو بك إلَى الأرض، كالتواضع والحلم والتحمُّل، هكذا كانت أحوال أئمة الْهُدى الذين أَهَّلهم الله للاقتداء، فتأمَّل أحوال مالك والشافعي وأحمد وأبِي حنيفة وغيرهم رضي الله عنهم. روي أن أبا حنيفة رضي الله عنه جاءه رجل يسأله اختباراً لِحلْمه، وكان للشيخ بيت يصعد إليه بالدَّرَج نحو ستة عشرة درجة، فتركه السائل حتّى صعدها كلها، فناداه وقال له: لِي مسألة أردت أن أسألك عنها، فنَزل إليه وقال: اسأَلْ، فقال: نسيتها، فقال له: تَذَكَّرْها، فتركه أيضاً حتّى صعدها وقال له: قد تذكرتُها، فنَزل إليه، فقال له: قد نسيتُها أيضاً، فقال له ذلك مراراً، والشيخ ينْزل إليه، ثُم قال له: يا سيدي عَذِرَة الآدمي ما طعمها؟ فقال له الشيخ: أنا ما ذقتها وأظن فيها حموضة لأنّي رأيت الذباب ينْزل عليها. انتهى.

فانظر يا أخي هذا الخلق العظيم وهذا الحِلم الكبير، وكذلك إمامنا مالِك رضي الله عنه لَما ضربه الأمير جعفر وحُمِل إلَى داره مغشيّاً عليه، فلما أفاق ودخل الناس عليه قال: اشهدوا أنّي جعلت ضاربِي فِي حل، وقال: والله ما ارتفع سوطُه من جسمي إلا وأنا أجعله فِي حِلّ فِي ذلك الوقت لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذلك قصة الشافعي فِي القميص، وغيره، وهكذا كانت أخلاق أهل العلم قديماً. وأما اليوم فلا يقدر أحدٌ أن يقربَهم لغلظتهم وجفوتِهم والعياذ بالله، إلا أن البركة لا تنقطع. فالعلم الذي يرفع صاحبه فِي الدنيا أقبح رفعة بالتكبر والتعزز ورؤية الْمزية على الناس، سيَضَعُه فِي الآخرة ويجد وبالَه مع ما يلحقه في الدنيا من معاناة الملوك وصحبة أهل الغفلة والجهل، وقد يَمْلكه السلطان ويتصرف فيه ويلعب به كيف شاء فتنقطع عنه هِمة العلم وعزه والعياذ بالله، ولله در ابن الْمبارك وغيره حيث قال:

ولَوْ أنَّ أهلَ العلمِ صانُوهُ صانَهُمْ ... ولَوْ عَظَّمُوهُ فِي النفوس لعظما
ولكن أهانوهُ فهانوا ودَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بالأطماع حتّى تَهجَّما

ثُم قال رضي الله عنه:

فكُنْ مُبْصِراً فِي الشيء إنْ شئت وصلة ... ولا وَصْلَ إلا بعد مَحو البقيةِ
ولا مَحو إلا بعد دفن وجودك ... ولا دفن إلا بعد فقر وذلةِ
ولا فقر حقًّا إلا عن طيب نفسك ... ولا ذل إلا جهراً بين الأحبةِ
فمن كان للعز محبًّا وللغنَى ... فمعبوده الْهوى على أي حالةِ
فَجَانِبْ كل ما مال قلبك نَحوه ... سوى حبه الصفي من كل علةِ
ولا رخصة للقوم فِي حال سيْرهم ... لأنّها لأهل الْهمم الضعيفةِ
وأنت مقام القوم تريد وصْلة ... فهو بعد الصفاء من كل علةِ

يقول رضي الله عنه: فكُنْ مُبصِراً أي ذا بصيرة وفطنة فِي السيْر لئلا يغرّك الشيطان والنفس، فيُسول لك الرخص والتأويلات، فكُنْ على حذر منهم إن شئت وصلة لِحضرة القدس، ولا وَصْلَ إلا بعد مَحو البقية، والبقية كل ما تشتهيه النفس من هذه الدار.

لـيس يُـدرك وصـالِي كُـلُّ مـن فيـه بقيـة

ولا تُمحى البقايا من العبد إلا بعد دفْن وجوده فِي أرض الخمول، ولا يَصِحُّ الدفن إلا بعد التحقق بالفقر والذل لأنّهما باب الدخول على الله، ولا فقر إلا عنْ طِيبِ نفس بحيث يترك أسباب الغنَى اختياراً أو يَميل إلَى الفقر مع القدرة على الغنَى، ولا يتحقق الذل إلا أن يظهره بين الأقران والأحباب، كقصة الغزالِي والششتري وأضرابِهما، فمَنْ كان مُحبّاً للغنَى والعز فهو مِمن اتخذ إلَهه هواه فلا يطمع فِي الوصول إلَى حضرة مولاه، فَجانِبْ كلَّ ما مالَ قلبك إليه من الْهوى سوَى مَحبَّة الْمولَى بلا عِلة ولا حرْف، ولا تتبع رخص الشريعة من الحظوظ والشهوات الْمباحة فإنّها أُبيحتْ للضعفاء لا للأقوياء، وفِي بعض الكتب الْمنزَّلة: أوحى الله تعالَى إلَى داوود عليه السلام (يا داوود امْنَعْ قلبك من الشهوات تَرَ الحجب بينِي وبينك مرفوعة. ما للأقوياء والشهوات، إنّما أبيحت الشهوات لضعفاء خلْقي) أو كما قال تعالَى، انظر شرْح ابن عباد فِي قول الحِكَم (مِنْ جهل الْمريد أن يسيء الأدب فتؤخر عنه العقوبة) الخ، فإنه شفاء الغليل فِي هذه الْمسألة، وفِي كتابنا العزيز ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ ﴾، فَمَنْ نَهى نفسه عن الْهوى الْمُحَرَّم دخل جنة الزخارف، ومَنْ نَهاها عن الْهوى الْمباح دخل جنة الْمعارف، وهذا فِي حال السيْر. وأما بعد تحقيق الوصول فلا كلام معه. قال الورتجبِي: خاطَبَ الله تعالَى العباد بِهذه الآية فِي أول مقاماتِهم حين وجَبَ عليهم ترك النفوس وشره هواها والْميل إلَى حظوظها، لأنّهم فِي وقت قصودهم إلَى الله، لأنه لا يجوز لَهم الرُّخَص والرفاهية، فقد وجب عليهم الإعراض عن حظوظ أنفسهم خوفاً من الاحتجاب بِها عن الوصول إلَى الله، ولِعلْمِهم أنه تعالَى مُحيط بِحركات شهوات نفوسهم الخفية حين تَميل بِخفاياها إلَى مُرادها مِما دون الله، فإذا جاهدوها وقَهَروها بتأييد الله أوصلهم إلَى مقام مشاهدته وهي جنة العارفين، فإذا بلغوا إلَى درجة الْمعرفة لَم يحتاجوا إلَى نَهي النفس عن الْهوى، فإن نفوسهم وأجسامهم وشياطينهم صارت روحانية فجانسَت الأرواح الْملكوتية، فشهوات نفوسهم هناك من تأثير حلاوة أرواحهم فِي مشاهدة الحق، فتشتهي الأنفس ما تشتهي

الأرواح. ثُم قال: وأصحاب القلوب والْمعارف عَيْش أرواحهم عيشُ الربانيين، وعيشُ نفوسهم عيش الجنانِيين، والله قادر بذلك يختص برحمته من يشاء، ولِهذا قال عليه السلام: (أَسْلَمَ شيطانِي) وقال (نحن معاشر الأنبياء أجسادُنا روحٌ)، ثُم قال عن سَهْل (لا يَسْلَمُ من الْهوى إلا الأنبياء وبعض الصديقين) وليس كلهم وإنّما يَسْلَمُ من الْهوى مَنْ أَلْزَمَ نفسَه الأدب. انتهى. قلتُ: والذي أَلْزَمَ نفسه الأدب هو الذي ينْزل إلَى سَماء الحقوق وأرض الحظوظ، بالأدب والتمكين، والرسوخ فِي اليقين. وقال الورتجبِي: وأصحاب القلوب الخ يعنِي أن أهل القلوب وهم العارفون يُجمَع لَهم بين نعيم الأرواح وهو لذة الشهود والتنعم فِي جنة الْمعارف وبين نعيم الأشباح وهو التنعم فِي جنة الزخارف الذي هو نعيم النفوس، والْمراد بالجنانِيين أهل جنة الزخارف، والله تعالَى أعلم.

وقوله (وأنت) الخ أي تريد مقام الأقوياء الذين يريدون الوصول بعزائمهم القوية وتريد الوصلة مثلهم، ولا يكون إلا بعد الصفاء من كل علة، ولا علة أعظم من تتبع الرُّخَص والتأويلات، وبالله التوفيق.

ثُم قال رضي الله عنه:

فَخُذْ منهاج العرفان واسلك سبيلهم ... ولا تقتدِ بأكثر أهل نسبةِ
حكموا على الأسرار بالقول دائما ... وحَلُّوا قيود النفس فِي كل شهوةِ
وزال خصيم النور وفنَى وجوده ... وجاء رضاء النفس بكل علةِ
فلا علْم لِمَنْ كان عنها راضياً ... أحاطت به الأهواء من كل وجهةِ
ولا جهل لِمن كان عليها ساخطاً ... من أجْل عصيانِها لرب البريةِ

يقول رضي الله عنه: فَخُذْ منهاج أهل العرفان الأقوياء الشجعان واسْلُكْ سبيلهم، تَصِلْ إلَى ما وصَلوا وتَنَلْ ما نالوا، ولا تقتد بأكثر أهل النسبة من فقراء الوقت، فجُلُّهم حادوا عن طريق التحقيق، حكَموا على الأسرار بالقول دون الذوق، فألْسنتُهم حادّة، وقلوبُهم من نورها خاربة، قنعوا من أسرار الحقائق بالقول والتعبير، دون الاجتهاد فِي تحصيل الأذواق بالجد والتشمير، حَلُّوا قيود النفس وأطلقوا عِنانَها فِي كل

شهوة ولذة، فزالَ خصيمُ النور من قلوبِهم وفنَى وجودُه، وسَكَنَ فيهم سلطان الظلمة وجنوده بل لَم يدخل فيها النور قط، ولو دخَل وتَمكَّن ما خَرَج، وذلك أن الفقير إذا التقى بالشيخ وأخذ عنه جاء جنْدُ النور يريد أن يُخرجَ جندَ الظلمة من القلب، وشَبَّرَ جند الظلمة فِي مَحله فقام بينهما الحرب، فجُنْدُ النور يريد أن يدخل مدينة القلب، وجند الظلمة يريد الْمقام فِي موضعه، فهذا سببُ هيجان الأحوال على ظاهر الْمريدين وكثرة الحركة، وذكر اللسان كالْمدفع يرمي عليه، فإذا انتقل الذكر للقلب فقد خالط معه البَلد فما بقي إلا السيوف تضرب، فإذا تَمكَّن النور من القلب انقطع الحرب وسكَن الظاهر، وقد يضعف جند النور من الدخول فيرتحل من حيث جاء فيَسْكُنُ الظاهر على جند الظلمة، فهذه حالة الْمتفقرة الذين سَكَنَتْ ظواهرهم من الأحوال وقلوبُهم مُمتلئة بالتدبير والاختيار والجولان فِي الحس والْهرج والأهوال، فرَضُوا عن أنفسهم، فجاءهم بكل علة ومصيبة، فلا عِلْمَ لِمن رضِيَ عنها فقد أحاطت به الأهواء من كل جهة، ولا جهْلَ لِمن لا يرضى عن نفسه ونظر إليها بعيْن السخط ففضحَ عيوبَها وهتَك أسرارها، بِخلاف الراضي عنها فإنه يُغطّي عيوبَها ويظهر مَحاسنها فهي تلعب به وهو لا يشعر.

وما ذَكَرَه الشيخ هو قول الْحِكَم: (أصْلُ كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعِفَّة عدمُ الرضا منك عنها، ولأَنْ تصْحَبَ جاهلاً لا يرضى عن نفسه خيرٌ لك من أن تصحب عالِماً يرضى عن نفسه، فأيُّ علْمٍ لعالِم يرضى عن نفسه، وأي جهل لِجاهل لا يرضى عن نفسه).

ثُم قال رضي الله عنه:

وقد كانت بَحر السر وهي أميرة	وجاءت لتدري معنَى سر الإمارةِ
فملكها الْهوى وصارت مأمورة	عليها أمير الكون بأعلى سطوةِ
لَها صفة الإنسان والطبع أغلظ	وأقوى من الحمار فِي حال زفرةِ
فأين حقيقة الإنسان التِي كانت	عليها عند الإيجاد أول نشأةِ

يقول رضي الله عنه: وقد كانت الروحُ بَحرَ السر، لأنّها كانت قريبة العهد بِبحر السر الكبير الأصلي، متدفقة منه، صافية من غبش الحس والْهوى، وكانت حرّة أميرة على ما سواها، فجاءت إلَى عالَم الأشباح وعالَم الحكمة لتدري معنَى سِر الإمارة

والخلافة، وهي معرفة الربوبية والقيام بالعبودية، فكانت خليفة الله فِي أرضه، فتَمَلَّكَها الْهوى وسجَنَها تَحت قهره، فصارتْ مأمورة له عند أمره ونَهيه، فبعدما كانت حُرة صارت مَملوكة، وبعدما كانت أميرة على الأشياء، وهي خادمة لَها، صارت مأمورة للأشياء، خادمة لَها، فما أقبح حَالَ مَنْ يصير عبداً لعبده، وحين صارت مَملوكة للهوى سجنت فِي دائرة الأكوان وأحاطتْ بِها وعَلَتْ فوقها بسطوة وقهرية. قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه (الكونُ بيتٌ، وليس من شأن الرجال أن يحصره بيت)، أي إلا أن يكون زميناً مسجوناً. فالروح حين ملكها الْهوى فِي هذا القالب الجسمانِي، صارتْ صورتُها صورة الإنسان، والطبع طبع الحمار، بل هي أقبح وأضل سبيلاً، وفِي ذلك يقول فِي الْمباحث:

واعْلَمْ بأن عصبَة الْجُهَّال ... بَهائم فِي صورة الرجال

فأين حقيقة الإنسان الحقيقي التِي كانت عليها فِي أول نشأته من الصفاء والكمال، فالإنسان إنّما هو إنسان بروحه وعقله لا بِجسمه، فالجسمية حاصلة للبهائم، وإنّما شَرَفُ الإنسان بروحه وعقله.

ثُم أشار إلَى أسباب الكمال التِي يكون بِها الإنسان إنساناً، فقال:

فكن مُخلِصا وأخلصْ من إخلاصك الذي ... وكُنْ بارياً من كل حول وقوةِ

وكن بالإله معتصما بقلبك ... وقل يا سلام سَلِّمْ من كل فتنةِ

ولازمْ كتاب الله واحكمْ بحكمه ... وسنة أحْمد إمام الأئمةِ

يقول رضي الله عنه: فكُنْ أيها الفقير مخلصاً فِي أعمالك وأحوالك كلها، إن أردت أن تتخلص من رِقّ الْهوى وسجن الأكوان. والإخلاص: إخراج الخلق عن معاملة الحق، أو إفراد الحق فِي الطاعة بالقَصْد، أو غيبة القلب عن غير الرب، فإخلاص العامة تصفية الأعمال عن ملاحظة المخلوقين، وإخلاص الخاصة تصفيتها عن طلب العِوَض فِي الداريْن، وإخلاص خاصة الخاصة التبري من الحول والقوة ومن رؤية الغيْر فِي القصْد والحركة، حتّى يكون العمل بالله ومن الله وإلَى الله، غائباً عمّا سواه، فأَخْلِصْ فِي أعمالك وتَخَلَّصْ أيضاً من إخلاصك الذي تَحققت به فلا تراه، وكُنْ بريئاً مِنْ حوْلِك وقوتك، وقُلْ بلسان حالِك ومقالك "لا حولَ ولا قوة إلا بالله"

فإنّها كنْز من كنوز الجنة، أي لا حوْلَ لِي عن شيء إلا بِحولك، ولا قوة لِي على شيء إلا بقوتك، وكُنْ معتصماً بالله فِي حال سيرك، ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، والاعتصام هو طلب العِصْمة من القواطع، ويكون ذلك بالعزم على البر والتقوى والتمسك بِما جاء فِي الكتاب والسنة، وقُلْ فِي حال سلوكك "يا سَلامُ سَلِّمْ"، فإن آفات الطريقة كثيرة، وقُطَّاعُها كثير، وشيطانُها عالِمٌ بالْمخادع، ولازِمْ كتابَ الله فإنه الحبل الْمتين والعروة الوثقى، مَنْ تَمسك به نَجى، واحْكُمْ به، فمَنْ حكَم به عدَل، ومَنْ عدَلَ عنه ضلَّ وأضلَّ، وفِي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم فِي بعض خطبته (أيها الناس إنكم فِي زمان هُدْنَة، وإن السيْر بكُم سريع، وقد رأيتم الليل والنهار وكيف يبليان كل جديد ويُقَرّبان كل بعيد ويأتيان بكل موْعُود) فقال له المقداد: يا نبِي الله ما الْهُدْنَة؟ قال: (دار بلاء وفتنة، فإذا رأيتم الفتن كقِطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وصادق مصدق، مَنْ قال به صدَق، ومنْ حكَم به عدَل، ومن عمل به أُجِر، هو أوضح دليل إلَى خير سبيل).

ولازِمْ أيضاً سنة النبِي صلى الله عليه وسلم، وحَكِّمْها على نفسك فِي أقوالك وأفعالك وأحوالك، فإنه إمام الأئمة، ومادة مشايخ التربية، فكلُّ مُرَبٍّ إنّما يُربِّي بالنيابة عنه يُسَيِّرُ الناسَ على سنته ومنهاجه الظاهر والباطن، فاتباع السنة المحمدية قاعدة من قواعد التصوف، فمن خرج منها خرج إلَى البدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فِي النار. والسنة سنتان: سنة ظاهرة بيَّنها العلماء أهل الظاهر، وسنة باطنة يُبَيِّنُها الْمشايخ أهل الباطن وهي التخلق بأخلاقه صلى الله عليه وسلم، والْمريد الكامل هو الذي يجمع بين السنتيْن فيحافظ على السنة فِي أقواله وأفعاله وأحواله، كآداب دخول الْمسجد والخروج منه وآداب الأكل والشرب والنوم واليقظة، وغير ذلك، حتّى كان بعض الْمشايخ يعلمون الْمريد مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتدي بِها، ثُم يتخلق بأخلاقه عليه السلام، وبالله التوفيق.

ثُم حَضَّ على الواسطة فِي العالمين، فقال:

وعالِمٌ وَرِعٌ فِي دنياه زاهد ... فكُنْ عنه آخذاً لأمر الشريعةِ

ومَنْ كان سالكاً ومجذوباً دائماً ... ولا أخذ إلا عن شيوخ الطريقةِ
كمثل أستاذي قَلَّ فِي القوم مثله ... وفخْري به طرًّا على أهل نسبةِ
وبه على الورى أصُولُ حقيقة ... ولا أخشى إلا من إله البريّةِ
فجملةُ أهل الوقت تَحت لوائه ... عارف بأحكام النفوس الخفيةِ
له هِمَّة إن قال للشيء كنْ يَكُنْ ... يُعِز إذا شاء يُذِل فِي لحظةِ
تمد مددَ الخلق همةُ سِره ... جميع همم الخلق في كل حاجةِ
يقلد في الأمور كلا بأسرها ... فِي حكم الحقيقة وأمر الشريعةِ
فمن لَم يدر معنَى سلوك طريقة ... حقت له جملة الأحمال الظاهرةِ
لِمثله كنْ عبداً تنلْ كل الْمنَى ... وتبلغ منتهى الأسرار العاليةِ

يقول رضي الله عنه: إذا كان العالِم ورعاً زاهداً فِي الدنيا، فخُذْ عنه أمر الشريعة وهو العلم الظاهر، فلا تأخذه إلا عن مَنْ هذا وصْفُه، وفِي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم (العلم دينٌ والصلاة دينٌ فانظروا عَمَّنْ تأخذون هذا الدين وكيف تصلون هذه الصلاة فإنكم تُسألون يوم القيامة) أي عن علمكم وصلاتِكم، فلا ينبغي أن يؤخذ العلم عن الراغب فِي الدنيا أو عن مَنْ فِي قلبه مرض أو زيغ، فإن ذلك الخبث يسري فِي الطالب إلا مَنْ عَصَمَ الله، لا سيما علم التوحيد فلا يؤخذ إلا من أربابه وهم العارفون بالله الجامعون بين الجذب والسلوك، بين الشريعة والحقيقة، فلا يؤخذ هذا العلم إلا عن شيوخ الطريقة وهم أهل التربية النبوية، وهم موجودون فِي كل زمان، فمن اعتقد أنّهم انقطعوا فهو أعمى، ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾، وقد ظهرت فِي زماننا هذا ظهور الشمس فِي أفق السماء على يد شيخ شيخنا ومادة طريقنا مولاي العربِي بن أحمد الدرقاوي الحَسَنِي، نسبة إلَى جده يوسف أبِي درقة كان له درقة يُجاهد بِها فكان يقال له أبو درقة، ثُم جرت عليه الدرقاوي، ونسب شرفه مُحقق متصل بسيدنا إدريس رضي الله عنه، فقد أظهر طريق التربية بعد خمود أنوارها، وجَدَّدَها بعد اندراس آثارها، فهو قطب دائرة فلك التربية، وشَمس الْمعارفة العيانية، فقد تَخرَّج على يديه أكابر من الأولياء كخليفته شيخنا العارف الربانِي

والفرد الصمدانِي سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الحسَنِي وقد تقدَّم التعريف به، وخرج على يديه رجال بالْمغرب والْمشرق، لا يشكّ فِي تربيته إلا أعمى البصيرة، مظلم السريرة، محروم، وبالخذلان موسوم، أخذ رضي الله عنه عن بَحر العرفان، وشَمس العيان، بَحر زمانه، وفريد دهره وأوانه، سيدي علي العمرانِي الحسنِي الْمُكَنَّى بالجَمَل، فسمعتُه يقول فِي سبب تَوَصُّلِه إليه: "ختمتُ ستين سلكة بالركوع والسجود فِي طلب الشيخ عند ضريح مولاي إدريس الأصغر، فلما ختمتُ سلكة الستين بكيتُ بكاء شديداً ثم خرجتُ فرآنِي بعض الناس وهو فِي حانوته فقال: ما لَك باكياً؟ فقلت: أمراً لا تعرفه، فنهرنِي وقال لِي: ما لِي لا أعرفه، فقلت: قد لَعبتْ بِي نفسي وطلبت من الله شيخاً يأخذ بيدي، فقال لِي: ندلك على الشيخ ولكن لا تشاورْ فيه مع أحد ولا تذكره لأحد، ثُم دلنِي على سيدي علي الجمل فإذا رجلٌ خَميلُ الذكر لا يذكره أحد، فمررتُ إليه وأخذت عنه. فِي حكاية تركتُها اختصاراً.

فلازمه فِي فاس سبع سنين، ثُم انتقل إلَى بنِي زروال فكان يزوره مرتيْن فِي السنة أو أكثر، فبقي فِي خدمته حتّى مات، فترَكه فِي هيْنون الفناء فِي التطنطينة الكبرى، فما زال على تَجريده وتَخريبه وزاد على يديه حتّى كمل، ولِم يَحتج إلَى واسطة بعده حتّى سَمع الإذن من الله بالتقدم للتذكير والتربية، وقد كان أذن له شيخه فِي إعطاء الورد للناس. قال رضي الله عنه: قلت لشيخي: خصنِي مع من نعمر، فقال لِي: أوْلِدهم، فأعدتُ عليه مراراً، فقال لِي: أوْلِدْهُم، فكان كما قال، فتَولَّد منه رجال وانتشروا فِي أقطار البلاد، فالطائفة كلها تنتسب إليه، وله كرامات جمعت فِي ديوان جَمَعها بنفسه بعد أن كان جمعها غيره فرآه زاد ونقَص فجَمعَها هو، وله رسائل بيد الفقراء تَجمع ديواناً، وهو فِي قيْد الحياة مَتَّع الله ببقائه للمسلمين آمين.

وكلام الشيخ فِي مدح شيخه ظاهر لا يحتاج إلَى شرح. جزاهم الله عنا وعن كافة المسلمين خيراً.

ثُم حضَّ على الصحبة، فقال:

وكُنْ لأهل علْم المعانِي مُجاوراً ... تمد من الأسرار فِي كل دفعةِ

فعَنْ رجال الأفكار تروى عقولُهم ... على صفة التلقين فِي كل ساعةِ

ويكفيك بعد الفرض ما هو آكد | لأنك حامل لِحمل الطريقةِ
وقَلَّ من كل للجهتين عامراً | فأكثر أهل الله لإحدى جهةِ

يقول رضي الله عنه: وكنْ مُجاوراً لأهل الْمعانِي، أي اصحبهم واخدمهُم وتأدبْ منهم، فإنك تُمَدُّ من الأسرار والأنوار فِي كل دفعة وساعة ما لا يعلمه إلا الله. قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه (إذا جالستَ الكبراءَ فَدَعْ ما تعرف إلَى ما لا تعرف، تَفُزْ بالسر الْمكنون) وقال أيضاً (الجلوس معنا نفَسَيْن يوجب غنَى الداريْن)، فعقول أهل الأفكار تَرْوي عن رجالِها فلا تحتاج إلَى واسطة، يعنِي أن أهل الأفكار تأخذ عقولُهم العلمَ منهم بوحي الإلْهام وتلقن ذلك فِي ساعة، إذا جالت الفكرة فِي شيء استخرجتْ علْمَه وحَرَّرَتْه فِي أي ساعة شاءت.

ثُم أمَر رضي الله عنه بالْمهم من الشريعة فقال: ويكفيك بعد أداء الفرض ما هو آكد من السُّنَن الْمؤكدة كالشفع والوتر وركعتَي الفجر، واستغرقْ أوقاتك فِي الذكر والفكرة لأنك حامل لأعباء الطريقة فإنك لا تقدر أن تَحمل غيرها، فإن القوة لا تكون فِي الجهتيْن إلا للقليل كأهل الاهتداء، فقَلَّ مَنْ كان عامراً للجهتيْن الظاهر والباطن، فإن الظاهر يأكل الباطن، والباطن يأكل الظاهر، فأكثر الأولياء يكون مائلاً لِجهة الباطن، وأما الْميل للظاهر فمن رقَّة الحقيقة وليس بكامل عند الْمحققين. فلو قال (فأكثر أهل الله ميل للحقيقة) لكان أحسن، والله تعالَى أعلم.

ثُم قال:

توجَّهْ إلَى المعانِي حيث توجهتْ | وذُرْ معها سريعاً فِي كل دورةِ
وكن حريصاً على الأنفاس جَميعها | فمطلوبُها كلاً بفكر ونظرةِ
وذكر بِجمع القلب جاءَ حقيقة | وبه استقام حال أهل الطريقةِ

يقول رضي الله عنه: توجهْ إلَى بلد الْمعانِي حيث توجهتْ، وعُمْ فِي تيار بِحارها، وذُرْ معها سريعاً فِي تَدْوِيرك الكوْن إنْ جلْتَ فِي أفلاكه. وإنْ جلت فِي سِرِّ نفسك فاستمر تَحت سطوة الفكرة حتّى تغيب عن وجودك بالكلية ولا يبقى إلا وجود القديم الأزلِي، فالفكرة فِي وجودك أرفع وأشرف لأنّها ضامنة للفكرة فِي الأكوان الْمنفصلة عنك، لأنه قد انطوى فيك ما انتشر فِي غيرك، فإذا فنيت عن وجودك فقد

فنيت عن الوجود بأسره، وإذا عرفت الله فيك فقد عرفته فِي غيرك، قال الشاعر:

أنت عرش أنت كرسيّ كما أنت أرض وهواءٌ وسُمَيْ
لا تظن الأمر عنك خارجاً هو ذوق هو شرب ثُم رَيْ

وقال الششتري:

وإليك هو السيْر وأنت معنَى الْخبَر
وما دونك غَيْر يا مَحل الفقر الذاتِي

فالفكرة عبادة الرجال، وهي سراج القلب فإذا ذهبت فلا إضاءة له، والْمراد فكرة الاستبصار لا فكرة الاعتبار لأنّها تكون لعامة الصالِحين، وبعد الفكرة النظرة، ثُم العكوف فِي الحضرة وهو دوام الشهود والتمكن منه، والطريق إلَى هذا عمارة الأوقات والاعتناء بِها، ولذلك قال (وكُنْ حريصاً على الأنفاس)، والأنفاس أدقُّ من الأوقات، لأنه مقدار ما يخرج النفَس ويرجع، أي كُنْ حريصاً على عمارة الأنفاس جميعها، فالْمطلوب منّا عمارتُها كلها بفكرة ونظرة، فكل ساعة من العمر لا قيمة له، وفِي الحِكَم (ما فاتَكَ من عمرك لا عِوَضَ له، وما حصل لك منه لا قيمة له) وقال أيضاً: حقوق فِي الأوقات يُمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يُمكن قضاؤها، إذ ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حقٌّ جديد وأمْر أكيد. قال الحسن (أدركتُ أناساً كانوا على ساعاتِهم وأوقاتِهم أحرص منكم على الدراهم والدنانير).

والذكر الذي يجمع القلب والحضور، هو الذكر الحقيقي، وبه استقام حال أهل الحقيقة وبه توصَّلوا إلَى الفكرة والنظرة والعكوف فِي الحضرة، وبه دخلوا بلاد الْمعانِي وغابوا عن حِس الأوانِي، وهو منشور الولاية، ولا بدَّ منه فِي البداية والنهاية، غيْرَ أن ذكْر أهل البداية لِسانِي، وذكر أهل النهاية روحانِي عيانِي، فالذكر باب عظيم للدخول على الله كما قال الشاعر:

الذكر أعظم بابٍ أنت داخله فاجعلْ لِمنْزله الأنفاس حراسا

ثُم قال رضي الله عنه:

وإنْ كَبُرَ العيان بِحكم قهره على سائر الأحوال فِي كل ساعةِ

ومالــكٌ للأحــوال هــو إمامُنــا   بـه يقتـدي الجميـع فِـي كـل حالـةِ
تعلــق بــسره تخلــق بوصــفه   تحقـق بوصـف الفقـر تحظـى بعـزةِ
على منهـاج الكمـال امـش ولا تخـف   وخـل عـصاة الخلـق وأهـل طاعـةِ

يقول رضي الله عنه: إذا كبر العيان على العارف وقوي شهوده وصدمته أنوار الحقائق، هدمت أحواله وأعمالَه وعلومَه وأذكاره، ودكَّت جبال عقله، وزلزلت أرض نفسه، فغاب ليل وجوده، وأشرقت شُموس نَهاره، كما قال الشاعر:

فلـو عاينـت عينـاك يـومَ تزلزلـتْ   أرض النفــوس ودكــت الأجبــالُ
لرأيـت شَـمس الحقيقـة يسطع نورهـا   يــوم التزلــزل والرجــال رجــالُ

فتحكم الحقيقة بقهرها، فليس له على نفسه اختيار ولا مع غير الله قرار، بل ينتظر ما يَبْرُز من عُنصُر القدرة فِي كل لَحظة فيميل معه خيراً كان أو شرّاً، طاعة أو معصية فإنْ كان مالكاً للأحوال تأدب مع الْمقادير، فإن برزت بالطاعة حمد وشكر، وإن برزت بالْمعصية تاب ورجع، وهكذا يتأدب مع الحق فِي كل تَجَلّ، فهذا هو إمام وقته يصلح للتربية فيقتدى به فِي الشريعة والحقيقة. وإنْ كان مَملوكاً للأحوال مغلوباً لَها لا يُفرق بين طاعة ولا معصية، فهذا لا يصلح للتربية لأنه غريق الأنوار مطموس الآثار، لَم يبلغ درجة الكمال والتكميل، بِخلاف الأول فإنه كامل مكَمّل فينبغي التعلق بسرّه والتخلق بوصفه وذلك بصحبته وخدمته. وإن أردت الغنَى الحقيقي القلبِي فتحققْ بوصف الفقر، فإذا تَحققت بوصفك يُمدك بوصفه وهو الغنَى، وإذا أردت العز الدائم فتحققْ بالذل الدائم فِي الظاهر فإنه يُمدك بالعز الدائم حتّى تتيه على الوجود بأسره، فامشِ على منهاج الكُمَّل وهم العارفون الْمالكون للأحوال، ولا تَخف من أحد فليس ثَم إلا الله، وخَلِّ الناس وغِبْ عن مطيعهم وعاصيهم فليس بيدهم شيء ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

ثُم حذر من صحبة أهل الغفلة فقال:

وجَنبْ جميع الناس واحذر غرورهم   ومــدعي الفقــر جهــراً أكبــر غــرةِ

ومَنْ ظَنَّ علمه فوق الورى جملة ... وفهمه أعلى من جميع البريةِ

فهذا أجهل الناس كلاً بأسرهم ... فنظرة منه تأتِي بألف ظلمةِ

وعالِم به كل ما ازداد علمه ... وفهمه عنه زاد فقراً وذلةِ

فخَلِّ سوى من كان لك موافقاً ... حقيراً فقيراً راضياً بكل مِحنةِ

ضعيفاً عاجزاً خامل الذكر فِي الورى ... وجُلُّ جَميع الناس عنه في غفلةِ

فواضعُه ورافعه كلاهما ... لشغله بالْمحبوب فِي كل ساعةِ

يقول رضي الله عنه: جَنِّبْ أيها الفقير جَميع الناس إلا مَنْ يدلك على الله، واحذرْ غُرورَهم وتشغيبهم، فالقرب منهم ظلمة ومُخالطتهم غفلة. قال بعض الصالِحين: لقيتُ بعض الأبدال فقلت: كيف الطريق إلَى الله؟ فقال: لا تُخالط الناس فإن مُخالطتهم ظلمة، فقلت: لا بدَّ لِي وأنا بين أظهرهم، فقال: لا تعاملهم فإن معاملتهم خسران، فقلت: لا بد لِي من ذلك، فقال: لا تركن إليهم فإن الركون إليهم هلكة، فقلت: هذا لعله يكون، فقال: يا هذا تُخالط البَطّالين وتعامل الجاهلين وتركن إلَى الْهلكى وتريد أن يكون قلبك مع الله، هيهات هذا لا يكون، ثُم غاب عنّي.

ويحذر الفقير جهده من مخالطة أربعة طوائف: الْمتفقرة الجاهلة وهم من لا شيخ لَهم يصلح للتربية، والجبابرة الْمتكبِّرة، والفقراء الْمداهنة وهم طَلَبَة القرآن الذين قال فيهم الْهبطي هم على سبيل الشيطان، والعلماء الْمتجمدين على ظاهر الشريعة، فصحبة هؤلاء خسران مبين لطالب الوصول، وأعظمهم قواطع العلماء الراضون عن أنفسهم الذين يظنون ألا علْمَ فوق علمهم ولا فهْمَ فوق فهمهم، فمن كان هذا وصفه فلا شك أنه أجهل الناس، فجَلسة واحدة مع هذا أو نظرة منه تأتِي بألْف ظلمة.

قلت: والسلامة للمريد ألا يصحب عالِماً ظاهريّاً قط، والله ما رأيت أحداً من الفقراء صحبهم أو تشاور معهم فأفلح فِي طريق الخصوص أبداً، وما صَدَّ الناس عن معرفة الله إلا هُمْ، اعتقدوا أنّهم ينصحون وهم يغُشون، لأن طريق التربية النبوية غائبة عنهم خارجة عن مبلغ علمهم، فهم فِي الظاهر معْذورون لأنّهم بوَّابون للشريعة، وهم فِي الباطن مَحرومون لأنّهم ضلُّوا وأضلُّوا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثُم ذكر أهل العلم بالله فقال (وعالِمٌ به) أي بالله كلما ازداد علمُه وفهمُه عن الله زاد فقراً وذلة وتواضعاً، فخَلِّ أيها الفقير جميع الخلق وارفضهم سوى مَنْ كان لك موافقاً لِحالِك، فقيراً حقيراً فِي أعْين الناس راضياً بكل مِحنة وبلية ضعيفاً عاجزاً خامل الذكر فِي الورى وجل الناس فِي غفلة عنه، وقد مدَح صلى الله عليه وسلم مَنْ هذا وصْفُه فقال (رُبَّ أشعث أغْبَر ذي طَمريْن لا يُؤْبَه بِه لوْ أقْسَمَ على الله لأَبَرَّهُ) فِي قسمه، والأطمار: الثياب الرثة الْممتهنة، وقال الصوفية: (كلما سَقط الإنسان مِنْ عيْن الخلق عَظُمَ فِي عين الحق، وكلما عَظم فِي عين الخلق سقط من عيْن الحق) هذا فِي الغالب، وقالوا أيضاً: (كلما عَلا بالولِي الْمقام خَفي عن الأنام)، وبالجملة فالأحاديث وأقوال السلف فِي مدح الخمول كثيرة، وعلامة مَحبة الخمول: استواء الْمدْح والذم فواضعه ورافعه كلاهما سواء، قد شغله حب الحبيب عن الالتفات إلَى مدح الناس وذمهم.

ثُم استغرب وجودهم، فقال:

وأيـن هـذا فـي النـاس قـلَّ مثـالُهم ... فـسيدهم معلـول بكـل علـةِ

إذا مـدح أو بالعطـاء وجهتـه ... أتـاك سـريعاً مظهـراً للمحبـةِ

وإن كنـت لـه بالْمذمـة واجهـا ... علـى حـذر كـنْ منـه فِـي كـل طرفـةِ

فيـا أسـفاً علـى الـذين تقـدموا ... كانـت لَهـم نفـس بالمجـاري راضـيةِ

يرونَهـا مـن عـين المعـانِي حقيقـة ... يحبونَهـا إجـلالاً أشـد الْمحبـةِ

إذا وجهـوا بالـذم تـرى وجـوههم ... بنـور كأنّهـا شـعاع الأهلـةِ

وإذا منعـوا زادوا فرحـاً ونـشوةً ... فهكـذا حـالُهم فـي أمـر البدايـةِ

كانـت لَهـم أخـلاق كـرام مـع الـورى ... وأوقـاتُهم بـين حـضور وغيبـةِ

يقول رضي الله عنه: هذا الذي وصفتُ لك من أهل العلم بالله قَلَّ فِي الناس مثالُهم، وفِي الحديث (الناسُ كإبل، لا تكاد تجد فيها راحلة)، فالسيد الذي يقصدونه ويزورونه معلول بكل علة أقلُّها رؤية الْمزية عليهم إذا مدح أو وُوجِه بالعطاء أظهر الفرح والسرور، وإذا ذم أو مُنِعَ أظهر الغضب والسخط، فكنْ منه على حذر، فيَا أسَفا ويا حسرتا على الذين تقدموا من سلفنا الصالِح كانوا على عَكْسِ هذا راضين بِمجاري

الأقدار مُستسلمين لأحكام الواحد القهار قانعين بعلم الله، يرون الأقدار الجارية عليهم من عند الحق حقّاً فيحبونَها ويعظمونَها ويفرحون بِها، كما قال الجيلانِي رضي الله عنه:

تلـذ لِـي الآلام إذا كنـت مـسقمي　　　وأن تَختبرنِـي فهـي عنـدي صـنائع

وقال ابن الفارض رضي الله عنه:

أحِبَّايَ أنـتم أَحْـسَنَ الـدهرُ أمْ أَسَـا　　　فكونـوا كمـا شـئتم أنـا ذلـك الْخِـلُّ

وكانوا إذا وُوجِهوا بالذم انبسطوا كأنَّ وجوههم الأقمار، وإذا ووجهوا بالْمدح زادوا فِي التواضع والذل والانكسار، وإذا مُنِعوا زادوا فرحاً وبسطاً، صار عندهم الْمنع عين العطاء لفهمهم عن الله تعالَى، فهكذا حالُهم فِي البداية، ثُم استوتْ لَهم الأحوال فِي النهاية، وقد يفرحون بالْمدح والثناء لأنّهم يسمعون ذلك من سيِّدهم، صارتْ عندهم ألْسنةُ الخلق أقلام الحق. وكانت لَهم أخلاق كريمة مع الناس، يرحمون صغيرهم ويُوقرون كبيرهم ويُواسون القريب ويؤنسون الغريب. لا تشبع مجالستهم، ولا تمل محادثتهم، وهكذا كانت أخلاق الصوفية قديماً وحديثاً، والبركة لا تنقطع، فقد وُجد فِي زماننا هذا رجال تَحققوا بِهذه الأخلاق وزادوا، أدام الله بقاءهم للأنام آمين.

قوله (وأوقاتُهم بين حضور وغيبة) يعنِي كانوا بين صحو وسُكر، فتارة يغيبون عن مشاهدة الخلق فِي شهود الحق فناءً، وتارة يشهدون الحق فِي الخلق بقاءً، فالغيبة كناية عن شهود حق بلا خَلْق، والحضور كناية عن شهود حق فِي خلْق، والله تعالَى أعلم.

ثُم قال رضي الله عنه:

ووقتنـا بـالتحقيق قـد صـار جُلنـا　　　يطـوف علـى الـدرهم فِـي كـل سـاعةِ

ويـسعون عنـد الْخلـق رفعـة قـدرهم　　　ويطمـع فِـي درك العلـوم النفيـسةِ

هيهـات مـا كـان هكـذا مـن تقـدم　　　وقـد كـانوا أصـحاب الْهمـم العاليـةِ

نظـرهم للمحبـوب نَحـو جَمالـه　　　تيقنـوا أن مـا سـواه لغفلـةِ

فلـيس شـيء سـوى الجمـال حقيقـة　　　ظهـر منـه مـا كـان مخبـى بحكمـةِ

ومـا زاد شـيء سـوى بـروزه　　　علـى حـسب ترتيـب حكـم الإرادةِ

ومـا نقـص وإن أخفـى الأمـر سـره　　　وصـور فهمـك وجـود الخليقـةِ

فلِقِلـــة التحقيـــق منـــك بِحقـــه ولفقـد العلـم غابـت عنـك الْحقيقـةِ
ولو جـاءك علـم المعانِي التِي بـدت لكنـت مـن أعظـم هنـاء وراحـةِ

يقول رضي الله عنه: ووَقْتُ زمانِنا هذا قد انعكس الأمر فيه، فصار جُلُّنا يطوف على الدنيا، همُّه الدرهم والدينار، يطوفون عليها فِي كل ساعة ويَسْعون فِي طلب الجاه ورفعة القدر عند الناس، ومع ذلك يطمع فِي العلوم النفيسة التِي هي العلوم اللدنية، هيهات لا يكون هذا أبداً، لأن العلوم اللدنية لا تكون إلا مع التقوى الكاملة، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾، وأي تقوى تكون مع حب الدنيا والحرص على التقدم والجاه، ما كان هكذا مَنْ تقدَّم، ولكن كانوا أهل الْهمم العالية والشيَم الزكية، نظرهم دائماً لِجمال الْمحبوب، وأفئدة هائمة فِي حضرة الغيوب، تيقَّنوا أن مَحبوبَهم قد عَمَّ الوجود، وأسرارهم قائمة بكل موجود. قال بعض العارفين (الحق تعالَى منَزَّه عن الأيْن والكيْف والْمادة والصورة، ومع ذلك لا يخلو منه أيْن ولا مكان ولا كَمّ ولا كيْف ولا جسْم ولا جوْهر ولا عرض، لأنه للُطفه صار فِي كل شيء، ولنوريته ظاهر فِي كل شيء، ولإطلاقه وإحاطته متكيّف بكل كَيْف، غير متقيد بذلك، ومَن لَم يذقه ولَم يشهده فهو أعمى البصيرة مَحروم عن مشاهدة الحق)، فإثبات السوى إنّما هو لغفلة، فليس شيء موجود مع الحق، وإنّما جَماله ظهَر وتَجلى منه ما كان مَخبياً بقدرة وحكمة، القدرة باطنة، والحكمة ظاهرة. ما زاد شيء على ما كان فِي الأزل سوى ظهوره على ترتيب الإرادة، وما نقص على ما كان، بل كان الحق وحده، وهو الآن وحده، وإن أخفى الحق سِرَّه بعد ظهوره فهو باقي على وحدانيته، وإن صَوَّرَ وَهْمُك وجود الخليقة والاثنينية فلِجهْلك به وقلة التحقيق بِمعرفته، ولذلك غابت عنك الحقيقة وأنوارها، وبقيت متعوباً فِي تدبير الكائنات وأهوالِها. ولوْ جاءك علم الْمعانِي وأسرارها التِي بدَتْ فِي قوالب الأكوان لكنتَ فِي راحة وهناء عيش، تشاهد الْمحبوب فِي كل شيء، وتغيب به عن كل شيء، وأنشدوا:

إن عرفـــان ذي الْجـــلال لَعِـــزٌّ وضِـــياءٌ وبَهجـــةٌ وســـرورُ
علـــى العـــارفين أيـــضاً بَهـــاءٌ وعلـــيهم مـــن الْمحبـــة نُـــور

فهَنيئاً لِمَنْ عرَفَك إلَهي ... هُوَ والله دهْرُه مَسْرورُ

ثُم قال رضي الله عنه:

وقد كان كل سر منها لِسِرنا ... ولكن أخفاه الوهم لأجل علةِ

على مرآة القلوب بدت سحابة ... آثار رياح الوصْف أتت بظلمةِ

إذا شئت أن تَحيَى فمتْ في حياتك ... ولا خير فيمن حيا حتّى تأتِي المنيةِ

فمَنْ حيا قبل الموت ماتت حياته ... ومن حيا بعد الموت حيا حقيقةِ

يقول رضي الله عنه: وقد كانت أسرار الْمعانِي وهي أسرار الذات العلية واصلة لسِرّنا، متمكنة من قلوبنا حالَ صفاء الروح والقلب، ولكن لَما دخلتها العلل أخفى الوهمُ والجهلُ تلك الأسرار، ونسجت على مرآة القلوب سَحابة الأثر، وانطبعتْ صور الأكوان فيها فتظلمَت، فكيف يُشرق قلبٌ صوَرُ الأكوان منطبعة فِي مرآته. ثُم هاجت رياح الوصْف البشري والطبع البهيمي على القلب، فتراكمَتْ عليه ظلمات بعضها فوق بعض، ظلمة الْهوى وظلمة الطبع وظلمة الأكوان، إذا أخرج يدَ فكرته لَم يَكَدْ يراها ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾، وطريق الوصول إلَى هذا النور هو موت النفوس عن هواها، وفناؤها فِي مَحبة مولاها. فإذا شئت أن تَحيَى، فمُتْ فِي حياتك عن حظوظك وهواك، فإنك تَحيَى حياة لا موت بعدها، فلا خَيْرَ فيمن لَم يَمت حتّى تأتيه منيته فإنه حينئذ يَموت أبداً كَحال الْمنافقين، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ أي مات موتة أبدية. فمَنْ حيَى قبل موته بوجود نفسه، فهو ميت دائماً، ومن حييت روحه بعد موت نفسه فقد حيَى حياة حقيقية لا موتَ بعدها، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾، هذا فِي حق أهل الجهاد الأصغر، فما بالك بأهل الجهاد الأكبر فحياتُهم أعظم من الأولين.

والحاصل أن حياة شهداء النفوس أعظم من حياة شهداء السيوف، لأن مقام الصديقين فوق مقام الشهداء، فقد ورد فِي الشهداء أنّهم بعد الْموت يكونون فِي حواصل الطيور يسرحون فِي الجنات حيث شاءوا. وأما الصديقون، فأرواحهم تتشكّل

على صوَر أجسامهم يسرحون فِي الوجود حيث شاءوا ولا يَحصرهم شيء، كما سَرَحَتْ أفكارهم قبل الْموت، سرحت أرواحهم بعدها، وفِي بعض الآثار (إذا مات العارف يقال لروحه: جُلْ حيث شئتَ)، والله تعالَى أعلم.

ثُم ذكر ما تَموت به النفس لتحيَى الحياة الطيبة الأبدية، فقال:

وأصعب شيء فقر ثُم مذلة	فَلُذْ بِهما تكن كبير الولايةِ
فمن لَم يكن بالفقر والذل راضياً	فأسرار أهل الله عنه بعيدةِ
فتسليط الجنس فرض فِي السير فاذْره	ويبلى ذلك البلاء عند النهايةِ
فما من صِدّيق إلا قاموا بحجة	عليه ولكن أذنه قد تصممتِ

يقول رضي الله عنه: وأصعب ما تَموت به النفس الذل والفقر، فالذل يسقط جاهَها وكبرياءها، والفقر يذهب مالَها ويُقلل أشغالَها، فتموت حينئذ عن مُناها وتُقبل على مولاها. قال الشيخ عبد القادر الجيلانِي رضي الله عنه (أتيت الأبواب كلها فوجدت عليها الزحام، فأتيت باب الذل والفقر فوجدتُه خالياً فدخلتُ وقلت: هَلُمُّوا)، وقام الشيخ أبو يزيد يتهجد فِي الليل فهَتَفَ به الْهاتف: يا أبا يزيد خزائننا معمورة بالخدمة إيتِنِي من كوَّة الذل والافتقار فَلُذْ بِهما، أي تعَلَّقْ بِهما تكن كبير الولاية. فمَنْ لَم يَرْضَ بالذل والفقر ويستحلهما، لا يطمع أن تفيض عليه أسرار الولاية إذ لا تفيض إلا على من ماتت نفسه، ولا تَموت إلا بِهما. وتسليط الناس على الأولياء فرْضٌ لازم فِي حال سيرهم، حتّى إذا تطهروا من البقايا وتكملت فيهم الْمزايا أعزَّهم الله وأحبَّهم الخلق ليَقع الانتفاع بِهم. قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه (اللهم إن القوم قد حكَمْتَ عليهم بالذل حتّى عزّوا، وحكمت عليهم بالفقد حتّى وجَدوا)، وقد يبتلى بالإذاية بعد النهاية، لأن الداخل على الله منْكور لكنه قليل بالنسبة لِحال السيْر، لأن إقبال الناس على الْمريد فِي حال سيْره فتنة له وشغل له عن السير، فإدبارهم عنه أرفق به وأعْون له على سيره، فما من صادقٍ فِي طلب الحق إلا قابلوه بالإنكار وقاموا عليه بالحجج الشرعية ليردّوه عن الله، لكنه أذنه قد تصامَمت عنهم فلا يسمع كلامهم ولا يلقي إليه أذنه قط، وتلك الحجج الواهية هي أن يقولوا له: تركت عيالك والخدمةُ عليهم أفضل من الحج والجهاد وتركتَ العلم وأهله، ولا يدرون أن علاج القلوب

فرْضُ عيْن يتقدم على كل شيء، وجوابُهم هو السكوت والغيبة عنهم اشتغالاً بالله واكتفاء بعلمه، كما قال رضي الله عنه:

لــه همــة عليــا بــالله تَعَلَّقَــتْ ... وروح منــه اشــتاقت إلَــى حــضرةِ
وأكبــر عقــل منــه للعلــم مقبــل ... وقلــب إلَــى مَحــل نــزول حكمــةِ
وســرْ لعَــيْن بَحــر ذات جمالــه ... لَهــا نظــرة بنــور عــين الحقيقــةِ
ونفسه فِـي المثـال صـارت كأرضـنا ... سـوت تحـت أقـدام جميـع البريـةِ
فـلا زال يـدنوها وينـسى حظوظهـا ... حتّـى زال وصـفها وصـارت عاليـةِ
تغـوص فِـي بحـر الـسر بـسر فكرهـا ... وتــأتِي بأشــراف العلــوم النفيــسةِ
فلــم تــرْوهِ هنــاك إلا عــن نفــسها ... فِــي عــالَم ســرها تــصح الروايــةِ
فواســطة الإلْهــام أمــين وحيهــا ... يــأتِي لَهــا بــالتبليغ فِــي كــل ســاعةِ

يقول رضي الله عنه فِي وصف الْمريد الصادق: له هِمة عالية تعلقتْ بالله تعالَى فلا يردّها عنه شيء، وله روح اشتاقت إلَى سر الحضرة فلا يعوقها عنها أحد، وعقله الأكبر مقبل على العلم بالله وهو العلم النافع، وقلبه السليم مترقب لنُزول الحكمة الإلَهية، وسِرُّه الصافِي ناظرٌ لعين بَحر ذات جَمال الحق ينظر إليها بعيْن الحقيقة، يعنِي أن سرَّه عاكفٌ فِي حضرة الذات يراها بِها لا بعيْن الحس، ونفسه الْمطمئنة كالأرض يَمُرُّ عليها البر والفاجر ولا تفرق. قال الجنيد رضي الله عنه (الصوفِي كالأرض يطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح)، وقال أيضاً: (الصوفِي كالأرض يطأه البر والفاجر، وكالسماء يُظل كل شيء، وكالْمطر يسقي كل شيء). فلا زالَ يَدْنُو بنفسه إلَى الأرض وينسى حظوظها، حتّى يزول وصفها الدَّنِي، وتصير عالية شريفة صافية من العلل كما كانت أولاً، فتغوص بفكرتِها فِي بَحر الأسرار وتأتيه باليواقيت والدرر، تأتيه بعلوم نفيسة لدنية لَم تَرْوِها عن أحد إلا عن فكرتِها فِي عالَم سِرّها بوحْي الإلْهام، وهو أصح من رواية الكلام، فواسطة الإلْهام أمين وحيها، كما كان جبريل عليه السلام واسطة فِي وحي الأحكام، فيأتِي وحي الإلْهام إلَى الفكرة بعلوم وأسرار فِي كل ساعة، وقد تقدَّم قول أبِي سليمان الدارانِي: (إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام، جالت فِي

الْملكوت، ثُم عادت لصاحبها بطرائف الحكمة من غيرِ أن يؤدي إليها عالِمٌ علْماً)، وقال ابن الفارض رضي الله عنه:

ولا تَكُ مِمَّنْ طَيَّشَتْهُ طروسُهُ ... بِحيث اسْتَخَفَّتْ عقله واسْتَفَزَّتِ

فَثَمَّ وراء النقلِ عِلْمٌ يدقُّ عنْ ... مدارك غايات العقول السليمة

تلقيته مِنِّي وعنِّي أخذته ... ونفسي كانت من عطائي مُمدّة

ثُم قال رضي الله عنه:

فإنّها نقطة الجمال حقيقة ... من النقطة الكبرى برزت لِحكمةِ

تقدمْ ولا تخفْ فنارها ساعة ... ونورها دائمٌ بين شَمس الحقيقةِ

فَطهِّرْهَا تطهيراً ظاهراً وباطناً ... وخذها ولا تَخف من هول وفتنةِ

فإنّها سر الله قطب جَماله ... فمنها نال الوجود عزًّا ورفعةِ

عليه تدور أفلاكه جميعها ... وأنواره منها تلوح بقوةِ

فلولا الْهوى لضاء نور بَهائها ... على سائر الأقطار فِي كل ساعةِ

فشمس عالَمها من نورها أبرزتْ ... وأنجمه منها كلا مستنيرةِ

وأنوار أفلاك الأفق بأسرها ... ومنها مدد الكل فِي كل لَمحةِ

يقول رضي الله عنه: فإن الروح نقطة من جمال الحق بَرزَتْ من النقطة الكبرى وهي الروح الأعظم، فإذا تطهَّرتْ رجعَتْ لأصلها فتصير عيْن الجمال الكلي، فتقدَّمْ أيها الفقير لِجهادها إن أردت أن تردها لأصلها، فجاهِدْها ولا تَخفْ من قتلها، فنارُ جهادها ساعة أي مدة قليلة، ونورُها دائم لا يفنَى تَمشي به فِي الناس فِي حياتِها وبعد مَماتِها، فطَهِّرْها ظاهراً وباطناً بأنوار الشريعة وأسرار الطريقة والحقيقة، وخُذْها بلُطْفٍ وسياسة حتّى تَملكها، فإذا ملكتها فقد ملكتَ الوجود بأسره، فإنّها سر الله الأعظم وقطب جماله، فمنها نال الوجود عزّاً ورفعة، لأن الوجود تابع لسر بنِي آدم، فإذا استقام الآدمي استقام الوجود، وإذا فسدَ فسَد الوجود، فعلَى حقيقة الآدمي وهي سِرُّ روحه تدور أفلاك الكائنات، وأنوارها منها تلوح وتظهر، لأن الروح الأعظم، القبضة البارزة من بَحر الجبروت، أوّل ما تَجلّى منها أرواح بنِي آدم ثُم تَجلى منها بقية الكائنات،

فكانت الروح حاكمة على سائر التجليات، وهي خليفة الله فيها لَها خلِقت، فقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾، وقال فِي بعض الكتب (يا بن آدم خلقتُ الأشياء من أجْلك، وخلقْتُك من أجلي) الحديث. فلولا أن الْهوى طَمَسَ نورها لأضاءَ على الوجود بأسره، قال الشيخ أبو العباس الْمرسي رضي الله عنه: لو كُشِفَ عن نور الْمؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض، ولو كُشِفَ عن نور الولِي لعُبِدَ مِنْ دون الله، فنورُ الشمس والقمر والنجوم بعضُ نورها، وأنوارُ الملائكة من نور الروح الأعظم، ومن الروح الأعظم مدَدُ الكائنات بأسرها، والروح الأعظم هو السر الأزلِي الذي ظَهَرَ لعالَم الشهادة، فما ثَمَّ إلا الله، ولا شيء معه، غير أن الذات تَجلتْ متلونة بألوان متعددة.

ثُم قال رضي الله عنه:

وبِهـا عَـلا أهـلُ الإلـه جمـيعهم ... وصاروا ملوك الكل فِي أعلى رتبةِ
يَجُـرُّوا ذيـول العـز حيـث توجهـوا ... وحـالُهم الغنـا بـرب البريـةِ
عظـم اكتفـاؤهم وكفـاهم كلمـا ... يهمّهـم بفـضْل وجـود ومنـةِ
وإن أصـيبوا فـالحفظ حـال قلـوبِهم ... ومَـنْ أولَـى مـنهم بـالأمور العظيمـةِ
فهـم معـه معيَّـة الحـال دائمـا ... وذاك فـوق طـور العقـول الراشـحةِ
فلا يـدري حـالهم فِي القـرب سـواهم ... وكـل جميـع الخلـق عـنهم فِي غفلـةِ

يقول رضي الله عنه: وبتصفية الروح حتّى رجعت لأصلها، عَلاَ أهل الله وأولياؤه وصاروا ملوكاً يتيهون على الكون بأسره، بل يصير عندهم أصغر شيء كالخردلة فِي الْهواء ويصيرون فِي أعلى رتبة عند الله يَجرون ذيول العز حيث ما توجهوا، أغنياء بالله والأشياء تشتاق إليهم وهم أغنياء عنها، عَظُمَ اكتفاؤهم فكَفاهم كلَّ ما يَهُمُّهم، كانوا لله فكان الله لَهم، ثُم كانوا بالله فكان الله بِهم، أي قام بشؤونِهم بفضْلٍ منه وجُود ومِنة، وإن أصيبوا فِي الظاهر من جهة البشرية فالحفظ حاصل لقلوبِهم، لا تُحركهم الزلازل ولا تزعجهم الأهوال ولا تضرهم الفتن، كما قال فِي وصفهم الشاعر:

لا تَهتـدي نـوب الزمـان إلـيهم ... ولَهـم علـى الخطـب الجليـل لِجـامُ

ومَنْ أولَى منهم بالبلاء والمحن العظيمة لقوله عليه السلام (أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثُم الأمثل فالأمثل) وقال (يُبتلَى الرجل على قدر إيمانه)، فلما كانوا أقوياء حَمَّلَهم الحق البلاء الذي كان نازلاً على الناس، فهم مع الله دائماً فِي الجلال والجمال، مَعِية حالية ذوقية لا علمية فقط، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾، فعند أهل الظاهر بالعلم والإحاطة، وعند أهل الباطن بالذات المقدسة على ما يليق بجلالة قدسه، وهذا فوق طور العقول الراشحة، لا يفهمها إلا أهل الأذواق الكشفية، فما زالوا يتقربون إليه حتّى أحبهم، فلما أحبهم كان سَمعهم وبصرهم وجملتهم لقوله (فإذا أحببتُ كنتُه)، فلا يدري حالَهم فِي القرب غير مَنْ دخَلَ معهم فِي ذلك القرب، وكل جميع الخلق فِي غفلة عنهم غائبون عن بلادهم، كما قال قائلهم:

تركنا البحار الزاخرات وراءنا ... فَمِنْ أينَ يَدْري الناسُ أين تَوَجُّهْنا

وقال سيدنا علي كرم الله وجهه:

الطُّرُق شتّى وطريق الله واحدة ... والسالكون طريق الله أفرادُ

لا يُعرفون ولا تدرى مسالكهم ... فهُمْ على مَهْلٍ يَمْشون قصَّادُ

والناسُ فِي غفلة عمَّا يُراد بِهم ... فجُلُّهم على سبيل الحق رُقَّادُ

ثُم قال رضي الله عنه:

فلو نادتْهم كل الأشياء بصوتِها ... لَما التفتوا إليها بأدنَى لَمْحَةِ

يُباشرها والقلب عنها بِمعزل ... مُلِئَ حقيقة بنور الحقيقةِ

مَنْ أجلهم أكرم الله كل الورى ... وصار عصاة الخلق فِي ظل رحمةِ

تطيب الأماكن بذكر سماعهم ... وتعلو فوق الأماكن وقتا بِجلسةِ

وإن داموا صار فِي المعالِي مقامهم ... كأنه كوكب منير فِي رفعةِ

فبسِرّهِمْ دار الفلك بِحكمة ... وحَرَّكَ أقطار الوجود فِي لَمحةِ

يقول رضي الله عنه: فلو نادتْهم الأشياء كلها بصوتِها تعظمهم وتُجِلهم وتقول لَهم يا أولياء الله نحن نحبكم ونشتاق إليكم، ما التفتوا إليها ولا وقفوا معها بل علموا أن الأمر أمامَهم، وأن ذلك اختباراً من الله وابتلاء لِمن يقف مع الأشياء أو يرفع الْهمة

عنها، قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴿٧﴾ ﴾ أي لنعلم من يقف معها ومن يزهد فيها. فهم يباشرون الأشياء بأجسادهم، وقلوبُهم بِمعزل عنها لأنّها مُلِئتْ بنور الحقيقة الربانية فلم تلتفت إلَى غيرها، فمِنْ أجْلهم أكرم الله الخلق، فبِهم يُمطَرون وبِهم يُنْصَرون وبِهم تنْزل الرحمة على العصاة فلا يعاجلون بالعقوبة. تطيب الأماكن بذكرهم، وتحيَى القلوب بسماع حديثهم، لأن عند ذكرهم تنْزل الرحمة، وتعلو الْمقامات بصحبتهم، فيدرك بجلسة واحدة معهم ما لا يُمكن حصْره من الفضائل والكمالات، وإن دام فِي صحبتهم وخدمتهم صار مقامه فِي الْمعالِي السنية والدرجات العالية كأنه كوكب دريّ فِي السماء، فبِسِرّهم يدور الفلك من المشرق إلَى المغرب فيتحرّك بحركته ما تحته من أقطار الوجود، لأنّهم أقطاب عليهم يدور الوجود بأسره، والله هو الفاعل المختار حقيقةً.

ثُم تَمم ما بقي من أوصافهم، فقال:

فمفتاحُ أبواب العلوم بأيديهم ... وسرُّ العطا موهوب بلمح نظرةِ

وكل مدد الخلق منهم جميعه ... بأنعم فضله أو بعَدْل نقمةِ

فمن نار قبضهم صار حرها ... عذاباً لأقوام مَجاناً مع ذلةِ

ومن نور بسطهم جِنان تزخرفت ... بَهاء وأنوارا سرورا مع بَهجةِ

وأنْهارها بسِرهم فاض خَمرها ... وأغصانُها نادت بألطاف نغمةِ

وبنورهم حور العيون تنورت ... وولدانُها المسخرة لِخدمةِ

يقول رضي الله عنه: فمفتاح أبواب العلوم بأيديهم، فمن أراد فيض العلوم فليصحبهم ويخدمهم، وسِرُّ العطاء موهوب لَهم، يغنون بنظرة واحدة، فلله رجال إذا نظروا أغنوا وهم موجودون فِي كل زمان، ومدَدُ الخلق كله منهم، لأنّهم أقطاب، ومن شأن القطب أن تقسم الأمداد على يديه حسية ومعنوية، والقطب يتعدد بتعدد الأقاليم، ففِي كل إقليم قطب يقسم مدد ذلك الإقليم على يديه، وقد يتعدد بتعدد الأحوال والْمقامات والعلوم، فمَنْ غلب عليه شيء من ذلك كان قطباً فيه، فمن غلبت عليه الأحوال كان قطباً فيها، ومن غلب عليه السكون فِي الْمقامات كان قطب الْمقامات،

ومن غلبَ عليه فيض العلوم كان قطب العلوم، قال الشيخ أبو العباس الْمرسي رضي الله عنه (كان الجنيد رضي الله عنه قطب العلوم، وكان الشيخ أبو يزيد رضي الله عنه قطب الأحوال، وكان سَهْل قطب الْمقامات). وأما الغوث فواحد ومنه مدد الجميع، والْمدد إنّما يُطلق على ما يقوم به الشيء وينتعش به حسّاً أو معنًى، فلا تسمى النقم مدداً فِي الاصطلاح لأنّها تفنِي ولا تبقي، والْمدد من شأنه الإبقاء لا الإفناء. فقوله (أو بعدل نقمة) الصواب حذفه فيقول فِي الشطر الثانِي بإمداد حِس أو بباطن مِنّة. ومن نار قبْضهم تتسَعَّر النيران عذاباً لأهل الخذلان، ومن نور بسطهم تتزخرف الجِنان، لأنّهم صاروا عين العيْن، فقبضُهم بالله يظهر ذلك فِي الوجود جلالاً، وبسْطُهم بالله يظهر فِي الوجود جَمالاً وبَهجة وسروراً، وأنْهار الجنان بسرهم أيضاً فاضتْ بالخمر واللبن والماء والعسل، لأنّها ما ظهرت إلا لَهم وما فاضت إلا من قبضة نورهم، وأغصان الجنان إنّما نطقت بألطف النَّغم من نورهم وسرهم، ومن نورهم أيضاً تنوَّرت الجنان وتزينت، وكذلك الولدان المسخرة لأمرهم، فلولا وجود الأولياء المقربين ما ظهر شيء من هذا، فما ظهر الوجود إلا لَهم، والله تعالَى أعلم.

ثُم قال رضي الله عنه:

وزينة عرش الله بعض جمالِهم	ولو بدا سرهم للأشياء لدكتِ
وسرّهم نقطة من بَحر حبيبنا	ومولانا أحمد العظيم العطيةِ
فمن بحر سره عليه صلاته	سقاهم صفاء الشرب من طيب لذةِ
ومن نور برّه عليه سلامه	كساهم حلل العز أشرف لبسةِ
ومن عقله عقولُهم تنورت	ومن روحه أرواحهم مستمدةِ
ومن علمه الأعظم لَهم مواهب	تفوق لُجَجَ البحر فِي أقوى شدةِ
وبه نَجوا من الْهموم جميعها	وبه كانت حياتُهم أبديةِ

يقول رضي الله عنه: زينة العرش وبَهجته بعضُ جمال أولياء الله، لأن الله تعالَى قال فِي صورة الآدمي: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾، ولَم يقل فِي العرش ولا غيره أنه خلقه فِي أحسن تقويم، فدَلَّ أن الإنسان إذا كمل حسّاً ومعنًى كان

أحسن من العرش وأجمل، وأيضاً العرش وما حواه قد ينطوي فِي زاوية من زوايا قلوبِهم فيكون جماله منطوياً فِي جمالِهم، بل لو ظهر سرُّهم الباطنِي لذابت الأشياء من سطوته، وقد تقدم قول أبِي العباس (لو كُشِفَ عن نور الولِي لعُبِد من دون الله).

وسِرُّهم نقطة من بحر سر سيد الوجود، لأن مِنْ سره انشقت الأسرار والأنوار، وهم بعض الأنوار التِي انفلقت من سره عليه السلام، فمِنْ بَحر سره سَقاهم صفاء الشراب، ومن نور برّه وإحسانه كساهُم حلل العز والاقتراب، ومن عقله الكبير تنوَّرت عقولُهم باتباع هديه وسيرته، ومن روحه الصافية استمدَّت أرواحهم المعارف والأسرار، ومن علمه الأعظم عليه الصلاة والسلام فاضت عليهم مواهب العلوم وفتحت لَهم مخازن الفهوم كأمواج البحر المكظوم، لَمَّا عمِلوا علَّمهم الله ما لَم يعلموا، وبِمتابعته عليه السلام نَجَوْا من الْهموم والغموم، وبه أيضاً اكتسبوا الحياة التِي تدوم.

ثُم قال رضي الله عنه:

وخصوا بسره الخفيّ بين الورى	وأعطاهم منه قرباً فوق الخليقةِ
ولا زالوا فِي ارتقاء نَحْو كماله	حتّى بدت صورة الْحبيب البهيةِ
كأن سواها في المظاهر لَم يكن	وهذه رتبة من أقصى الولايةِ
فلهم عينان للجمالَيْن ناظراً	فهذي لِحالة وهذي لِحالةِ
فواحدة تطوي الوجود بأسره	وأخرى له بالنشر فِي كل ساعةِ
فيا له من مقامٍ ما أعلى أمره	لبعض رجالنا من أهل طريقةِ
وهذا علمي وفوق علمي علومهم	فلم أذرِ سوى البعض منها لغفلةِ

يقول رضي الله عنه: قد خصَّ الله الأولياء العارفين بالله بِمعرفة سره عليه السلام، وأنه الْمظهر الأكبر من مظاهر الخلق، فمظاهر الأولياء فِي جملة الْمظاهر كالنجوم الكبار، ومظاهر الأنبياء كالأقمار، ومظهر نبينا صلى الله عليه وسلم كالشمس الضاحية فِي أفق السماء، وهذه هي الْمعرفة الخاصة التِي سألَها القطب ابن مشيش رضي الله عنه بقوله: وعَرِّفْنِي إياه معرفةً أَسْلَمُ بِها من موارد الجهل الخ، فخصّوا بِهذه

الْمعرفة من بين سائر الورى إذ لَم يعرفوا إلا صورته الحسية فِي عالَم الفرْق فهم بُعداء منه ولو فنَوْا فيه ورأوه يقظة جزئياً فهم من الذين تعرض عليه صلاتُهم عرْضاً، وأهل معرفته هم الذين قال فيهم: أعْرِفُ أهل مَحبتِي وأسْمعهم وتعرض علي صلاة غيرهم عرْضاً، فأهل الفرق كلهم مِمن تعرض صلاتُهم عليه ولو بلغوا ما بلَغوا، وأهل الجمع كلهم مِمن يسمع صلاتَهم بنفسه عليه السلام، وإليه أشار الشيخ بقوله (وأعطاهم منه قرباً فوق الخليقة)، وفِي ذلك الْمقام قال الشيخ أبو العباس (لو غاب عنّي رسول الله صلى الله عليه وسلم طرْفة عيْن ما أعددت نفسي من الْمسلمين)، فما زالوا يترقون فِي الكمالات حتّى ظهرت لَهم الصورة الْمحمدية البهيّة فِي كل مظهر كأنَّ سواها فِي الْمظاهر لَم يكن، وهذه تحصل للمريد فِي حال رجوعه للبقاء، فيشاهد نورَ الربوبية ظاهراً فِي القبضة الْمحمدية. فإذا نظر بعيْن الجمْع لَم ير إلا الحق، وإذا نظر بعيْن الفرْق لَم ير إلا نور سيدنا مُحمد صلى الله عليه وسلم، فالْمظهر واحدٌ، فمِنْ جهة الْمعنَى ما ثَمَّ إلا الله، ومن جهة الحس ما ثَمَّ إلا مُحمد صلى الله عليه وسلم، فما ظَهَرَ فِي الحقيقة إلا أسرار الألوهية فِي مظاهر أنوار القبضة الْمحمدية فليس فِي عالَم الحس سِواها، وهذه رتبة من أقصى مراتب الولاية لتحقق صاحبه بالفناء والبقاء، وقد قالوا (مَنْ رجع إلَى البقاء أمِنَ من الشقاء) أي من الرجوع فِي الغالب، والله غالب على أمره. فلأهل هذا الْمقام عينان: أحدُهما تنظر لِجمال الْمعانِي فِي مظاهر الأوانِي فلا ترى إلا الْمعانِي، وأخرى تنظر لِزَهْر جَمال الْمعانِي البارز فِي مظاهر الأوانِي فلا ترى إلا جَمال سيدنا مُحمد عليه الصلاة والسلام، فواحدة تطوي الوجود بأسره فلا ترى إلا الله، وأخرى تظهره وتنشره فلا ترى إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيَا له مِن مقام ما أعلاه ومِنْ نور ما أسْناه، وهو لبعض الرجال من أهل التحقيق والكمال أهل الفناء والبقاء.

قال الشيخ رضي الله عنه هَضْماً لنفْسه هذا علمي وعلومهم فوق ذلك فلم أدر إلا البعض منه، قال تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾، وفِي الحديث (مَنْ تواضعَ دون قدْره رفَعه الله فوق قدره). قلت: أما فِي علم التوحيد الخاص وتدقيق مسائله وتَحرير علومه، فالشيخ رضي الله عنه لا يطار تَحت جناحيه، كما شهد له شيخه بذلك وسَمَّاه الفرْد، والفرْد أكمل من القطب فِي العلم بالله كما تقدم.

ثُم قال رضي الله عنه:

فإنهم أعظم الْحجب لأحمد وأحمد أعظم حجب الحقيقةِ

فكُنْ مثلهم فِي السير إن شئت سرهم ولا تكن كالعوام من أهل غفلةِ

ظاهرك بأمر الشرائع قائم وباطن منك بالأسرار العاليةِ

فَصَلِّ صلاةَ الجَمْع فِي الفرْق أينما توجهت لتلك الآية العظيمةِ

وإليه بالتحقيق وجهك دائماً وهذي إشارة ونعم الإشارةِ

يقول رضي الله عنه: الأولياء بوَّابون وحجب للحضرة النبوية، فلا يدخلها أحدٌ ويعرف سرّها الباطنِي إلا على أيديهم، كما أن الْمصطفى صلى الله عليه وسلم بواب وحجاب للحضرة الإلَهية فلا يدخلها أحد إلا على يديْه ومتابعة شريعته والتأدب بآدابه صلى الله عليه وسلم، فإذا تأدَّبوا بآدابه وتَحققوا بأخلاقه عليه السلام صاروا خلفاءَه فصاروا بَوَّابين وحجاباً أيضاً للحضرة القدسية بالنيابة عنه، وكذلك الأنبياء والرسل كانوا عليهم الصلاة والسلام حجباً وبوابين للحضرة لأمَمهم، ونبينا عليه الصلاة والسلام أعظمهم وأفضلهم، ولذلك قال القطب ابن مشيش (وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك). فإن شئتَ أن تنال سرَّهم، فكُنْ مثلهم فِي السير والاجتهاد، ولا تكنْ مثل العوام البطَّالين، فلولا ميادين النفوس ما تَحقق سير السائرين، فليكنْ ظاهرك معموراً بالشرائع وباطنك مغموراً بالحقائق والأسرار العالية، لا يحجبك جمعك عن فرْقك ولا فرْقك عن جمْعك، بل تعطي كل ذي حق حقه، وتوفّي كل ذي قسط قسطه، فصَلِّ صلاةَ الجمع وأنت فِي الظاهر فِي عالَم الفرْق، واسجدْ لأي جهة شئتَ، قال تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ أي أسرار ذاته ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. دخل بعض الصالِحين دَيْراً لبعض النصارى فقال له: أرِنِي بقعة طاهرة أصلي فيها، فقال له الراهب: طَهِّرْ هذا- وأشار إلَى قلبه- وصَلِّ حيث شئتَ. فصلاةُ الجمع هو سجود القلب فِي حضرة الحق فيغرق فِي بَحر العظمة فلا يَرى غيرها، فهو ساجدٌ دائماً أينما توجه وحيثما حَلَّ. فإنْ أردتَ هذه الصلاة فوَجِّهْ وجهَك إليه دائماً ودُمْ على سيرك ولا تلتفتْ إلَى غيره طرْفة عيْن حتّى تصل إلَى ما وصلوا أو تَموت، فهذه إشارة ونِعْمَ الإشارة،

وكلامنا كله إشارة.

ثُم قال رضي الله عنه:

فأهـل النهـى يـدري إشـارة سـره ... ويـسجد بـالأرواح لكـل وجهـةِ
ومـن كـان فهمـه قـصيراً فيـسجد ... لِمَكَّـة تابعـاً لظـاهر الآيـةِ
ولـه مـدد الـبعض منهـا لـسِره ... تـمده مـدد الْهمـم الـضعيفةِ
فكـن سـاجداً لله سِـرًّا بكُـلِّكَ ... ولا تـنقص عنـد الـبعض أقـل ذرةِ
وكـنْ داعيـاً عنـد الـسجود تأدبـاً ... وسَـبِّحْهُ بـالإجلال فِـي كـل ركعـةِ
وفرض عين جاءت على من تكلف ... وأمـا صـلاة الـسر عـيْن الفريـضةِ

يقول رضي الله عنه: فأهل النُّهى وهم أهل العقول الصافية يدرون الإشارة بصلاة السر وما الْمراد بِها، وهي صلاة القلوب فِي حضرة الغيوب، فتسجد أرواحهم لكل وجهة لرؤية الحق فيها للآية الْمتقدمة. قيل لبعضهم: هل للقلوب صلاة؟ قال: نعمْ إذا سَجد لَم يرفع رأسه أبداً، وإليه أشار الششتري بقوله:

فاسْجُدْ لِهيبـة الْجـلال عنـد التـدانِي ... ولتقـرأ آيـة الكمـال سـبع الْمثـانِي

وأهل هذه الصلاة هم الْمرادون بقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾، فلا يخرج من وصف الجزَع والْهلع إلا أهل هذه الصلاة وهم أهل الغنَى بالله الأكبر. ومَنْ كان فهمُه قصيراً لَم يعرف الإشارة ولا ذاق سِرَّها، فإنّما يسجد لِجهة مَخصوصة وهي مكَّة تابعاً لظاهر الآية فِي قوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية، ولو فهِم الإشارة لعَلِم أن الْمسجد الحرام هو كعبة الحضرة القدسية التِي لا تختص بزمان ولا مكان، لكن لَما كان فهمُه قصيراً اقتصر على ظاهر الشريعة فِي عالَم الفرْق، فاستمدَّ فِي ظاهر الشريعة مدداً ضعيفاً، لأن هِممهم أهلها ضعيفة لضعف باطنهم، فلذلك طال خصْمُهم ووعظهم للناس ولَم ينقد على يديهم إلا القليل، بِخلاف أهل صلاة القلوب فِي ساعة واحدة ينهض على يديهم الْجم الغفير، فكُنْ أيها الفقير ساجداً إليه تعالَى فِي السرّ بكليتك ولا تنقص من كليتك أقل ذرّة بل

اصرفْ وجهك كله لله إن أردت أن تكون من أهل صلاة القلوب. أو يقول ولا تنقصْ عند سجودك للبعض، أو عند صلاة البعض، أقل ذرة من سجود الكل، يعنِي لا تحجب بصلاة البعض عن صلاة الكل، بل كن مجموعاً فِي صلاة الفرق بِحيث تكون صلاتك بالله، من الله إلَى الله، وكنْ داعياً فِي سجودك فِي صلاة البعض تأدباً معه تعالَى، وسبحْه بالتعظيم والإجلال فِي كل ركعة. فالصلاة الحسية التِي هي ببعض الجوارح فَرْضُ عَيْن على مَن لزمته، وأما الصلاة السرية فهي فرض تلك الفريضة وعيْن روحها وقيام حياتِها، فلا تصح الصلاة الحسية إلا بوجود الصلاة السرية، لأن وقوع الصلاة الحسية بلا حضور السر خاوية ميتة، والْميت لا عبرة به.

ثُم قال رضي الله عنه:

وفِي الوقت صلاتيْن صَلِّهما معا ... فذاك قرة العين فادر إشارتِي
وإن كنت من إحدى الصلاتين فارغاً ... فكن ساجداً فِي الأخرى بإحدى سجدةِ
ولا ترفع يوماً من سجودك طرفة ... فليس هنا وقت تكون الإعادةِ
فهذه للأبدان لأجل ضعفها ... وهذه من أجل القلوب المريضةِ

يقول رضي الله عنه: وصَلِّ أيها الفقير الصلاتيْن معاً فِي وقت واحد أي اجمعْ بين الصلاة الحسية والصلاة السرية، بِحيث تصلي بالله فارغاً مِما سواه، فالجوارح تخضع لله فِي عالَم الأشباح، والروحُ تصلي بالله فِي عالَم الأرواح، فهذه قرة العين التِي أشار إليها صلى الله عليه وسلم (وجُعِلتْ قرة عينِي فِي الصلاة)، ولكل واحد من أمته وورثته قسْطٌ من قرة عيْن على قدر شهوده ووراثته، وإنْ لَم تقدر على جَمع الصلاتيْن فِي وقت واحد بل كنت فارغاً من إحدى الصلاتيْن، فإن لَم تقدر على الإتيان بالصلاة الحسية لِجذب غالب أو حالة قوية فكُنْ ساجداً فِي الأخرى أي فِي الصلاة السرية بِسجدة واحدة ولا ترفعْ رأسك من سجود الحضرة طرفة عين فليس ثَمَّ وقت تكون فيه السجدة الثانية، وهذه صفة صلاة القلب إذا سَجد لَم يرفع رأسه أبداً، وبعضهم أثبت لصلاة القلب سجدتيْن: سجدة الفناء وسجدة البقاء، وإليه ذهب الجيلانِي رضي الله عنه حيث قال:

فاسجُدْ أي افْنَ وافْنَ عن الفنا ... فاسجُدْ أخرى والْمتيم والِـغُ

وإنْ لَم تقدر على صلاة السر لضُعف باطنك من النور، فارغبْ إلَى ربك فِي حال سجودك الحسي فإنه أقرب ما يكون العبد من ربه وقُلْ (يا رب خُذْ بيدي فقد لعبتْ بِي نفسي وقد غلبنِي الْهوى) وناديه بلسان الانكسار وحال التضرع والاضطرار، فإن الله يُقَيِّضُ لك وليّاً من أوليائه يأخذ بيدك حتّى تجمع بين الصلاتين، فهذه أي الصلاة الحسية للأبدان لأجل ضعفها، وهذه أي الصلاة السرية للقلوب لأجل قوتِها.

هذا مُضمَّن كلامه، لكن لا تفي عبارته بِما ذكرناه فتأملها، وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثُم شرع فِي الْمناجاة فقال:

بِمحض الكرم يا إله تَولَّنا وكُنْ لنا وارعنا بعين العنايةِ

ولا تترك حولنا عدوّاً وظالِماً وإن حام له آته بكل ذلةِ

وخذه قبل اهتمامه بِهلاكنا لأنك عالِم بكل الخفيةِ

يقول رضي الله عنه: إلَهي تَوَلَّنا بِمحض كرمك وارعنا بعين عنايتك، ولا تتركْ حوْلَنا من يقطعنا عنك من عدو وظالِم أو حاسد مُعاند صارم، فإنْ حامَ حوْلنا يَروم إذايتنا فخُذه ودَمِّرْه تدميرك أهل الطغيان، وآته بكل مذلة وهوان، وخُذْهُ قبل أن يهتم بِهلاكنا فإنك عالِم بسرِّنا وعلانيتنا.

فائدة: قال السيوطي فِي الجامع: كان صلى الله عليه وسلم إذا خاف قوماً قال (اللهم إنا نَجعلك فِي نُحورهم، ونعوذ بك من شرورهم)، وقال سيدي الْمهدي الفاسي فِي شرح الدليل: مَنْ قرأ حزب النووي بعد العشاء لا يقدر أن يتصرف فيه أحد لا جبار عنيد ولا شيطان مريد ولا أحد من أهل التصريف الباطنِي من الأولياء مثلاً. قلتُ: وقد جرّبناه فِي أوقات الشدائد فصَحَّ، ومثله حزب اللطف للشاذلِي، وحزب البحر، وحزب النصر لأبِي الْمواهب، وكذلك آية الحرص ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ ﴾ تقرأ سبْعاً صباحاً ومساء فإنّها حصن الحصين، وهذا آخر الزمان كثرت فيه الأهوال والْمصائب لا ينفع فيه إلا التحصن بالله وبكلام أوليائه، والله ولِي الْمتقين، وهو يتولّى الصالِحين.

ثُم قال رضي الله عنه:

وكل جبار اقطعْ عروقه وأوراقه وأغصانه الْممدةِ

وأيـن مـا ولّـى الوجـه خـذه بـسطوة ووله مدبراً عظيم الْمذلةِ
مشتت القلب والجوارح دائماً يُخوفه الشيطان كل الْمخافةِ
ولا تترك منهم في الوجود بأسره عظمت منهم إلَهي كل الإذايةِ

يقول رضي الله عنه: قطعُ العروق والأغصان كنايةٌ عن قطع الدابر، بِحيث لا يبقى منهم فرْعٌ ولا أصل، قال تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. هذه عادة الله تعالَى، كل من اشتغل بالظلم قطع دابره وخرب دياره، قال تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾، وفِي الخبر (لوْ كان الظلم بيتاً فِي الجنة لسَلَّطَ الله عليه الخراب).

ثُم دعَا على أهل الظلم بالْهلاك أين ما كانوا، لأنّهم عظمت إذايتهم للخلق، وأن يأخذهم أينما توجهوا، وإن جاروا علينا يُوَلُّون الأدبار ثُم لا يُنصَرون، بل تضرب عليهم الذلة والْمسكنة أينما ثُقِفُوا، مشتتة قلوبهم وجوارهم، لا تتفق على عقد خير ولا يقين ولا طاعة لله رب العالَمين، بل تلعب بِهم الشياطين بالتخويف والتزيين والتزليق.

واختلف العلماء هل يجوز الدعاء على الظالِم بالكفر والْمعاصي أم لا؟ فقال بعضهم: لا يجوز لأن فيه الرضا بالكفر ووقوع الْمعاصي، والصحيح جوازه بدليل دعاء سيدنا موسى عليه السلام على فرعون بقوله ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية، ودعاء سعد بن أبِي وقاص رضي الله عنه على مَنْ قَذَفَه بالجور بقوله (اللهم أطلْ عمره وأطل فقره وعرّضه للفتن)، والتعريض للفتن هو التعريض للمعاصي، وليس فيه تَمنّي الْمعصية أو الرضا بالكفر، وإنّما فيه إنكاء العدو دون الالتفات إلَى شيء آخر، فهو كتمنّي الشهادة فهو جائز وإن كان فيه تسليط الكافر على الْمؤمن، ولكن الْمقصود هو حيازة فضل الشهادة مع الغيبة عن الحيثية الأخرى، وكذلك الدعاء على الظالِم بالكفر أو الْمعصية الْمقصودُ هو إنكاؤه على الغيبة عما يستلزم ذلك من وقوع الْمعصية فتأمَّلْ.

فإن قلتَ: مذهب الصوفية الحلم والعفو وعدم الانتصار للنفس، والدعاء على الظالِم مخالفٌ لِهذا؟

قلنا: الظلم إذا كان عامّاً لَهم ولغيرهم ينبغي لَهم الدعاء ليدفع الضرر عن الْمسلمين، وإن كان خاصّاً بِهم فمذهبُهم العفو والحلم والدعاء لَهم بالْهداية، ودعاء الشيخ على أهل الظلم لِعموم ظلمهم، والله تعالَى أعلم.

ثُم قال رضي الله عنه:

أقِمْنا سيوفاً من سيوفك ظاهراً ... وباطناً تمحق الأعادي الظلمةِ

أعادي جنود النفس والجنس دائماً ... سريعاً إلَهي يا سريعُ فِي لَمحةِ

فَأمْرُكَ أقرب من البرق إذا بدا ... وأعجب من هذا فِي حكم وسرعةِ

يقول رضي الله عنه: اللهم أقِمْنا أي اجعلْنا سيوفاً من سيوفك التِي تنصر بِها الدين الْمحمدي ظاهراً وباطناً، تمحق الأعادي جميعاً أعادي جنود النفس من الْهوى والحظوظ وأعادي جنود الجنس من أهل الظلم والطغيان، يكون ذلك دائماً حتّى تقوم الساعة، محضاً سريعاً، أسرع من لَمحة العيْن، فأمْرُك أقرب من البرق إذا ظَهَر، وأسرع وأعجب من كل عجيب وأبْهَر.

ثُم قال رضي الله عنه:

فكُنْ لنا والإخوان حيث توجهنا ... وأيِّدْنا وانصرنا بأعظم نصرةِ

وكُنْ لدين الحبيب أحمد حافظاً ... وَطهِّرْهُ يا إله من أهل ظلمةِ

بِحكمك كيف شئت تحكم فِي الورى ... ونسألك اللهم نشر الْهدايةِ

على يد أهل العلم بك حقيقة ... بفضلك يا مُجيب أجب لِي دعوةِ

بجاهك يا من لا جاه فوقه ... وهو الذي رحمت به البريةِ

وبجاه كل من كان له تابعاً ... سالكاً ومَجذوباً على كل حالةِ

يقول رضي الله عنه: فَكُنْ لنا وليّاً ونصيراً وللإخوان كافة حيثما توجهنا، وأيِّدْنا فِي الباطن وانصُرْنا فِي الظاهر بأعظم نصرتك التِي تنصر بِها أولياءك، وكُنْ لدينِ حبيبك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حافظاً من الزيغ والتبديل ومِنْ كل مَنْ يريد إطفاء

نوره الباهر الجليل، وطَهِّرْهُ من كل ظلمة وبدعة بِحكمك النافذ ومشيئتك القاهرة التِي تحكم بِها فِي عبادك كيف شئتَ، ونسألك نشر الْهداية فِي جميع الخلق حتّى يهتدي إليك جميع العباد من الْمسلمين والنصارى واليهود، يكون ذلك على يد العارفين أهل العلم بالله حقيقة، بفضلك وإحسانك يا أرحم الراحمين، فأجبْ دعوتنا بِجاه مَنْ لا جاه فوق جاهه وهو حبيبك سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وشَرَّفَ وكَرَّم ومَجَّد وعَظَّم، قال صلى الله عليه وسلم (توَسَّلُوا بِجاهِي فإن جاهي عند الله عظيم)، وهو الذي رحمت به البرية أي الخلق، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ وبِجاه من تَبِعَه بإحسان إلَى يوم الدين من السالكين والْمجذوبين، آمين.

ثُم خَتَم بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

فصَلِّ وسَلمْ ثُم باركْ على الْهادي ... رحيم بنا فِي كل هول وشدةِ

رؤوف رحيم يطلب العفو دائماً ... لأهل نور الإيمان فِي كل ساعةِ

وحاش حبيبنا أن ترده خائباً ... فيا سَعْدَنا به على كل حالةِ

ونسألك الرضا عن الأهل والصحب ... وتابعهم إلَى انتشار القيامةِ

إنّما ختَم بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوْله صلى الله عليه وسلم (كل دعاء مَحجوب حتّى يُصَلّى عليَّ)، والصلاة من الله على حبيبه زيادة عطف وتقريب وتشريف وتبجيل، والسلام طيب تحية وإكرام وطلب زيادة الأمن والحفظ، والبركة زيادة الخير، أي اللهم تَعَطَّفْ وتَحَنَّنْ على هذا النبِي الكريم الْهادي إلَى الصراط الْمستقيم، وزِدْهُ تقريباً وتشريفاً وتعظيماً وتبْجيلاً، وأَمِّنْهُ من كل ما يُوهِن دينه أو يضعف أمر أمته، وزِدْهُ خيراً على خير، الذي هو رحيم بنا فِي كل هول وشدة وخصوصاً يوم القيامة، فإنه عليه السلام حين يُعطى الشفاعة يقول: أمتِي أمَّتِي، لا يبدأ إلا بِهم لرأفته وحلمه، فهذا نِهاية الإيثار والفتوة، فهو يطلب لنا العفو دائماً فِي حياته وبعد مَماته لأهل نور الإيمان والإحسان، قال صلى الله عليه وسلم (حياتِي خيْرٌ لكم ومَماتِي خيْرٌ لكم، فأما حياتِي فأعلمكم وأرشدكم، وأما مَماتِي فأستغفر لكم) أو كما قال عليه السلام، والْمأمول منك قبول دعوته، فحَاشا فضلك العظيم وخيرك العميم أن

تردَّ خائباً وقد قلت فِي كتابك العزيز ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝ ﴾، فلا يرضى عليه السلام أن يرى أحداً من أُمَّته يُهان فِي النار، فيا سعْدَ ويا بشرى لنا معشر الإسلام إن لنا مِن العناية ركْناً غير منهدم، فِي هذه الدار وفِي تلك الدار، ونسألك الرضا عن الأهل والصحب أجمعين وتابعهم وتابع تابعهم إلَى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالَمين.

انتهى الشرح الْمبارك بِحمد الله وحُسْن عونه وتوفيقه الجميل، نسأل الله تعالَى من فضله وجوده أن ينفع به وبأصله نفعاً عامّاً وأن يكسوه جلباب القبول وأن يتقبله منها بأحسن قبول، آمين، وكان الفراغ من تبييضه ضحوة يوم الجمعة سادس عشر رمضان سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف، وابتدئ تأليفه بعد الخطبة ليلة رمضان على يد جامعه العبد الفقير إلَى مولاه الغنِي به عما سواه، أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنِي، لطَفَ الله به فِي الداريْن، وجعلَه مَجمَع البحريْن، بِجاه سيد الكونيْن محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على الْمرسلين، والحمد لله رب العالَمين.



فهرس المحتويات

الفهرس